الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة العقيد الحاج لخضر -باتنة-
كلية العلوم الاجتماعية والإسلامية

قسم: أصول الدين
فرع: دعوة وإعلام

الموضوع

المرأة في فكر الشيخ" محمد الغزالي"

- دراسة تحليلية -

بحث مقدم لنيل ديبلوم الماجيستير في الدعوة والإعلام

إعداد الطالبة:
نعيمة شناف

إشراف الأستاذ الدكتور:
محمد زرمان

السنة الجامعية/ 1427- 1428هـ
2006 – 2007 م



مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد- صلى الله عليه وسلم- وآله وصحبه الغرّ الميامين, ومن تبع هداهم إلى يوم الدين, وبعد:

إنّ قضية المرأة في المجتمعات الإسلامية لم تطرح في العصر الحديث كمشكلة اجتماعية تتطلب الحل إلّا بعد احتكاك العالم الإسلامي بالغرب, وما صحب ذلك من غزو فكري منظم هزّ أركان المجتمعات الإسلامية وأحدث فيها البلبلة والاضطراب.

وقد استدعى ذلك اهتماما خاصا من المفكرين والعلماء المسلمين الذين هبوا لصد الهجمة الغربية التي تستهدف سلخ المرأة المسلمة عن دينها وأصالتها بدعوى الحرية والانعتاق. فطرحوا قضية المرأة في الإسلام ودافعوا عن وضعها في الشريعة وخاضوا المعارك الفكرية على جبهتين: جبهة الغرب التي سحقت العالم الإسلامي تحت وطأتها العسكرية والثقافية, وجبهة الجمود التي تمثل مخلفات عصور الانحطاط الثقيلة بكل سلبياتها وتداعياتها القاتلة.

وكلما ازدادت الهجمة الغربية شراسة, كلما استبسل المفكرون المسلمون في الدفاع عن القضية وردّها إلى أصولها وجذورها, وذلك بالتأكيد على أن مشكلة المرأة لا تحل باحتذاء النموذج الغربي وإنما تحل بالرجوع إلى المصادر المعصومة, واستلهام الأحكام الخاصة بالمرأة منها.

والشيخ "**محمد الغزالي**" ـــ رحمه الله ـــ واحد من العلماء المسلمين الأفذاذ الذين اهتموا بهذه القضية حيث أفرد لها حيزا هاما في كتاباته واهتماماته الدعوية, وما فتئ هذا الاهتمام يزداد كلما توغل الشيخ في أعماق المجتمع الإسلامي واتضحت له أبعاد المؤامرة الغربية على العالم الإسلامي, حتى تكونت ـــ من مجموع كتاباته ـــ صورة واضحة الملامح لهذه القضية التي أشبعها بحثا وتمحيصا.

فقد عني ـــ رحمه الله ـــ كثيرا بتصحيح المفاهيم الإسلامية التي أخطأ الناس في تصورها, وتصحيح القصور الفكري الذي وضعته أوهام البشر و اقترفته أهواؤهم:﴿ **وَمَنْ أَضَلَ مِمَنْ اِتَبَعَ هَـوَاهُ بِغَيرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ**﴾ [القصص: 50], كما وقف في وجوه الذين حرموا المرأة حقوقها الطبيعية التي منحها لها الإسلام.

فالشيخ " **الغزالي**" استوعب المضامين الاجتماعية لهذا الدين الذي شمل كل ما يتعلق بحياة الفرد والمجتمع, وأدرك أن من أهم أسباب انهيار الحضارة الإسلامية هو إهمال المرأة والانحراف في معالجة قضيتها. وإلى جانب هذا فإنه أدرك الشق الاجتماعي في الغزو الاستكباري للعالم الإسلامي الذي نصّب جل اهتمامه بحقيقة وجوهر المجتمعات الإسلامية, فوضع كل همه في السعي إلى اختراق

وتقويض أهم حصن للمسلمين ألا وهو الإسلام, في حين وجـد أن عنـصر المـرأة في المجتمعـات الإسلامية أمضى سلاح لفرض التربية الغربية المنشودة, بدل التربية والآداب الإسلامية.

من هنا أصبحت الحاجة ماسة إلى **فهم قضايا المرأة** واستيعابها بشكل نميز فيه بين مـاهو أصـيل وماهو دخيل, ثم لدفع ما تحاك حول قضايا المرأة في الإسلام من شبهات وأباطيل. فموضوع المرأة — لاسيما في أيامنا هذه — من المواضيع التي تطرح نفسها بإلحاح, وخاصة إذا كانت دراسته منبثقة من فكر أحد أعمدة التجديد الإسلامي الرئيسة في هذا العصر ومصلحيه الشيخ "**محمد الغـزالي**". فـلا يستطيع الباحث أن يفصل قضية المرأة عن فكره وكتاباته؛ فقد انصب إصـلاحه لأوضـاعها علـى تحريرها من ظلم التقاليد الموروثة الراكدة, وتحريرها من رق التقاليد الدخيلة الوافدة, ومن ثمة تبلورت فكرة بحث «**المرأة في فكر الشيخ محمد الغزالي**» ؛ لأنه واحد من أهم العلماء المسلمين المحدثين الذين سعوا إلى تشكيل حقل ثقافي لدراسة قضايا المرأة المسلمة.

وعليه, تتحدد **الإشكالية العامة** للبحث التي تقتضي الإجابة على السؤالين المحوريين التاليين:

1. ما المقصود بالمرأة وقضاياها من منظور الشيخ "الغزالي"؟
2. ما المنطلقات التي ارتكز عليها الشيخ "الغزالي" في نظرته إلى قضايا المرأة المختلفة, وما هي الحلـول التي يقترحها لها كمشكلة تستوجب الحل؟

وتحت هذه الإشكالية العامة تندرج **جملة تساؤلات** فرعية, أهمها:

- ما موقف الفكر الغربي من المرأة؟ وكيف نظر الفكر العربي الإسلامي الحديث إلى قضيتها؟
- كيف ينظر الشيخ "الغزالي" إلى المرأة؟ وكيف تعامل مع قضاياها؟
- ما دوافع انشغال الشيخ "الغزالي" بهذه القضية؟
- كيف يتصور " الغزالي" وضع المرأة في زحمة الموروثات الشرقية الجامدة, والعادات الغربية الوافدة؟
- ما مفهوم "الغزالي" لتحرير المرأة, وهل يلتقي في ذلك مع دعاة تحريرها؟
- كيف يُقيِّم الشيخ "الغزالي" النموذج الغربي للمرأة في مقابل النموذج الإسلامي الأصيل؟
- ما هي أهم القضايا المحورية التي حظيت باهتمام أوفر من الشيخ "الغزالي"؟
- وهل كان موقفه ثابتا في جميع القضايا, أم كان متغيرا ومتجددًا بحسب الظروف و ملابسات المكـان والزمان؟
- كيف يمكن تقييم مجهوداته الواضحة في القضية؟
- ماهي السبل والوسائل التي يراها الشيخ "الغزالي" كفيلة بالنهوض بالمرأة؟

وقد كان من وراء اختيار هذا الموضوع **أسباب ودوافع** ذاتية وأخرى موضوعية, منها:

1) الانشغال الخاص بقضايا المرأة وشؤونها الداخلية والخارجية, والرغبة في طرق موضوع ذي نفع وفائدة للمرأة المسلمة.

2) الاهتمام بالعطاء الفكري للشيخ "الغزالي", الذي بات يمثل معالم مشروع فكري متكامل لـه سماته وملامحه التي أسهمت الظروف والمواقف في تشكيلها.

3) تميُّز طرح "الغزالي" لقضية المرأة بالوسطية والتجديد؛ إذ يُعد رائد مدرسة الوسطية الإسلامية, وواحد من علماء حركة التجديد الإسلامي.

4) الدور الكبير الذي قام به الرجل في العمل الإصلاحي الاجتماعي لاسيما على مستوى المرأة, وهي الرؤية الإصلاحية التي تحتاج لمزيد من الرصد لمنجزاته وتجاربه ومناهجه بهذا الخصوص لكي تحصل الفائدة, ويعم انتفاع الأجيال الناشئة بثمرات فكره.

5) اهتمام "الغزالي" اهتمامًا زائدا وملحوظا بقضية المرأة, ولي أن أقول ما قاله الشيخ "يوسف القرضاوي":" لم أر من المفكرين الإسلاميين من اهتم بأمر المرأة وإنصافها مثل الشيخ الغزالي".

6) ولعل ما شدَّ انتباهي أكثر للموضوع هو: تطور فكر" الغزالي" في طرح موضوع المرأة, إضافة إلى كونه قد نبه إليه واعتبره من أهم القضايا الجديرة بالدراسة قائلاً في كتابه " الحق المر": "... وما أكثر القضايا التي انحرفنا فيها عن منهاج الكتاب والسنة, فإذا نحن اجتماعيا وسياسيا نتراجع وتنتقص أطرافنا, حتى كاد الانتقاص في هذا العصر يأتي على حقيقتنا, ولعل قضايا المرأة ورسالتها في الحياة من أهم هذه القضايا".

ومن خلال الرؤية الشاملة, فإن **الموضوع يكتسي أهمية بالغة** في ذاته وفي زمنه, وفيما يتعلق بمستقبل المرأة المسلمة.

فمن حيث ذاته: فهو يتعلق بالمرأة كمحور ارتكاز في الأسرة والمجتمع وفي الوقت نفسه يرتبط بفكر أحد أعمدة التجديد الإسلامي الرئيسة في هذا العصر ومصلحيه الشيخ"محمد الغزالي".

ومن حيث زمن الموضوع: فإن طرح الموضوع يأتي في ظروف منها:

- مشكلة المرأة في هذا العصر غدت من المشكلات الهامة؛ لأن التغيرات التي حدثت في العالم أسهمت بشكل فعال في تكوين شخصية المرأة, بما في ذلك مطالبتها بالمساواة مع الرجل إلغاء للفروق الطبيعية بينها وبينه, وتشويها لصورة الفطرة السليمة بتقليد الرجل.
- الرغبة الجامحة في مسايرة الحضارة الغربية بكل حيثياتها, والتقليد الغربي البحت.
- تأثير التكنولوجيا الحديثة على اتجاه المرأة المسلمة بما في ذلك تداعيات العولمة الثقافية خاصة عليها.

ومن حيث مستقبل المرأة المسلمة: فإنه لابد من تصحيح المفاهيم المغلوطة, وإزالة الشوائب الراكدة والوافدة من قضاياها, ومن هنا التمييز بين ماهو أصيل وماهو دخيل على قضايا المرأة المسلمة.

وهذا البحث يمكن أن يساعد على ذلك بصفة أساسية في ثلاثة جوانب:

التأصيل ــ التمحيص ــ الحماية.

أما **الأهداف التي يرومها هذا البحث**, فإنه يسعى إلى:

1. تتبع ما تركه هذا المفكر في أماكن متفرقة من كتبه بغرض توظيف ذلك النتاج الفكري والمعرفي في إثراء الساحة العلمية والتربوية, ثم الإسهام في نشر أفكار الشيخ "الغزالي" فيما يتصل بالمرأة وقضاياها.
2. إبراز الدور الرسالي المنوط بالمرأة, والذي كثيرا ما لاقى إهمالا وتفريطا كبيرين.
3. توضيح معالم دور المرأة كإشكالية محورية في المجتمع الإسلامي.
4. تطوير أسلوب عرض قضية المرأة في الإسلام, وهذا من القضايا المهمة التي يمكن من خلالها إبراز مدى تطور الفكر الإسلامي الحديث.

من أجل الوصول لتلك الغاية المحددة, تتبعت في هذا البحث معظم كتب "الغزالي" ــ والتي كان أولها "الإسلام والأوضاع الاقتصادية" وآخرها " التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم" ــ قراءة وتحليلا واستنتاجا.., ثم **صممت له خطة** تتضمن ــ بالإضافة إلى المقدمة والخاتمة ــ أربعة فصول استغرقت أربعة عشر مبحثا.

يأتي **الفصل التمهيدي** تحت عنوان "**إطار الدراسة والإجراءات المنهجية**" ليبحث عن إشكالية البحث وتساؤلاته, ثم يحدد المفاهيم الأساسية والمصطلحات الهامة في البحث, والمتمثلة في: الفكر– القضية –المشكلة –المسألة. موضحة من خلاله مدى ارتباط كل منها بمضمون البحث. ثم لابد من الرصد والتنقيب بدقة عن الدراسات السابقة, والتي لها صلة مباشرة أو غير مباشرة بموضوع البحث, وأحسب أنها الأرضية العلمية التي مثلت نقطة البدء والانطلاق في تأسيس الموضوع ثم بنائه.

هذا , مع الوقوف عند المنهج المعتمد في البحث.

وقد مثل **الفصل الأول** "**قضية المرأة في الفكر الإسلامي الحديث**", مدخلا عاما للموضوع. بدءا بالمبحث الأول الذي تناول نشأة قضية المرأة وتطورها في الغرب, ثم المراحل التي مرت بها الدعوة إلى تحرير المرأة هناك, وانتقال عدواها إلى العرب والمسلمين حيث لاقت ترحيبا واستقبالا من البعض, في حين وجدت من وقف في وجهها صدا عنها واستنكارا لها من مفكرين ودعاة إسلاميين.

فيكون المبحثان الثاني والثالث عرضا موجزا لهذين الاتجاهين: العربي (الليبرالي –العلماني) والإسلامي (ممثلا في الإصلاحي).

أما **الفصلين الثاني والثالث** فقد تعرضا إلى دراسة وتحليل قضية المرأة في فكر "الغزالي"؛ حيث تناول الفصل الثاني **جوانب من مشكلة المرأة عند الشيخ "الغزالي"**, وقد عولج هذا الفصل في أربعة مباحث, يتصدرها مبحث تعريفي بالشيخ وأهم أعماله وآثاره الفكرية, بينما تعرض الثاني إلى تتبع

موقف الشيخ "محمد الغزالي" إزاء قضية المرأة في جلّ مؤلفاته, عبر تقصي رؤيته النقدية لوضعية المرأة في المجال الثقافي العربي الإسلامي, وكذا في المجال الثقافي الغربي, ثم يليهما مبحث يبرز أثر التقاليد الراكدة والوافدة في حياة المرأة المسلمة. أما المبحث الأخير لهذا الفصل فيرصد الصورة النموذجية للمرأة كما تتشكل ملامحها بجلاء وفق منظور الشيخ "الغزالي".

ويشكل الفصل الثالث في الأخير **وقفة تحليلية لأهم قضايا المرأة** ـــ التي حظيت باهتمام أوفر من الشيخ "محمد الغزالي" ـــ تتمفصل في مباحث ثلاثة مرتبة حسب الأولوية والأهمية, بدءًا بقضية التربية والتعليم, ثم قضية اللباس, و ختاما قضية العمل.

وتأتي **الخاتمة** تلخيصا لأهم النتائج المتوصل إليها في هذا البحث, متوخية في ذلك تحري الوضوح والاقتصاد في القول.

ولاشك أن ما من بحث جاد متماسك إلا ويتبنى **استراتيجية منهجية** تضفي عليه طابعه العلمي وتبعده عن الفوضى والنشاز, ولذلك فإني سعيت إلى توظيف أهم المناهج العلمية الأقرب إلى الموضوع؛ وهي "**المنهج المسحي**" المستخدم لإجراء عملية المسح الشامل لكل ما يتعلق بموضوع البحث من خلال كل كتب الشيخ " محمد الغزالي". وكذا "**المنهج التحليلي الاستنباطي**", وذلك بتدبر المادة العلمية وتحليل معانيها ومضامينها من خلال رصد أهم الآراء المتعلقة بموضوع المرأة وقضاياها. فضلا عن "**المنهج الاستقرائي**" المعتمد في تتبع النصوص المتعلقة بالموضوع, ثم استخدام **المقارنة** أداة لإثراء البحث كلما تأتى ذلك.

و لم يستو هذا البحث على سوقه لولا **اعتماده على مصادر ومراجع** تعضّده وتشيد بنيانه؛ إذ كانت مؤلفات الشيخ "محمد الغزالي" هي المصادر الأساسية والمادة الأولية المدونة في ستين كتابا والتي كانت معيننا الأول في نسج خيوط البحث, وصياغة معالمه. كما اعتمدت أيضا على كل المراجع التي كانت لها صلة عميقة ووطيدة بموضوع الدرس ؛ ككتب الدعاة أمثال **الشيخ القرضاوي**, **محمد عبده**, **عبد الحميد بن باديس**,... وكتب المفكرين **كالعقاد**, **محمد حسين فضل الله**, **مالك بن نبي**, **زكي الميلاد** وغيرهم.

ولعل **الصعوبات** التي واجهتني في هذا البحث, لا يعدمها أي باحث؛ إذ ليس من اليسير أن تواجه طالبة, لا زالت ترتاض على البحث, فكر قطب كبير من أقطاب الفكر الإسلامي الحديث, عبر مادة علمية مترامية الأطراف ترامي موضوع المرأة –في حد ذاته– وتشعبه, وتنامي الصراعات الإيديولوجية حوله. أضف إلى ذلك عسر عملية البحث التي تحتاج تفرغا كليا من طرف الباحث, الأمر الذي يعوزني ويعوز الكثير من الباحثين والباحثات, دون أن ننسى مشقة وعناء جمع المادة العلمية وتصنيفها وتأطيرها والوصول إلى المصادر النفيسة.

وآمل أن أكون بهذا البحث قد أسهمت, ولو بالنزر القليل, في وضع لبنة من لبنات صرح الفكـــر الإسلامي المعاصر, الذي لا زال يحتاج إلى المزيد من المجهودات المادية والمعنوية كي تعود له نـــضارته وريادته.

كما لا يفوتني أن أتقدم بخالص امتناني لأستاذي المشرف الدكتور " **محمد زرمان**", الذي تتبع هـــذا البحث بتوجيهاته الصائبة وملاحظاته الدقيقة, ونصائحه القيمة.

والله وحده .وليُّ التوفيق والهادي إلى سواء السبيل.

تمهيد:

مما لا ريب فيه أن صياغة موضوع بحث وبنائه بطريقة علمية محكمة, لا يمكن أن تتم هكذا دون الوقوف على تحديد إطار الدراسة والإجراءات المنهجية المتبعة في البحث. ولعل ذلك ما يبعث على التساؤل عن الكثير من متعلقات الموضوع, بدءًا بالإشكالية المحورية وتساؤلات البحث, ومرورا بالمفاهيم العامة, والمجهودات السابقة والمعاصرة له, ثم المنهج الموظف في الدراسة. وهي الخطوط العريضة للفصل التمهيدي.

فصياغة إشكالية البحث, وكذا تحديد جملة التساؤلات التي تنطوي تحتها؛ يمكن من التخطيط السليم لفصول البحث ومعالمه الأساسية, والإجابة في كل فصل منها عن فرع من فروع الإشكالية.

كما أن الوقوف عند المصطلحات الهامة في البحث (فكر-قضية-مشكلة-مسألة) يعد خطوة أساسية, إذ تمكن من إطلاق المصطلح المناسب في المكان المناسب. فهي إذن خطوة تعريفية بموضوع المرأة؛ متى يكون قضية أو مشكلة أو مسألة. مع توضيح مدى ارتباط كل منها بمضمون البحث.

ولا شك أن لكل موضوع أرضية علمية هي له بمثابة نقطة البدء والانطلاق في تأسيس الموضوع وبناء مضامينه ومحتواه؛ لذا وقفت في هذا الفصل على رصد أهم الدراسات التي تناولت قضية المرأة في فكر الشيخ "الغزالي", فضلا عن شخصية البحث "محمد الغزالي" بالدراسة. مع الإشارة إلى فحواها, وسبل الاستفادة منها في هذه الدراسة.

أما عن منهج البحث, فكان لابد من الوقوف على تحديد المناهج المختارة والتعريف بها؛ لبيان مدى قدرتها على خدمة الموضوع. وقد وظف البحث أهم المناهج العلمية الأقرب إلى موضوع دراستنا, كما سيأتي توضيحه في هذا الفصل.

المبحث الأول: إشكالية البحث وتساؤلاته

تشهد الدراسات النسوية اهتماما بالغا في معظم بلدان العالم العربي والإسلامي؛ لإسهامها الدؤوب في تحسين واقع المرأة، وكفالة حقوقها. ولما كان فكر الداعية الشيخ "محمد الغزالي" قد أولى هذه القضية اهتماما خاصا وأفرد لها مساحة واسعة في كتاباته، فإن هذه الجهود الضخمة بحاجة إلى دراسات وافية تبرز جهوده التي تطفح بالاجتهاد، ونشاطه المكثف والملح على قضية المرأة والتي كان يطمح من ورائها إلى تصحيح النظرة تجاه المرأة وحقوقها، ووضعها بين التقاليد الراكدة والعادات الوافدة من خلال انتقاداته الشديدة لكل التقاليد المنسوبة إلى الإسلام، وما هي من الإسلام بشيء؛ محاولا جهده إعطاء الصورة اللائقة بالمرأة في الإسلام.

ومن ثمة تبلورت فكرة بحث "المرأة في فكر الشيخ محمد الغزالي" لأنه واحد من أهم العلماء المسلمين المحدثين الذين سعوا إلى بناء حقل لدراسة قضايا المرأة المسلمة؛ محاولين إزاحة التراث الفكري الجامد ومواجهة تداعيات العولمة والتكنولوجيا الحديثة.

وعلى هذا الأساس يمكن صياغة الإشكالية كالآتي:

1. ما المقصود بالمرأة وقضاياها من منظور الشيخ "الغزالي"؟
2. ما المنطلقات التي ارتكز عليها الشيخ "الغزالي" في نظرته إلى قضايا المرأة المختلفة، وما هي الحلول التي يقترحها لها كمشكلة تستوجب الحل؟

وتحت هذه الإشكالية العامة للبحث تندرج جملة تساؤلات أهمها:

- ما موقف الفكر الغربي من المرأة؟ وكيف نظر الفكر العربي الإسلامي الحديث إلى قضيتها؟
- كيف ينظر الشيخ "الغزالي" إلى المرأة؟ وكيف تعامل مع قضاياها؟
- ما دوافع انشغال الشيخ "الغزالي" بهذه القضية؟
- كيف يتصور الشيخ "الغزالي" وضع المرأة في زحمة الموروثات الشرقية الجامدة، والعادات الغربية الوافدة؟
- ما مفهوم "الغزالي" لتحرير المرأة، وهل يلتقي في ذلك مع دعاة تحريرها؟
- كيف يقيِّم الشيخ "الغزالي" النموذج الغربي للمرأة في مقابل النموذج الإسلامي الأصيل؟
- ما هي أهم القضايا المحورية التي حظيت باهتمام أوفر من الشيخ "الغزالي"؟
- وهل كان موقفه ثابتا في جميع القضايا، أم كان متغيرا ومتجددا بحسب الظروف وملابسات المكان والزمان؟
- كيف يمكن تقييم مجهوداته الواضحة في القضية؟
- ما هي السبل والوسائل التي يراها الشيخ "الغزالي" كفيلة بالنهوض بالمرأة؟

المبحث الثاني: مفاهيم البحث

يرتكز البحث في مجمله على مجموعة من المصطلحات الهامة هي: الفكر، القضية، المشكلة، والمسألة والتي سنأتي على تحديد مفاهيمها موضحين مدى ارتباط كل منها بمضمون البحث.

أولا: الفكر

تعريف الفكر:

تعددت تعاريف الفكر وتنوعت من جهة لأخرى؛ ولكن يجمعها المعنى العام كما سنوضحه فيما يلي:

التعريف الاول: عرف الإمام "أبو حامد الغزالي" الفكر بأنه" إحضار معرفتين في القلب يستخرج منهما معرفة ثالثة"[1].

التعريف الثاني: الفكر ترتيب أمور معلومة للتأدِّي إلى المجهول[2].

التعريف الثالث: يطلق الفكر على ثلاثة معان: **الأول:** حركة النفس في المعقولات، سواء أكانت بطلب أو بغير طلب، أو كانت من المطالب إلى المبادئ، أو من المبادئ إلى المطالب، وهذا المعنى الذي يتضمن الحركة يخرج الحدس، لأن الحدس هو انتقال من المبادئ إلى المطالب دفعة لا تدريجا، والمراد بالمعقولات ما ليست محسوسة وإن كانت من الموهومات، فخرج "التخيل" لأنه حركة النفس في المحسوسات... لأن حركة النفس فيما يتوارد من المعقولات بلا اختيار -كما في المنام- لا تسمى فكرا. ولا شك أن النفس تلاحظ المعقولات ضمن تلك الحركة، فقيل إن الفكر هو تلك الحركة، والنظر هو الملاحظة التي ضمنها، وقيل لتلازمها أن الفكر والنظر مترادفان.

والثاني: حركة النفس في المعقولات مبتدئة من المطلوب المتصور، مستغرقة فيها، طالبة لمبادئه, المؤدية إليه، إلى أن تجدها وترتبها فترجع فيها إلى المطلوب أي أنها مجموع الحركتين.

والثالث: هو الحركة الأولى من هاتين الحركتين، أي الحركة من المطلوب إلى المبادئ وحدها من غير أن توجد الحركة الثانية معها وإن كانت هي المقصودة منه، وهذا هو الفكر الذي يقابله الحدس تقابلا يشبه تقابل الصاعدة والهابطة إذ الانتقال من المبادئ إلى المطالب دفعة يقابله عكسه الذي هو الانتقال من المطالب إلى المبادئ وإن كان تدريجا.والفكر هو أن ينتقل الإنسان من أمور حاضرة في ذهنه، متصورة

---

(1) الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، دار المعرفة (بيروت)، مج4، ص 427.

(2) الجرجاني علي بن محمد بن علي، كتاب التعريفات، دار الكتاب العربي (بيروت)، ط(1423هـ-2002م)، ص 138.

(3) عبد المنعم الحفني, المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة, مكتبة مدبولي (القاهرة), ط3 (2000م), ص599ـ600.

أو مصدق بها تصديقا علميا أو ظنيا، أو وضعا أو تسليما، إلى أمور غير حاضرة فيه انتقال لا يخلو من ترتيب.

والفكر ترتيب أمور معلومة لتؤدي إلى مجهول[3].

التعريف الرابع: فكّر في الشيء أعمل النظر فيه وتأمله، والفكر تردد القلب بالنظر والتدبر بطلب المعاني. وقيل هو ترتيب أمور معلومة للتأدية إلى مجهول. أو إلى ترتيب أمور في الذهن يتوصل بها إلى مطلوب فيكون علما أو ظنا. وقيل في الكليات الفكر حركة النفس نحو المبادئ والرجوع عنها إلى المطالب. والنظر ملاحظة المعلومات الواقعة في ضمن تلك الحركة. جمعها أفكار. وقوة الفكر عند الأطباء هي قوة تدرك بها المعاني الجزئية كصداقة زيد وعداوة عمر ومركزها البطن الأوسط من بطون الدماغ بدليل أن الإنسان إذا افتكر في أمر ينصب رأسه مستويا بخلاف ما إذا أراد أن يتخيل شيئا من صور المحسوسات فإنه يطرق إلى الأرض. وإذا أراد أن يتذكر شيئا مما سبق وجوده في الذهن يميل برأسه إلى الوراء فاستدلوا على أن قوة التخيل في مقدمة الدماغ وقوة الذكر في مؤخره وقوة الفكر في الوسط. ويقال لي في الأمر فكر أي نظر وروية[3].

وحول ماهية الفكر يشير "البعلبكي" إلى أن "الفكر عند بعضهم هو التصدي بالعقل لأية مسألة أو قضية من مسائل وقضايا الحياة والمادة والمصير، وعند البعض هو إعمال العقل في الأشياء والأحداث للوصول إلى معرفتها، وعند البعض الآخر هو استخدام العقل في كل قضية للوصول إلى معرفة. ففي الرأي الأول عقلانية مدعية لا تفرق بين ما يطاله العقل وما لا يطاله، وفي الثاني عقلانية واقعية تريد أن تعرف ما يحدق بها لتفيد منه أو لتتفاداه، وفي الثالث عقلانية مكتفية تريد حقا ولا تدعي إمكانية الوصول إلى الحق.

غير أن في الحدود الثلاثة إخراجا للانفعالات والعواطف والغرائز من العمليات الفكرية...[4]

ويرى "البعلبكي" أن الفكر هو: "سعي الذات الإنسانية المدركة, بالوسائل والمنهجيات المختلفة، إلى استيعاب قسطها من الحقيقة، التي هي الحياة الشاملة وإلى التعبير بأساليب شتى، عن مقدار ما تحصل لها منه، وهو بالتالي, فعل و مضمون له آلته ومنهجياته ووسائله المعبرة عنه، ومضمون له النوعية والكمية ومقدار الشمول ومقدار القدرة على الفعل في الذات وفي توجيه القرار ودفع التاريخ[5].

([3]) بطرس البستاني، محيط المحيط/ نقلا عن أفرام البعلبكي، مدخل إلى تاريخ الفكر العربي، دار الحداثة (بيروت)، ط1(1984م)، ص 29.

([4]) أفرام البعلبكي، مدخل إلى تاريخ الفكر العربي، ص 30-31.

([5]) المرجع نفسه، ص 32.

التعريف الخامس: لفظ تفكير، يتضمن تخيل هذا الشيء أو ذاك، التخطيط للشيء. فكّر تعني قصد فعل شيء، والتفكير في شيء ما يعني عدم نسيانه,... الفكر بالمعنى الأصح، يعني التفكير في شيء ما، التأمل في وضعية ما، فخطط، وحدث معني:

الفكر هو أيضا وسيلة لتحديد عمل وأثر هذا الذي تدعوه مفكرا، فالأكيد أن كل الناس يفكرون، على خلاف الحيوانات، ولكنهم ليسوا كلهم مفكرين.فالفكر هو إحدى ملكاتنا إلى جانب الرغبة، والإرادة والإحساس، ونحن في علاقة مع الوجود، من خلال جميع ملكاتنا وسلوكاتنا، وليس فقط خلال الفكر فقط[(6)].

ويقول المفكر الفرنسي "ميشال فوكو": "إن الفكر ليس ما يجعلنا نؤمن بما نفكر أو نرضى بما نفعل، بل هو ما يجعلنا نطرح مشكلة ما نحن عليه بالذات[(7)].

التعريف السادس: ولعل عباس محمود العقاد يشير إلى تعريف الفكر حينما ينوه بخصائص العقل قائلا:"...ومن خصائص العقل أنه يتأمل فيما يدركه ويقلبه على وجوهه ويستخرج منه بواطنه وأسراره ويبني عليها نتائجه وأحكامه، وهذه الخصائص في جملتها تجمعها ملكة "الحكم"، وتتصل بها مملكة الحكمة، وتتصل كذلك بالعقل الوازع إذا انتهت حكمة الحكيم به إلى العلم بما يحسن وما يقبح وما ينبغي له أن يطلبه وما ينبغي له أن يأباه...[(8)].

ففي التعريف الأول يأتي الفكر على أنه استخراج معرفة باستحضار معرفتين.

وجاء في الثاني أن الفكر استحضار أمور معلومة تؤدي إلى مجهول، وفي الثالث هو انتقال من أمور في الذهن إلى أمور غائبة عنه حسب ترتيب منطقي.

والرابع ينطبق عليه معناه اللغوي الدال على إعمال النظر والتأمل[(9)].

وأما الخامس فيدل على أن الفكر مصدره الشك المؤدي إلى اليقين انطلاقا من طرح المشكلة وطلب الحل لها.

وتتفق كل هذه التعاريف على أن الفكر هو الانطلاق من الشك بغية الوصول إلى اليقين طلبا لحل مشكلة من خلال ترتيب أمور معلومات والقياس عليها للوصول إلى أمور مجهولات.

وما يهمنا في دراستنا هو مفهوم الفكر-على قول البعلبكي- على أنه التصدي بالعقل لأية مسألة أو قضية للوصول إلى معرفتها.

ثانيا: القضية

---

(6) عبد الصمد الكباص وعبد العزيز بومسهولي، الزمان والفكر، دار الثقافة (الدار البيضاء)، ط1(1423هـ–2002م)، ص 127-128.

(7) المرجع نفسه، ص 4.

(8) عباس محمود العقاد، التفكير فريضة إسلامية، مكتبة رحاب (الجزائر)، ص 6.

(9) حسب ما ورد في "القاموس المحيط" للفيروز آبادي بأن "الفِكر: إعمال النظر في الشيء والتأمل".

تعريف القضية:
التعريف الأول: القضية، قول يصح أن يقال لقائله: إنه صادق فيه أو كاذب فيه.

و**القضية البسيطة:** هي التي حقيقتها ومعناها إما إيجاب فقط، كقولنا كل إنسان وحيوان بالضرورة؛ فإن معناه ليس إلا إيجاب الحيوانية للإنسان، وإما سلب فقط، كقولنا لا شيء من الإنسان بحجر بالضرورة؛ فإن حقيقة ليست إلا سلب الحجرية عن الإنسان.

والقضية البسيطة هي التي حكم فيها على ما صادق عليه في نفس الأمرالكلي الواقع عنوانا في الخارج، محققا أو مقدرا، أو لا يكون موجودا فيه أصلا.

و**القضية الحقيقية**: هي التي حكم فيها على ما صادق عليه الموضوع بالفعل أعم من أن يكون موجودا في الخارج.

و**القضية الطبيعية:** هي التي حكم فيها على نفس الحقيقية، كقولنا: الحيوان جنس الإنسان نوع، ينتج، الحيوان نوع، وهو غير جائز، يعني أن الحكم في الحقيقة الكلية على جميع ما هو فرد بحسب نفس الأمر الكلي الواقع عنوانا. سواء كان ذلك الفرد موجودا في الخارج أو لا.

و**القضية المركبة:** هي التي حقيقتها تكون ملتئمة من إيجاب وسلب كقولنا: كل إنسان ضاحك لا دائما، فإن معناها إيجاب الضحك وسلبه عليه بالفعل، واعلم أن المركب المحتمل للصدق والكذب يسمى، من حيث اشتماله على الكم: قضية، ومن حيث احتماله الصدق والكذب: خبرا، ومن حيث إفادته الحكم: إجبارا، ومن حيث كونه جزءا من الدليل: مقدمة، ومن حيث يطلب بالدليل: مطلوبا، ومن حيث يحصل من الدليل: نتيجة، ومن حيث يقع في العلم ويسأل عنه: مسألة، فالذات واحدة واختلاف العبارات باختلاف الاعتبارات[10].

تعريف القضايا: التي قياسها معها: هي ما يحكم العقل فيه بواسطة لا تغيب عن الذهن عند تصور الطرفين، كقولنا: الأربعة زوج بسبب وسط حاضر في الذهن, وهو الانقسام بمتساويين, والوسط: ما يقترن بقولنا: لأنه، حين يقال: لأن كذا[11].

التعريف الثاني: القضية المنطقية جملة خبر يحتمل الصدق أو الكذب، أو هي حكم بوجود علاقة موجبة أو سالبة بين طرفين أو حدين تربط بينهما على نحو صادق أو كاذب[12].

التعريف الثالث:
- التركيب الخبري النافع في اكتساب التصديق.
- القضية والخبر هو كل قول فيه نسبة بين شيئين بحيث يتبعه حكم صدق أو كذب[13].

([10]) الجرجاني، كتاب التعريفات، ص 144-145.

([11]) المرجع نفسه، ص 145.

([12]) عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ص 649.

فحسب التعريف الأول للقضية أنها لا تتعدى جملة خبرية منطقية تحتمل الصدق أو الكذب والــذي يصدق عليه التعريفين الثاني والثالث للقضية.

وهكذا تتفق التعاريف الاصطلاحية على كون القضية موضوعا تلتقي فيه الآراء والأفكار أو تختلف. وكذلك الأمر بالنسبة لقضية المرأة تشعبت فيها الآراء، وتفارقت الاتجاهات الفكرية والمواقف بخصوصها.

ثالثا: المشكلة

التعريف الأول: المشكل، هو ما لا ينال المراد منه إلا بتأمل بعد الطلب. وهو الداخل في أشكاله. أي في أمثاله وأشباهه، مأخوذ من قولهم: أَشْكَلَ، أي صار ذا شكل، كما يقال أحرم، إذا دخل في الحرم وصار ذا حرمة، مثل قوله تعالى: ﴿**قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ**﴾[14] أنه أشكل في أواني الجنة لاستحالة اتخاذ القارورة من فضة، والأشكال هي الفضة والزجاج، فإذا تأملنا علما أن تلك الأواني لا تكون من الزجاج ولا من الفضة، بل لها حظ منهما، إذ القارورة تستعار للصفاء، والفضة للبياض، فكانت الأواني من صفاء القارورة وبياض الفضة[15].

التعريف الثاني: المشكلة بخلاف المسألة، والمشكلة هي المعضلة التي لا يتوصل فيها إلى حل، أو هي المسألة التي يطلب حلها بطريق العقل أو العلم[16].

يحيلنا التعريف الأول إلى أن المشكلة هي ما يستعصي بدون طلب، ويتفق معه الثاني في اعتبارها معضلة لا يتوصل فيها إلى حل أو هي المسألة التي يطلب حلها عن طريق العقل أو العلم.

ومن خلال التعريفين ينتج أن المشكلة مسألة في جانبها النظري (حسب التعريف الثاني)، وعليه يكون موضوع المرأة مشكلة باعتباره يطالب حلولا سنادها العقل أو العلم.

رابعا: المسألة

التعريف الأول: المسائل هي المطالب التي يبرهن عليها في العلم، ويكون الغرض في ذلك العلم معرفتها[17].

التعريف الثاني: المسألة هي السؤال، وعن المنطقيين هي الدعوى، وتطلق أيضا على القضية المطلوب بيانها في العلم، وقد تطلق على المحمول. والجمع مسائل، وهي القضايا التي تبرهن عليها في العلم، ويكون الغرض من ذلك العلم معرفتها، وهي أحد أجزاء العلوم، لأن أجزاء كل علم ثلاث: الأول: الموضوعات، وهي التي

([13]) عمار طالبي، اصطلاحات الفلاسفة، المؤسسة الوطنية للكتاب (الجزائر)، ط(1983م)، ص 88.

([14]) سورة الإنسان: الآية 16.

([15]) الجرجاني، كتاب التعريفات، ص 172-173.

([16]) عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ص 803.

([17]) الجرجاني، كتاب التعريفات، ص 170.

يبحث في العلم عن عوارضها الذاتية، الثاني: المبادئ وهي حدود الموضوعات وأجزاؤها وأعراضها، ومقدماتها بديهية أو نظرية؛ والثالث: المسائل[18].

وقد ورد في التعريف الأول أن المسألة يبرهن عليها في العلم بغرض معرفتها، وأما في التعريف الثاني، فالمقصود منها القضية التي يبرهن عليها في العلم. ويلتقي التعريفين في كون المسألة تتعلق بالبرهان للوصول إلى حل مرضي.فموضوع المرأة مسألة من حيث مشكلة وموضوعا يطلب العلاج والمناقشة.

المبحث الثالث: الدراسات السابقة.

لا يمكن للباحث أن ينطلق في صياغة موضوعه وبنائه بطريقة علمية محكمة، إلا إذا وقف وقفة الدارس المتبصر على المجهودات السابقة والمعاصرة لبحثه، محاولا تمثل القضايا التي ترد في البحوث تمثلا واعيا يأخذ بعين الإعتبار ثوابت القضايا ومتغيراتها، وطبيعة المد والجزر اللذين يلحقا هذه القضايا وهي تتناول من باحث لآخر، وتناقش في سياقات متعددة ساعيا من وراء ذلك إلى توجيه ما لحق هذه القضايا والمسائل من انحرافات إن وجدت، وتثبيت ما هو جيد منها؛ لتبصير الأمة بتراثها وإمدادها بالرؤوس السليمة، والأدوات المحكمة التي تقرأ بها هذا التراث.

ولعلنا إذ نستحضر هذه الدراسات نروم وضع بحثنا في سياقه العلمي الأكاديمي، وإتمام مسيرة المشاريع الفكرية الجادة التي لا يؤتيها الباحث لوحده حقها مهما جد واجتهد، وسنحاول رصد أهم الدراسات التي تناولت قضية المرأة في فكر الشيخ "الغزالي" من قريب أو من بعيد، وكذا شخصية البحث الشيخ "محمد الغزالي" بالدراسة، ونشير بإيجاز إلى فحواها خاصة من منظور تقييمي في حدود السياقات التي وردت فيها، ثم كيف استفدنا مما هو وارد فيها، وهل تتمايز هذه الدراسات عن بعضها البعض أم أنها لا تقول إلا معارا أو معادا من اللفظ المكرور.

فإلى جانب طرح "الغزالي" لقضية المرأة، ناقش نفر غير قليل من الكتاب والباحثين أطروحاته إزاء قضاياها، والملاحظ أن دراسات هؤلاء -في مجملها- تعتقد أن تيار الشيخ "محمد الغزالي" رغم التحديات والمواجهات المعاكسة له ولفكره في قضية المرأة إلا أنه يمثل التيار الإصلاحي المعتدل في الخطاب الإسلامي.

قام الشيخ "يوسف القرضاوي" في مؤلفه (الشيخ الغزالي كما عرفته؛ رحلة نصف قرن) سنة 1997، بتتبع فكر "الغزالي" إزاء قضايا المرأة، وقدم رؤية عامة مليئة بالشواهد المقتبسة عن كتب الشيخ "الغزالي"، عن فقهه لأبرز تلك القضايا التي جرت عليه الكثير من القيل والقال، وخصوصا من جانب الإخوان السلفيين، رادا بذلك تأويل بعضهم واتهامهم له بخروجه على النص في قضية تولي المرأة الوظائف العامة، وكذا دافع عن قوله بأن دية المرأة مثل دية الرجل...

(18) عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ص 789.

لقد ركز "القرضاوي" في دراسته على رد الدعاوى والاتهامات المنسوبة للشيخ "الغزالي" في بعض قضايا المرأة. وعد من عناصر الإصلاح لدى "الغزالي"؛ تحرير المرأة والأسرة، مبينا مراده بمصطلح التحرير، مؤكدا أن "الغزالي" الداعية أو "الغزالي" المصلح، أو المفسر أو الفقيه.. منصف للمرأة في كل هذه المجالات، محام عنها بحرارة[19].

وقدمت "هبة رؤوف عزت" دراستها "الحق المر: قضايا المرأة في فكر الغزالي" سنة 1997، ضمنتها مجلة (إسلامية المعرفة) [20] في عددها الخاص عن الشيخ "محمد الغزالي"، وقد بينت الباحثة من خلالها إدراك "الغزالي" المبكر بوجود مشكلة المرأة في عالمنا الإسلامي. وإذا كان الرجل في الستينيات يدعو إلى أولوية عمل المرأة داخل بيتها ,ويؤكد على التحفظ والعدة إلى الأصول خشية من انبهار المرأة المسلمة بالنموذج الغربي المسيطر الساعي إلى إخراجها من الأسرة وإشراكها في المجال العام دون أدنى ضوابط، فإنه سرعان ما أدرك ضرورة وضع القضايا في سياق أوسع، وبلورة الأطروحات والأفكار.. وسرعان ما يتضح له أن التركيز على الضوابط وليس المهام وأساليب المشاركة هو المدخل الأسلم الواجب إتباعه، بحيث يوضع الأصل وتلحقه الفروع[21].

وقد ركزت "هبة رؤوف عزت" في بحثها حول قضايا المرأة في فكر "الغزالي" على التطورات التي شهدتها بعض قضايا المرأة في فكر "الغزالي" من ذلك قضية العمل والمشاركة الاجتماعية.

لقد كانت هذه الدراسة بمثابة الأرضية الأساسية في صياغة موضوع بحثنا "المرأة في فكر الشيخ محمد الغزالي".

ومن بعد "هبة رؤوف عزت"، جاءت باحثة أخرى في فكر الشيخ "الغزالي"، هي "سهيلة الحسيني" صاحبة كتاب "المرأة في منهج الإمام الغزالي" سنة 1998م, تعد هذه الدراسة من الدراسات الهامة في موضوع بحثنا، فهي قد تتبعت الآثار الفكرية للشيخ "الغزالي" ووعت ما ضمنته من قضايا واجتهادات ونظرات في قضية تعد من القضايا التي احتلت مساحة واسعة في فكر "الغزالي" وآثاره واجتهاداته، وقد أكدت من خلالها أن: "رحلة دفاع الغزالي عن المرأة بدأت مع أوائل مؤلفاته في بداية الخمسينيات (من هنا نعلم) وحتى أواخرها (التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم) في التسعينيات، وما بين المؤلفين عقود طويلة دافع فيها عن المرأة فكرا ولسانا وقلما كما لم يدافع عنها أي مصلح أو داعية"[22].

---

(1) يوسف القرضاوي، الشيخ الغزالي كما عرفته؛ رحلة نصف قرن، مؤسسة الرسالة، (بيروت)، ط1(1421هـ-2001م)، ص 260.

(1) وهي مجلة فكرية فصلية محكمة يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

(2) هبة رؤوف عزت، الحق المر: قضايا المرأة في فكر الغزالي، إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي (ماليزيا)، مؤسسة زاعياش (الجزائر)، السنة2، العدد 7(1417هـ-1997م)، ص 90-91.

(3) سهيلة الحسيني، المرأة في منهج الإمام الغزالي، دار الرشاد (القاهرة)، ط1(1419هـ-1998م)، ص 15.

والملاحظ أن هذه الدراسة اتبعت منهج الشيخ "الغزالي" ذاته في التصنيف والعرض. وقد خرجت بخلاصة من دراستها، مفادها أن "المرأة في منهج الإمام الغزالي -كما توضحها خطوطه الفكرية- هي المرأة التي تحاول جهدها الاقتراب من أختها تلك التي عاصرت عهد النبوة الزاهي.. والخلافة الراشدة"[23].

وفي سنة 2000م, كتب "عبد الحليم عويس" فصلا عن "الشيخ الغزالي وقضايا المرأة"، توصل إلى أن الشيخ "محمد الغزالي" قاد تيارا لإنصاف المرأة المسلمة وتحقيق فعاليتها من منطلق الرؤية الإسلامية التي تؤصل حقوقها وواجباتها الاجتماعية والإنسانية. وليس ذلك على إسقاطات وهمية نابعة من خارج الدائرة الإسلامية كما فعل الكثيرون من دعاة تحرير المرأة.

وهو في دراسته هذه يذكر الآراء التي تترجم عن وسطية الشيخ "الغزالي" والتي تحقق في الوقت نفسه الوسطية الإسلامية، وتحافظ على إنسانية المرأة وفعاليتها في سياق واحد. مستعرضا الأدلة على وقوف "الغزالي" مع إنصاف المرأة ة ومساواتها بالرجل في الحق الإنساني العام، وقد حذا "عويس" بهذا حذو الشيخ "القرضاوي" في عرض الأدلة ومناقشتها.

هذا، وقد سلط الملتقى الوطني الأول بقسنطينة الضوء على منهج الشيخ "محمد الغزالي" في التجديد والإصلاح، في سنة 2001م. من ذلك إصلاحه لأوضاع المرأة.

و قدمت "صونيا وافق" -من خلاله- فصلا بعنوان "المرأة والإصلاح في فكر الشيخ الغزالي"، توصلت فيه إلى أن الأفكار المبثوثة في كتب الشيخ "الغزالي" كلها لا يمكن أن يستخلص منها جميعا بعد الجمع والتفكير إلا فكرة واحدة، يحاول الشيخ إيصالها إلى المرأة المسلمة، وقد اصطلحت الباحثة على تسمية هذه الفكرة بـ "التحرير".

والتحرير المقصود في فكره مرادا بشيء من الضوابط، بمعنى "أنه يريد إخراج المرأة من بقايا حضارة هرمت وشاخت، ولم تعد تعي من بعد علم إلا عرفا موبوءا وتقاليد بالية فكانت ضحيتها الأولى المرأة"[24].

وقد ظلت هذه الدراسة قاصرة؛ لأنها اعتمدت مصدرا واحدا: "قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة" في تحليل أفكار "الغزالي"، وكأن الباحثة قامت بدراسة حول الكتاب، وليس حول "المرأة والإصلاح في فكر الغزالي".

ومن الدراسات السابقة المؤيدة لفكر "الغزالي" في قضية المرأة، ما قدمه الباحثان "لطيفة حسين الكندري-بدر محمد ملك" سنة 2003م، في موضوع "تربية المرأة من منظور الشيخ محمد الغزالي"[25].

---

(4) المرجع نفسه، ص 223.

([24]) صونيا وافق، (المرأة والإصلاح في فكر الشيخ الغزالي)، منهج الشيخ محمد الغزالي في التجديد والإصلاح، الإتحاد العام الطلابي الحر، فرع الجامعة الإسلامية (قسنطينة)، دار اليمن (الجزائر)، ط(2004م)، ص 127.

([25]) أنظر موقع: إخوان أون لاين، لطيفة حسين الكندري، بدر محمد ملك، تربية المرأة من منظور الشيخ محمد الغزالي.

تعرضت الدراسة بعمق لملمح هام في مشروع الشيخ "الغزالي" الفكري، والممثل في تربية المرأة. فسلطت الأضواء على الجوانب المختلفة لها في كافة مؤلفاته، من ذلك موقف الشيخ إزاء تحديات تعليم المرأة، وآرائه في تصحيح النظر للمرأة تربية، وتعليما، وأدوارا.

وخرجت الدراسة بتوصيات أهمها: ضرورة مراجعة وتجديد فكر "الغزالي". أما فيما يخص الدراسة التي قام بها "رمضان خميس الغريب"(*) سنة 2003م، وضمنها محاور المشروع الفكري لدى الشيخ "محمد الغزالي",واعتبرها واحدة من تلك المحاور فهي "الشيخ الغزالي وقضايا المرأة". وقد طرق الباحث أهم القضايا التي تناولها "الغزالي" فركز على قضية القوامة، الطلاق، تولي المرأة الوظائف العامة، ثياب المرأة بما في ذلك النقاب، علاقة المرأة بالمسجد، المرأة والتعليم، الزواج، صوت المرأة واسمها، شهادة المرأة، دية المرأة. مستخلصا

أن الشيخ "الغزالي" اهتم بقضايا المرأة اهتماما واضحا، لا في تناول قضاياها فحسب بل في طريقة التناول، فهو لا يرى رأيا يميل إلى رفعة مكانتها إلا واتخذه وعضده بالشواهد والأدلة.

والنتيجة التي يصل إليها "رمضان خميس الغريب" من بحثه، هي نفسها التي خلص إليها غيره من المفكرين "كالقرضاوي"، "وعبد الحليم عويس"... من أن الشيخ "الغزالي" ظل في جانب المرأة مدافعا عن حقوقها مبينا مكانتها.

وإلى جانب هذه الدراسات التي تناولت قضية المرأة في فكر الشيخ "الغزالي"، فثمة دراسات أخرى بالبحث والتحليل شخصية البحث الشيخ "محمد الغزالي"، وقد كان بين أيدينا رسالة ماجستير بعنوان "الشيخ محمد الغزالي؛ مفكرا وداعية". لصاحبها "ابراهيم نويري" وقد تناولت هذه الدراسة شخصية الشيخ "الغزالي"، ومراحل حياته من الميلاد بقرية" نكلا العنب" المصرية إلى الوفاة بالرياض بالمملكة العربية السعودية، ثم جوانب من فكره ودعوته. وقد خصص الباحث فصلا كاملا عن فكر الشيخ الاجتماعي والسياسي، وفي تقديره أنه المحور الأكبر في مشروع الشيخ الفكري، وأن استيعاب كل جزئياته يتطلب عملا مستقلا، لذا اقتصر على دراسة وتحليل "قضية المرأة" في هذا المشروع.

وحسبما نرى أن هذه الدراسة أتت عامة، واسعة، ومتشبعة، فلم تكن مركزة على جانب من جوانب الشيخ، وإنما تعددت جوانبها؛ مما حال دون الإحاطة الشاملة بجوانب قضية المرأة كجزء من القضايا الكثيرة المطروحة على بساط البحث. وقد تناول الباحث من هذه القضية اجتهادات "الغزالي وفقهه في قضايا وشؤون المرأة المسلمة من ذلك العمل، الحجاب، الدية والشهادة... وبالتالي لا يتعدى تناوله للقضية كجزئية ثانوية من أجزاء البحث الكثيرة.

والملاحظ أن مجمل هذه الدراسات السابقة لبحثنا قد كانت إما عبارة عن مقالات أو محاضرات أو فصول ضمنها أصحابها في كتب أو مجلات، تدور كلها في فلك قضية

(*) مدرس التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر.

المرأة في فكر الشيخ "الغزالي"، إلا ما أشرنا إليه من دراسة "سهيلة الحسيني" "المرأة في منهج الإمام الغزالي" التي تعد من الدراسات العلمية الجادة في فكر الشيخ "الغزالي".

المبحث الرابع: منهج البحث

يوظف هذا البحث أهم المناهج العلمية الأقرب إلى موضوع دراستنا؛ وهي: "المنهج المسحي المستخدم لإجراء عملية المسح الشامل لكل ما يتعلق بموضوع البحث من خلال كل كتب الشيخ "محمد الغزالي". وكذا "المنهج التحليلي الاستنباطي"، وذلك بتدبر المادة العلمية وتحليل معانيها ومضامينها من خلال رصد أهم الآراء المتعلقة بموضوع المرأة وقضاياها، من أجل الحصول على صورة عامة متكاملة تعكس بوضوح فكر الشيخ "محمد الغزالي" بصفة عامة في هذا المجال.

كما أن البحث يعتمد استقراء النصوص المتعلقة بالموضوع في فكر الداعية "محمد الغزالي"، وهذا ما يساعدنا في استنباط وانتقاء الأفكار المهمة التي من شأنها المساهمة في تفعيل دور المرأة المسلمة حضاريا، وتصحيح منظور المجتمع الإسلامي للمرأة بما ينسجم مع فلسفة الغزالي مفكرا يناغم بين عقلانية الفكر وواقعية موضوع المرأة.

بالإضافة إلى استخدام "المقارنة" أداة لإثراء البحث من خلال إبراز نقاط التقاطع بين شخصية البحث "محمد الغزالي" وغيره من أصحاب الفكر العربي الإسلامي في العصر الحديث، فضلا عن نماذج مختارة من الفكر الغربي.

أولا: مفهوم المنهج

منهج: هو الطريق الموصل بصحيح النظر إلى المطلوب، وبالمعنى العلمي هو مجموعة الإجراءات التي ينبغي اتخاذها بترتيب معين لبلوغ هدف معين. والمنهج العلمي هو الطريقة العلمية المخططة التي تقوم على أسس عملية خالصة[26].

1- المنهج المسحي:

([26]) عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ص 845.

يعد منهج المسح من أكثر المناهج تداولا في عصرنا، فكثير من الباحثين يعتمدونه لدراسة الأوضاع الراهنة والتعرف على المتغيرات الاجتماعية، وكيف تتأتى الاستفادة من عوامل القوة والضعف الموجودة بأي قطاع في حالة دراسته وتقييمه.

وتتعدد استعمالات هذا الأسلوب؛ فقد يعتمده الجيولوجيين للتعرف على طبقات الأرض وكذا الأطباء للتعرف على نوعية الأمراض الأكثر انتشارا...الخ. وكذلك الأمر بالنسبة للطالب أو الباحث الذي يرغب في دراسة موضوع معين ويقوم باستجواب المسؤولين وإجراء حوار معهم بغرض أخذ فكرة كاملة عن الموضوع وكتابة تقرير عن ذلك. ومن ثم كانت الدراسات المسحية أساسية لفحص الظواهر الاجتماعية الموجودة في

مهنة معينة أو فئة من السكان أو موضوع اجتماعي حساس، ومادام التركيز على هذا النوع من الدراسات ينصب على معالجة قضايا حقيقية ومعاشة، فإن الغاية منه هي الحصول على حقائق لوضع المعالم المساعدة على فهم مشكلة ما[27].

وبالتالي "فالمنهج المسحي" هو عبارة عن "عملية تحليلية لجميع القضايا الحيوية، إذ بفضله يمكن الوقوف على الظروف المحيطة بالموضوع الذي نرغب في دراسته والتعرف على الجوانب التي هي في حاجة إلى تغيير وتقييم شامل، فهو في مجمله أداة لتوضيح الطبيعة الحقيقية للمشكلة، والأوضاع الاجتماعية، وتحليل تلك الأوضاع والوقوف على الظروف المحيطة بها أو الأسباب الدافعة إلى ظهورها"[28].

2- المنهج التحليلي الاستنباطي:

يعد "أفلاطون" أول من سمى المنهج الفرضي تحليلا فهو يعتمد على تحليل فروض وموقف أو تصورات معينة بقصد دحضها أو توضيحها أو انتقاء عناصرها المقبولة، ونبذ عناصرها الأخرى التي لا تقف أمام النقد. فالمنهج التحليلي يحلل الشيء أو الواقعة أو الموقف أو التصور المركب إلى عناصره تحليلا غير تجريبي.

كما سمى "ديكارت" جانبا من منهجه تحليلا، لأنه كان يحلل أفكارا وقضايا ومواقف معقدة. فالتحليل بمفهومه يعني مراجعة ما لدينا من أقوال الفلاسفة السابقة وتناولها تناولا نقديا، ثم تصنيف المشكلات الفلسفية وتمييزها، فتقسيم المشكلة الفلسفية الواحدة إلى عدة مشكلات، فتناولها واحدة واحدة بغية الوصول فيها إلى حل أو اتخاذ موقف معين بشأنها[29].

وبالتالي "فالتحليل يعني أولا تمييز المشكلات وتقسيم كل منها إلى عدد من المشكلات الجزئية حتى يسهل تناولها واحدة بعد الأخرى، في صبر وأناة، ذلك تحقيق فهما أدق

([27]) منصور كافي، البحث العلمي؛ تقنياته ومناهجه وطرق تحقيق مخطوطاته، جامعة باتنة (2002/2001)، ص 34-35.

([28])محمد الغريب عبد الكريم ، البحث العلمي؛ التصميم والمنهج والإجراءات، ص 84/ نقلا عن المرجع نفسه, ص35.

([29]) محمود زيدان، منهج البحث الفلسفي، جامعة بيروت (1974)، ص 122-123.

للمشكلات وتقدما أكبر في إمكان حلها، والتردد الذي قد نصل إليه نتيجة التحليل قد يكون أفضل من تلك التعميمات السريعة وادعاء الوصول إلى يقين بلا أساس"[30].

ولما كان من يقوم بتحليل موقف مركب إلى عناصره الجزئية قاصدا ما هو غامض فيها ليوضحه، وما هو خطأ أو لغو ليتجنبه، وما هو عرضي ليقلل من أهميته، فيكون التحليل والتركيب شقان لمنهج واحد، أو أنهما منهجان متضايقان.

"والتحليل الفلسفي استخدمه "راسل" (1872-1970م) ودافع عنه "مور" (1873-1958م)، و"فيتجنشتين" (1889-1951م)... وغيرهم. كمنهج صالح للتفلسف، ويقوم على فكرة أن الواقع مركب

ضخم يمكن تحليله إلى مكونات عقلية ومادية، كلية وأحادية، واكتشاف العلاقات بينها، حتى يمكن تسميته بتفكير في شكل علاقات"[31].

أما منهج التحليل عند "مور"فيمكن تمييز ثلاثة أنواع فيه، لكل منها مشكلة تناسبه وهي:

أ- الانتباه إلى معنى التصور، فإذا أردنا تحليل تصور ما فإننا نفكر فيه أولا ثم نحاول تحليل معناه بأن نمعن فيه النظر.

ب- التحليل تقسيم، فلكي نحلل معنى تصور ما ينبغي تقسيمه إلى تصورات أخرى تؤلفه.

جـ- التحليل تمييز، فتحليل معنى تصور ما يستلزم إحصاء لكل المعاني التي يدل عليها اللفظ من خلال إحصاء كل استخداماته الممكنة، ومحاولة رصد الخاصة المشتركة فيها جميعا فتستبعد كل التصورات التي تبعد في معناها عن تصورنا قيد البحث، بمعنى يتم عزل كل التصورات التي لا تخدم البحث. فيحصل بذلك تمييزا لبحث عما عداه[32].

لكن المحلل لا يقف عند هذا الحد وإنما يسعى إلى ترتيب ما وصل إليه من عناصر ترتيبا جديدا من خلال تصنيفها تصنيفا جديدا. أو اكتشاف علاقات جديدة بين تلك العناصر. فيصل المحلل بالموقف القديم إلى مركب جديد[33].

3- المنهج الاستنباطي:

يأتي تعريف الاستنباط على أنه "استدلال استنتاجي ينتقل فيه الفكرمن العام إلى الخاص، ومن المبدأ إلى النتيجة، ويسمى الاستنباط من مقدمة واحدة استدلالا

---

(30) المرجع نفسه، ص 102.

(31) عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ص 187.

(32) محمود زيدان، مناهج البحث الفلسفي، ص 91-92.

(33) المرجع نفسه، ص 123-124.

مباشرا، ومن مقدمتين استدلالا قياسيا أو قياسا"[34]. والمنهج الاستنباطي هو منهج للاستدلال العلمي يقوم ويعتمد على الاستنباط[35].
و"الاستنباط هو ارتباط مقدمات بنتيجة برباط معين بحيث إذا قبلنا المقدمات قبلنا النتيجة"[36].

4- المنهج الاستقرائي:

يأتي تعريف الاستقراء على أنه "تتبع جزئيات الشيء، ومنه استقريت الشيء، إذ تتبعته. وعند المنطقيين الاستقراء هو الحكم الكلي لوجوده في أكثر جزئياته، أو هو تصفح الجزئيات لإثبات حكم كلي، والانتقال من المعطي إلى المفكر فيه"[37].

وعلى هذا الأساس كان المنهج التحليلي متحكما في تقسيم البحث، حيث قمت بتمييز مشكلة البحث ألا وهي إشكالية "المرأة في فكر الشيخ محمد الغزالي"، وقسمتها إلى عدد من المشكلات الجزئية حتى يسهل تناولها واحدة بعد الأخرى من بينها: "الغزالي ومشكلة المرأة"، "الغزالي وقضايا المرأة"...
وقد عملت في كل مرة بالتركيز على آرائه ومواقفه التي تخدم موضوع المرأة، بتمييزها عن غيرها، وتناولها تناولا موضوعيا، من خلال مسح شامل لكل كتبه، وانتقاء ما يتعلق بالموضوع. ثم تحليله باعتماد المراجع ذات الصلة بموضوع المرأة، فاضطرني ذلك إلى استخدام المقارنة بين أفكار الشيخ الغزالي وغيره من المفكرين الذين أدلوا بدلوهم في هذا الموضوع كأداة مساعدة كلما سمح ذلك.
وقد قمت بتقصي موضوع المرأة واستقرائه من مظانه، وعمدت الإلمام بجميع المعلومات المتعلقة به من هذه المظان، بتتبع جزئيات الموضوع بغية الوصول إلى الكليات ومن ثم إلى حكم عام يشملها. والاستقراء من المناهج الإسلامية الأصلية التي استخدمت في علم الأخلاق والآداب والمعارف.
أما المنهج الاستنباطي فقد قمت من خلاله باستنتاجات عامة من المبادئ المستخلصة بعد عملية بحث التزمنا فيها التنظيم وتحرينا التوثيق.

(34) عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ص 58.
(35) المرجع نفسه، ص 845.
(36) محمود زيدان، مناهج البحث الفلسفي، ص 124.
(37) عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ص 57.

المبحث الثالث: الدراسات السابقة.

لا يمكن للباحث أن ينطلق في صياغة موضوعه وبنائه بطريقة علمية محكمة، إلا إذا وقف وقفة الدارس المتبصر على المجهودات السابقة والمعاصرة لبحثه، محاولا تمثل القضايا التي ترد في البحوث تمثلا واعيا يأخذ بعين الإعتبار ثوابت القضايا ومتغيراتها، وطبيعة المد والجزر اللذين يلحقا هذه القضايا وهي تتناول من باحث لآخر، وتناقش في سياقات متعددة ساعيا من وراء ذلك إلى توجيه ما لحق هذه القضايا والمسائل من انحرافات إن وجدت، وتثبيت ما هو جيد منها؛ لتبصير الأمة بتراثها وإمدادها بالرؤوس السليمة، والأدوات المحكمة التي تقرأ بها هذا التراث.

ولعلنا إذ نستحضر هذه الدراسات نروم وضع بحثنا في سياقه العلمي الأكاديمي، وإتمام مسيرة المشاريع الفكرية الجادة التي لا يؤتيها الباحث لوحده حقها مهما جد واجتهد، وسنحاول رصد أهم الدراسات التي تناولت قضية المرأة في فكر الشيخ "الغزالي" من قريب أو من بعيد، وكذا شخصية البحث الشيخ "محمد الغزالي" بالدراسة، ونشير بإيجاز إلى فحواها خاصة من منظور تقييمي في حدود السياقات التي وردت فيها، ثم كيف استفدنا مما هو وارد فيها، وهل تتمايز هذه الدراسات عن بعضها البعض أم أنها لا تقول إلا معارا أو معادا من اللفظ المكرور.

فإلى جانب طرح "الغزالي" لقضية المرأة، ناقش نفر غير قليل من الكتاب والباحثين أطروحاته إزاء قضاياها، والملاحظ أن دراسات هؤلاء -في مجملها- تعتقد أن تيار الشيخ "محمد الغزالي" رغم التحديات والمواجهات المعاكسة له ولفكره في قضية المرأة إلا أنه يمثل التيار الإصلاحي المعتدل في الخطاب الإسلامي.

قام الشيخ "يوسف القرضاوي" في مؤلفه (الشيخ الغزالي كما عرفته؛ رحلة نصف قرن) سنة 1997، بتتبع فكر "الغزالي" إزاء قضايا المرأة، وقدم رؤية عامة مليئة بالشواهد المقتبسة عن كتب الشيخ "الغزالي"، عن فقهه لأبرز تلك القضايا التي جرت عليه الكثير من القيل والقال، وخصوصا من جانب الإخوان السلفيين، رادا بذلك تأويل بعضهم واتهامهم له بخروجه على النص في قضية تولي المرأة الوظائف العامة، وكذا دافع عن قوله بأن دية المرأة مثل دية الرجل...

لقد ركز "القرضاوي" في دراسته على رد الدعاوى والاتهامات المنسوبة للشيخ "الغزالي" في بعض قضايا المرأة. وعد من عناصر الإصلاح لدى "الغزالي"؛ تحرير المرأة والأسرة، مبينا مراده بمصطلح التحرير، مؤكدا أن "الغزالي" الداعية أو "الغزالي" المصلح، أو المفسر أو الفقيه.. منصف للمرأة في كل هذه المجالات، محام عنها بحرارة(38).

وقدمت "هبة رؤوف عزت" دراستها "الحق المر: قضايا المرأة في فكر الغزالي" سنة 1997، ضمنتها مجلة (إسلامية المعرفة) (39) في عددها الخاص عن

---

(38) يوسف القرضاوي، الشيخ الغزالي كما عرفته؛ رحلة نصف قرن، مؤسسة الرسالة، (بيروت)، ط1(1421هـ-2001م)، ص 260.

(39) وهي مجلة فكرية فصلية محكمة يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

الشيخ "محمد الغزالي"، وقد بينت الباحثة من خلالها إدراك "الغزالي" المبكر بوجود مشكلة المرأة في عالمنا الإسلامي. وإذا كان الرجل في الستينيات يدعو إلى أولوية عمل المرأة داخل بيتها ,ويؤكد على التحفظ والعدة إلى الأصول خشية من انبهار المرأة المسلمة بالنموذج الغربي المسيطر الساعي إلى إخراجها من الأسرة وإشراكها في المجال العام دون أدنى ضوابط، فإنه سرعان ما أدرك ضرورة وضع القضايا في سياق أوسع، وبلورة الأطروحات والأفكار.. وسرعان ما يتضح له أن التركيز على الضوابط وليس المهام وأساليب المشاركة هو المدخل الأسلم الواجب إتباعه، بحيث يوضع الأصل وتلحقه الفروع[40].

وقد ركزت "هبة رؤوف عزت" في بحثها حول قضايا المرأة في فكر "الغزالي" على التطورات التي شهدتها بعض قضايا المرأة في فكر "الغزالي" من ذلك قضية العمل والمشاركة الاجتماعية.

لقد كانت هذه الدراسة بمثابة الأرضية الأساسية في صياغة موضوع بحثنا "المرأة في فكر الشيخ محمد الغزالي".

ومن بعد "هبة رؤوف عزت"، جاءت باحثة أخرى في فكر الشيخ "الغزالي"، هي "سهيلة الحسيني" صاحبة كتاب "المرأة في منهج الإمام الغزالي" سنة 1998م, تعد هذه الدراسة من الدراسات الهامة في موضوع بحثنا، فهي قد تتبعت الآثار الفكرية للشيخ "الغزالي" ووعت ما ضمنته من قضايا واجتهادات ونظرات في قضية تعد من القضايا التي احتلت مساحة واسعة في فكر "الغزالي" وآثاره واجتهاداته، وقد أكدت من خلالها أن: "رحلة دفاع الغزالي عن المرأة بدأت مع أوائل مؤلفاته في بداية الخمسينيات (من هنا نعلم) وحتى أواخرها (التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم) في التسعينيات، وما بين المؤلفين عقود طويلة دافع فيها عن المرأة فكرا ولسانا وقلما كما لم يدافع عنها أي مصلح أو داعية"[41].

والملاحظ أن هذه الدراسة اتبعت منهج الشيخ "الغزالي" ذاته في التصنيف والعرض. وقد خرجت بخلاصة من دراستها، مفادها أن "المرأة في منهج الإمام الغزالي -كما توضحها خطوطه الفكرية- هي المرأة التي تحاول جهدها الاقتراب من أختها تلك التي عاصرت عهد النبوة الزاهي.. والخلافة الراشدة"[42].

وفي سنة 2000م, كتب "عبد الحليم عويس" فصلا عن "الشيخ الغزالي وقضايا المرأة"، توصل إلى أن الشيخ "محمد الغزالي" قاد تيارا لإنصاف المرأة المسلمة وتحقيق فعاليتها من منطلق الرؤية الإسلامية التي تؤصل حقوقها وواجباتها

([40]) هبة رؤوف عزت، الحق المر: قضايا المرأة في فكر الغزالي، إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي (ماليزيا)، مؤسسة زاعياش (الجزائر)، السنة2، العدد 7(1417هـ-1997م)، ص 90-91.

([41]) سهيلة الحسيني، المرأة في منهج الإمام الغزالي، دار الرشاد (القاهرة)، ط1(1419هـ-1998م)، ص 15.

([42]) المرجع نفسه، ص 223.

(5)عبد الحليم عويس, الشيخ محمد الغزالي؛ تاريخه وجهوده وآراءه, دار القلم دمشق, ط1(1421هـ-2000م), ص61.

الاجتماعية والإنسانية. وليس ذلك على إسقاطات وهمية نابعة من خارج الدائرة الإسلامية كما فعل الكثيرون من دعاة تحرير المرأة.(5)

وهو في دراسته هذه يذكر الآراء التي تترجم عن وسطية الشيخ "الغزالي" والتي تحقق في الوقت نفسه الوسطية الإسلامية، وتحافظ على إنسانية المرأة وفعاليتها في سياق واحد. مستعرضا الأدلة على وقوف "الغزالي" مع إنصاف المرأة ومساواتها بالرجل في الحق الإنساني العام، وقد حذا "عويس" بهذا حذو الشيخ "القرضاوي" في عرض الأدلة ومناقشتها.

هذا، وقد سلط الملتقى الوطني الأول بقسنطينة الضوء على منهج الشيخ "محمد الغزالي" في التجديد والإصلاح، في سنة 2001م. من ذلك إصلاحه لأوضاع المرأة.

و قدمت "صونيا وافق" –من خلاله- فصلا بعنوان "المرأة والإصلاح في فكر الشيخ الغزالي"، توصلت فيه إلى أن الأفكار المبثوثة في كتب الشيخ "الغزالي" كلها لا يمكن أن يستخلص منها جميعا بعد الجمع والتفكير إلا فكرة واحدة، يحاول الشيخ إيصالها إلى المرأة المسلمة، وقد اصطلحت الباحثة على تسمية هذه الفكرة بـ "التحرير".

والتحرير المقصود في فكره مرادا بشيء من الضوابط، بمعنى "أنه يريد إخراج المرأة من بقايا حضارة هرمت وشاخت، ولم تعد تعي من بعد علم إلا عرفا موبوءا وتقاليد بالية فكانت ضحيتها الأولى المرأة"[43].

وقد ظلت هذه الدراسة قاصرة؛ لأنها اعتمدت مصدرا واحدا: "قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة" في تحليل أفكار "الغزالي"، وكأن الباحثة قامت بدراسة حول الكتاب، وليس حول "المرأة والإصلاح في فكر الغزالي".

ومن الدراسات السابقة المؤيدة لفكر "الغزالي" في قضية المرأة، ما قدمه الباحثان "لطيفة حسين الكندري-بدر محمد ملك" سنة 2003م، في موضوع "تربية المرأة من منظور الشيخ محمد الغزالي"[44].

تعرضت الدراسة بعمق لملمح هام في مشروع الشيخ "الغزالي" الفكري، والممثل في تربية المرأة. فسلطت الأضواء على الجوانب المختلفة لها في كافة مؤلفاته، من ذلك موقف الشيخ إزاء تحديات تعليم المرأة، وآرائه في تصحيح النظر للمرأة تربية، وتعليما، وأدوارا.

وخرجت الدراسة بتوصيات أهمها: ضرورة مراجعة وتجديد فكر "الغزالي". أما فيما يخص الدراسة التي قام بها "رمضان خميس الغريب"[*] سنة 2003م، وضمنها محاور المشروع الفكري لدى الشيخ "محمد الغزالي",واعتبرها واحدة من تلك المحاور فهي "الشيخ الغزالي وقضايا المرأة". وقد طرق الباحث أهم القضايا التي

([43]) صونيا وافق، (المرأة والإصلاح في فكر الشيخ الغزالي)، منهج الشيخ محمد الغزالي في التجديد والإصلاح، الإتحاد العام الطلابي الحر، فرع الجامعة الإسلامية (قسنطينة)، دار اليمن (الجزائر)، ط(2004م)، ص 127.

([44]) أنظر موقع: إخوان أون لاين، لطيفة حسين الكندري، بدر محمد ملك، تربية المرأة من منظور الشيخ محمد الغزالي.

([*]) مدرس التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر.

تناولها "الغزالي" فركز على قضية القوامة، الطلاق، تولي المرأة الوظائف العامة، ثياب المرأة بما في ذلك النقاب، علاقة المرأة بالمسجد، المرأة والتعليم، الزواج، صوت المرأة واسمها، شهادة المرأة، دية المرأة. مستخلصا أن الشيخ "الغزالي" اهتم بقضايا المرأة اهتماما واضحا، لا في تناول قضاياها فحسب بل في طريقة التناول، فهو لا يرى رأيا يميل إلى رفعة مكانتها إلا واتخذه وعضده بالشواهد والأدلة.

والنتيجة التي يصل إليها "رمضان خميس الغريب" من بحثه، هي نفسها التي خلص إليها غيره من المفكرين "كالقرضاوي"، "وعبد الحليم عويس"... من أن الشيخ "الغزالي" ظل في جانب المرأة مدافعا عن حقوقها مبينا مكانتها.

وإلى جانب هذه الدراسات التي تناولت قضية المرأة في فكر الشيخ "الغزالي"، فثمة دراسات أخرى بالبحث والتحليل شخصية البحث الشيخ "محمد الغزالي"، وقد كان بين أيدينا رسالة ماجستير بعنوان "الشيخ محمد الغزالي؛ مفكرا وداعية". لصاحبها "ابراهيم نويري" وقد تناولت هذه الدراسة شخصية الشيخ "الغزالي"، ومراحل حياته من الميلاد بقرية" نكلا العنب" المصرية إلى الوفاة بالرياض بالمملكة العربية السعودية، ثم جوانب من فكره ودعوته. وقد خصص الباحث فصلا كاملا عن فكر الشيخ الاجتماعي والسياسي، وفي تقديره أنه المحور الأكبر في مشروع الشيخ الفكري، وأن استيعاب كل جزئياته يتطلب عملا مستقلا، لذا اقتصر على دراسة وتحليل "قضية المرأة" في هذا المشروع.

وحسبما نرى أن هذه الدراسة أتت عامة، واسعة، ومتشبعة، فلم تكن مركزة على جانب من جوانب الشيخ، وإنما تعددت جوانبها؛ مما حال دون الإحاطة الشاملة بجوانب قضية المرأة كجزء من القضايا الكثيرة المطروحة على بساط البحث. وقد تناول الباحث من هذه القضية اجتهادات "الغزالي وفقهه في قضايا وشؤون المرأة المسلمة من ذلك العمل، الحجاب، الدية والشهادة... وبالتالي لا يتعدى تناوله للقضية كجزئية ثانوية من أجزاء البحث الكثيرة.

والملاحظ أن مجمل هذه الدراسات السابقة لبحثنا قد كانت إما عبارة عن مقالات أو محاضرات أو فصول ضمنها أصحابها في كتب أو مجلات، تدور كلها في فلك قضية المرأة في فكر الشيخ "الغزالي"، إلا ما أشرنا إليه من دراسة "سهيلة الحسيني" "المرأة في منهج الإمام الغزالي" التي تعد من الدراسات العلمية الجادة في فكر الشيخ "الغزالي".

الفصل الأوّل

قضية المرأة في الفكر الإسلامي الحديث

المبحث الأول: الغرب وقضية المرأة.

المبحث الثاني: قضية المرأة في الفكر العربي.

المبحث الثالث: قضية المرأة في الفكر الإسلامي الحديث

المبحث الثاني: قضية المرأة في الفكر العربي

تمهيد:

إن التأريخ لقضية المرأة في الفكر العربي والإسلامي خلال القرن الفارط، يوحي بأنه تاريخ يعج بالنقاشات والاحتجاجات والمعارك الساخنة التي لم تعرف إلى اليوم –ومع دخول القرن الواحد والعشرين- انقطاعا أو توقفا، الأمر الذي يكشف عن حساسية هذه القضية وأهميتها بل وخطورتها في الوقت ذاته من منظورات نُخب الفكر العربي والإسلامي، ويعطي تفسير أعمق للجانب الكمي للكتابات المتراكمة في القضية الذي لا يعكس على الإطلاق تراكما كيفيا نوعيا في تطوير واقع المرأة، وتجديد التفكير في قضاياها المختلفة[45].

وما يؤخذ على الكثير من الكتابات والآراء حول قضية المرأة هو طابع الاندفاع والانفعال نتيجة للذهنية الصدامية المسيطرة على أغلبها، ومن ثم الخوض في القضية على أساس معركة لا بد من حيازة النصر فيها: "فهي عند النخب العالمية واليسارية، معركة من أجل التنوير والنهضة والتقدم، وعند النخب الإسلامية معركة من أجل الأخلاق والطهارة والفضيلة"[46].

ولعل أهم ما يمكن بحثه بهذا الصدد، هو كيف نشأت "قضية المرأة" في العالم العربي والإسلامي؟ لا بد من أن هناك منطلقا فكريا تأسست عليه.

ثم ما هي التوجهات الفكرية التي أفرزتها تلك المعارك والصراعات المحتدمة حول قضايا المرأة؟.

لقد أثيرت "قضية المرأة" في العالم العربي والإسلامي أول الأمر بدافع اتصال المسلمين بالغرب وهو في أوج قوته وتقدمه، وطرحت في الساحة الإسلامية بالصيغة نفسها التي كانت مطروحة بها في المجتمعات الغربية. تقليدا أعمى لمطالب الغرب التي نشأت كرد فعل للظلم البين الذي أصاب المرأة في بلادهم. أمَّا هم فقد أغناهم الإسلام عن تلك المطالب.

وقد عرفت "قضية المرأة" في العالم العربي الإسلامي في النصف الأول من القرن العشرين صراعا فكريا واسعا ضم مختلف التيارات والتوجهات التي تنهل دعاواها من مشارب شتى؛ فتراوح بين طرف شديد الاندفاع يتبنى المرجعية الفكرية الغربية، وآخر شديد المحافظة ينطلق من مرجعية فكرية إسلامية. والأمر يجري في كلا الطرفين بين تفريط وإفراط. "فالاندفاع الشديد كان يولد معه مخاوف الانفلات وهيمنة النموذج الغربي وتفكك العائلة وتراجع القيم والأخلاق، والمحافظة الشديدة

---

(45) زكي الميلاد، تجديد التفكير الديني في مسألة المرأة، المركز الثقافي العربي (المغرب)، ط1(2001م)، ص 13.

(46)و(3) المرجع نفسه، ص 14.

كـادت تقـف مانعـا أمـام تعلـيم المـرأة وتنميـة قـدراتها الفكريـة، وبالتـالي حجبهـا عـن المشاركة الاجتماعية أو التعاطي مع الشأن العام"[47].

ومما لا شك فيه، أن إلقاء نظرة سريعة علـى وضـعية المرأة فـي المحتمعـات العربيـة والإسلامية بصفة عامة، ومحيطهـا السياسـي (الاسـتبداد السياسـي) والـديني والثقـافي (مختلف العادات والتقاليد، جمود الفكر الديني) والاجتماعي

(التخلـف فـي البنـاء الاجتمـاعي والاقتـصادي للمجتمـع) بـصفة خاصـة، يحيلنـا علـى الإرهاصات الأولى لتدني وضعيتها وإنحطاطها، وذهاب حريتها واستقلالها، لا سيما فـي ذلـك حـالات الظلاميـة والـضبابية الحالكـة التـي قبعـت بـالمرأة فـي أتـون الركـود والتخلف.

كـل ذلـك يـؤدي بنـا إلـى اسـتنتاج طبيعـة العلاقـة بـين المـرأة والرجـل فـي ظـل تلـك الأوضاع، فجميعها يؤكد على الاختلاف العظيم بين الرجل والمرأة، فهـي أقل شـأنا مـن الرجـل، ولا يجـوز أن تكـون مـساوية لـه، ولهـذا فالعلاقـة بينهمـا كانـت مطبوعـة بفكرة السلطة والاستبداد.

في ظل تلك الظروف المتدهورة ظهرت دعوات "تحرير المرأة"، ففي أثنـاء الدولـة العثمانية المتميزة بالاستبداد، والنظام الاجتمـاعي الطبقـي (من الأفنـدي إلـى البـك إلـى الباشا)، والذي كانت المرأة في ظله تشكل أدنـى مراتـب الهـدم الاجتمـاعي، ثـم ظهـور دعوات تحرير المرأة[48].

وكنتيجـة مباشـرة لحالـة التـدني والتقهـر المـضروبة علـى المـرأة، انتبـه المفكـرون والمصلحون إلى حالها، وعلموا تأثيرها في الهيئات الاجتماعية، ومن ثـم أجمـع أغلـب مفكـري عـصر النهـضة علـى ضـرورة وضـع برنـامج إصـلاحي يـشمل شـتى جوانـب إصلاح حال المرأة بدءا بالتربية والتعليم...

والملاحظ أن العامل الغربي حاضر بقوة في هذه الدعوات.

إن البحث عن سبل النهوض بالمرأة المسلمة التـي تأرجحت بين نموذجي المرأة فـي الحضارة الإسلامية والمرأة في الحضارة الأوروبية يتطلب تقصي مختلـف التوجهـات الفكرية في القضية.

وعلـى ضـوء مـا تقـدم فسنتحرى تاريخيـة وأنثريولوجيـة قضية المرأة المسلمة من خلال التوجهات الفكرية العربية والإسلامية الآتية:

المطلب الأول: الاتجاه الليبرالي.

وهو الاتجـاه الـذي ظـل يـدعو إلـى "نـهضة شـاملة"، فبـالرغم من كونـه مـع تجديـد الإسلام، ومؤيد للمجددين الإسلاميين، إلا أن مفهومه للنهضة أوسـع وأشمل ممـا يـراه غيـره، وتتعـدى مجـرد النظـر والاسـتيعاب والقـدرة علـى الاقتبـاس المحمـود مـن الحضارة الحديثـة، إلـى الـذوبان فـي كـل مـا تفـرزه تلـك الحـضارة، فيـدعو بـذلك إلـى

(48) أحمد محمد سالم، المرأة في الفكر العربي الحديث، دار الكتب (مصر)، ط2(2003م)، ص 22.

دراسة الغرب، وحضارته بانفتاح ودون تحرج، ثم لا يجد بدا من تبني أفكاره وشعاراته السياسية... ومن أنصار الاتجاه الليبرالي، فرح أنطون (1871-1922م)، شبلي الشميل (1850-1917م)، جرجي زيدان (1861-1914م)، قاسم أمين (1865-1908م)، أحمد لطفي السيد (1872-1963م)، وغيرهم[49]. وقبلهم رفاعة الطهطاوي [1801-1873م].

فالبداية كانت في مصر مع "رفاعة الطهطاوي" رائد الليبرالية التحريرية في العصر الحديث، فقد كانت الدعوة غير المباشرة إلى تحرير المرأة وتعليمها معلنة في كتاب "رفاعة الطهطاوي" "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" الذي ألفه قبل 1830م، وصدرت طبعته الأولى سنة 1834م، ويليه كتاب آخر له بعنوان "المرشد الأمين للبنات والبنين" الذي كتبه في بداية السبعينيات من القرن التاسع عشر، وقد ضمنه الكثير من الآراء ووجهات النظر التي تكرس في مجملها أول بناء فكري شبه متكامل لمفكر عربي لقضية تحرير المرأة في عصرنا الحديث... فتشبث بذلك ريادة مصر وأسبقيتها في الدعوة إلى تحرير المرأة[50].

الرأي الذي يجمع عليه جل الكتاب والمفكرين، حيث تتفق معظم المصادر والدراسات على ريادة الطهطاوي في السبق إلى دعوة تحرير المرأة، إذ يؤكد "أحد الدارسين" أن "رفاعة الطهطاوي أول من بدأ الاهتمام بالمرأة في كتاباته, من منطلق السياق الديني، وكان ينظر إلى وضعية المرأة الغربية من خلال هذا السياق أيضا"[51].

ويثبت غيره أن البداية كانت على يد "رفاعة الطهطاوي" حيث أدرك التفاوت البين في مسألة المساواة بين الرجل والمرأة، فآمن بوجوب الدعوة والمساواة بينهما فكان بذلك "من أوائل المصلحين في العصر الحديث الذين نادوا بالمساواة الكاملة بين الرجل والمرأة في كل الميادين خاصة التعليم وفي العمل خارج المنزل وقال إنه لا ضرر لذلك أصلا، ثم ذكر فوائد مشاركتها الرجل في العمل والحياة العامة معددا مفاسد المرأة الجاهلة العاطلة عن العمل..."[52].

وقد كان له آراؤه ومواقفه الفكرية التي تنّم عن ازدواجية نظرته في قضية المرأة، فبالرغم من وضوح اتجاهه الفكري إلا أنه في قضية المرأة تسيطر عليه خلفياته الفكرية بحكم كونه شيخا أزهريا؛ فإنه كان يدعو إلى تحرير المرأة ويؤمن بوجود "مشكلة المرأة" إلا أنه يكرس بفكره سيطرة الرجل على المرأة واستبداده بها، حين

---

(49) منى حسين الدسوقي، الشيخ مصطفى الغلاييني في مفاهيمه الإصلاحية، دراسة مقارنة بينه وبين الشيخين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، المكتبة العصرية (صيدا بيروت)، ط1(1419هـ-1999م)، ص 79.

(50) زكي الميلاد، تجديد التفكير الديني في مسألة المرأة، ص 28.

(51) أحمد محمد سالم، المرأة في الفكر العربي الحديث، ص 78.

(52) محمد صالح المراكشي، تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار (1898-1935م)، الدار التونسية للنشر "تونس"، كلية الآداب والعلوم الإنسانية (تونس)، ص 341.

يرى أن الرجل هو الأصل والمرأة هي الفرع، حيث خلقت هي من أجله، فكانت رؤيته غالبا ما تنتهي إلى إقرار الاستبداد وإرسائه على المرأة، ومن ثم يصل بعضهم إلى القول باستقرار داعية الليبرالية "رفاعة الطهطاوي" في نظرته للمرأة على خط أصحاب العمائم، وكذا عدم اتساق هذه النظرة مع ليبيراليته[53].

يتضح من هذا الرأي أن داعية الليبيرالية كان يسعى إلى حلول غربية تحريرية بخلفية شرقية أزهرية، وهو ما جعل رؤيته في قضايا مثل الحجاب والتعليم والعمل... لا تبتعد كثيرا عن آراء أقطاب التوجيهات المحافظة.

وانعكس ذلك على رأيه في قضية الحجاب حين يؤكد على ضرورة احتجاب المرأة عن الأجانب فيحرم النظر والخلوة بالأجانب لكل من المرأة والرجل على السواء، ويرى في تبرجها خارج منزلها محرما عليها. كما يبدي رفضه التام للاختلاط بين الجنسين بالشكل السائد في بلاد الأعاجم[54].

والغريب في ذلك ما يروج له داعية الليبرالية من استمرار ضعف المرأة وجبنها حين يرى في الجبن والضعف فضيلتان في المرأة. "وهكذا نرى أن رائد الليبرالية يدعو إلى الوصاية على المرأة ذلك لأنهن قد فقدن كمال الحرية من وجهة نظره، ولهذا يرى تأصيل نقيصتي الجبن والضعف اللتين يراهما فضيلتين في المرأة"[55].

وهو في جانب التربية يطالب بحسن تربية الأولاد ذكورا وإناثا، فيما يشيد باهتمام المجتمعات الأوروبية بتربية البنات كتربية الأولاد[56].

وإذا كان "الطهطاوي"يعلي من شأن التربية، ويخص بذلك تربية البنات والبنين على السواء، فقد اهتم بإبراز قيمة تعليم المرأة، ورأي في تعليمها جزءا من تربيتها المعنوية التي هي تهذيب العقل، وترويض الذهن، فمن الضروري –عنده- تعليم البنات، وعدم حرمانهن بدافع الغيرة المفرطة عليهن، ولعل الهدف الأساسي من تعليم المرأة في نظره هو حسن إعدادها للحياة الزوجية من جميع جوانبها ومسؤوليتها[57].

وحول مسألة عمل المرأة يركز الطهطاوي على عملها المنزلي أولا، ويرى في عملها خارج منزلها أمر تقتضيه ظروفها وإمكاناتها، فيمكن عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال حسب قوتها وطاقتها[58].

([53]) المرجع نفسه، ص 40.

([54]) المرجع السابق، ص 147-148.

([55]) المرجع نفسه، ص 217.

([56]) المرجع نفسه، ص 245-246.

([57]) المرجع نفسه، ص 273-274-276.

([58]) المرجع نفسه، ص 367.

ويأتي رفضه لعملها بالسياسة متسقا ورفضه لاختلاط المرأة بالرجل في العمل؛ إذ يرى ضرورة حجب المرأة عن أعين الرجال، فهي لا تصلح لممارسة العمل السياسي في نظره[59].
وما يمكن قوله بهذا الصدد هو أن اهتمام رفاعة الطهطاوي بقضية المرأة، وإفرادها بالدراسة والتأليف في كتابيه "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" حوالي سنة 1830م، و"المرشد الأمين في تربية البنات والبنين" في السبعينيات.
هذا الاهتمام الذي شهدته العشريتين الثالثة والسابعة من القرن التاسع عشر كان منعرجا حاسما لإحداث تحولات فكرية واجتماعية على صعيد المرأة، فكانت بذلك الدعوة المباشرة لتحرير المرأة من أسر العادات والتقاليد على يد "قاسم أمين" [1863-1908م] وبالتحديد أواخر القرن التاسع عشر، ومطلع القرن

العشرين، لهذا السبب يعد اسم قاسم أمين "أشهر اسم ارتبط بقضية المرأة في العالم العربي، حيث مثل مرحلة النقد الاجتماعي الراديكالي ورفض كل ما من شأنه أن يعيق تقدم المرأة"[60].
وقد بدأ قاسم أمين التمهيد لدعوته في شكل ثورة على العادات والتقاليد المتعلقة بالمرأة كمرحلة أولى دعا منها إلى التخلص من العقائد القديمة وإزاحتها من حياة المرأة المسلمة ووضعها العام ضمن الأسرة والمجتمع، فكان من الرواد الذين اهتموا مباشرة بقضية تحرير المرأة[61] ضمن كتابه الشهير "تحرير المرأة" سنة 1899م. والذي أثار "معركة فكرية شديدة التداعيات"[62]. تعد اولى معارك القرن الماضي.
غير أنه سرعان ما أعقبه بكتاب آخر في السنة الأولى بعنوان "المرأة الجديدة". وقد كان الدافع الأساسي من تأليفه وسرعة إصداره واضحا، باعتباره "جاء ردا على الانتقادات الغاضبة والعنيفة من الوسط الديني المصري حول كتابه (تحرير المرأة)"[63].
إذ كان تغير مساره تغيرا جذريا إلى حد اعتبره البعض قد سلك مسلكا انسلاخيا من واقع مجتمعه وملابساته، ويظهر ذلك أساسا في تبنية النموذج الغربي للمرأة[64].
كحل لمشكلتها من جهة، وكأسهل سبيل للنهوض واللحاق بركب الحضارة من جهة أخرى. واهتمام قاسم أمين بقضية المرأة كان منذ بداية عهده بالكتابة، فقد وهب كل جهوده ومساعيه في سبيل الدعوة إلى تحريرها والنهوض بها، وفتح بهذا الاهتمام معارك ظلت الكتابات متواصلة عنها وإلى حد الساعة و"قد تسارعت الانتقالات الفكرية حول قضايا المرأة حسب الوضعيات والمناخات التي اصطدم بها فمن دفاعه

([59]) المرجع نفسه، ص 368.
([60]) سعيدة درويش، مشكلة المرأة في الفكر الجزائري الإسلامي المعاصر، ص 86.
([61]) محمد صالح المراكشي، تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار، ص 341-342.
([62]) زكي الميلاد، تجديد التفكير الديني في مسألة المرأة، ص 16.
([63]) المرجع نفسه، ص 21.
([64]) سعيدة درويش، مشكلة المرأة في الفكر الجزائري الإسلامي المعاصر، ص 86.

على حجاب المرأة في كتابه "المصريون" إلى تقييد الحجاب وتحديده وفق الشريعة الإسلامية في كتابه "تحرير المرأة" إلى تبنيه ودفاعه عن النموذج الغربي للمرأة في كتابه (المرأة الجديدة)"[65].

وقد كرس فيكل كتاباته حول المرأة الطابع السجالي السائد يين منظورات النخب والجماعات المتعارضة والذي يختلف باختلاف الدافع، ففي كتابه "المصريون" ظهر السجال في رد التهم الموجهة من طرف الدوق "داركور" المختلف في الثقافة والدين والتاريخ... إلى المرأة في الإسلام، بالدفاع عن المرأة المصرية؛ وفي كتابه "تحرير المراة" كان سجاليا في مواجهة الوضعيات السائدة, على مستوى الأفكار والذهنيات والتقاليد الشائعة

في البيئات الشرقية، وهكذا في "المرأة الجديدة" الذي جاء ردا على انتقادات الوسط الديني حول كتابه "تحرير المرأة"[66].

والمتتبع لمسيرته في التأليف والكتابة تتضح له تحولاته الفكرية التي تومئ إلى تطور في مرجعيته الدينية فبعد أن كان ينطلق من المرجعية الإسلامية المحافظة، ويستبد إلى نصوص القرآن الكريم والشريعة، أصبح يستند إلى علوم الغرب الحديث، وتفكيره الاجتماعي، وهو ما يشهد له ذكر "هربرت سبنسر" مرارا في كتابه. ومن ثم ارتمى قاسم أمين في أحضان الليبرالية الغربية البرجوازية[67].

والنظر في مضامين تلك الكتابات والأفكار التي حوتها يدفعنا إلى التسليم لما استتد منها إلى نصوص الشرع، إذ ليس بإمكاننا أن نلغي بجرة قلم كل ما كتبه المؤلف فيها، والإنصاف يحدونا بأنها ثائرة بالنقد اللاذع الموجه له من هنا وهناك، وهو ما ولد في نفس قاسم أمين الشعور بالحاجة للانتقام

وفي ضوء ما تضمنه كتاب "تحرير المرأة"، فإن الانتقالات السريعة والمندفعة التي مر بها قاسم أمين في أفكاره لا مبرر لها سوى هذا السبب الاخير، فالتغيير والانقلاب يمس رؤيته في كل المسائل المتعلقة بحياة المرأة، وأوضح مثال لذلك انتقاله من حالة الدفاع عن الحجاب بالشكل السائد في عصره "المصريون 1894م"، إلى حالة النقد له "تحرير المرأة: 1899م" والمطالبة بالتقييد وفق حدود الشرع (كشف الوجه واليدين)، إلى الاستقرار في النهاية على اقتراح نموذج المرأة الأوروبية كحل لمشكلة المرأة الشرقية، وأوضح تحليل نقرؤه أن قاسما لم يكن واحدا في فكره، بل كان متعددا ومختلفا ومتناقضا أيضا في موقفه من قضية المرأة[68].

([65]) زكي الميلاد، تجديد التفكير الديني في مسألة المرأة، ص 26.

([66]) المرجع السابق، ص 20-21.

([67]) المرجع نفسه، ص 24.

([68]) المرجع نفسه، ص 30.

والوقوف عند آراء قاسم أمين في الحجاب والتربية والتعليم ثم العمل من خلال مؤلفه "تحرير المرأة" يومئ إلى النقاط الآتية:
1- أنه يرفض ويهاجم الحجاب بمعنى الاحتجاب المنزلي، وليس الحجاب كزي، مؤكدا على أن الحجاب بالشكل المألوف في واقع المجتمعات الشرقية، مانع عظيم يحول بين المرأة وارتقائها ومن ثم يحول بين الأمة وتقدمها[69]، مبررا ذلك باعتقاده أن "الحجاب يحبس المرأة في دائرة ضيقة، فلا ترى، ولا تسمع، ولا تعرف إلا ما يقع فيها من سفاسف الحوادث، ويحول بينها وبين العالم الحي، (...) وعلى فرض أن المرأة يمكنها في احتجابها أن تستكمل ما نقص منها علما وأدبا بقراءة الكتب، فمن البديهي أن ما تحصله من الكتب يعد من قبيل الخيالات، إن لم تمكنه التجربة ويؤكده العمل..."[70].

ومن الواضح أنه يرفض الحجاب المقصود منه "الاحتجاب المنزلي" أو "الحجاب بمعنى قصر المرأة في بيتها، والحظر عليها أن تخالط الرجال"[71].
2- أنه يطالب بضرورة العودة بالحجاب إلى الحد الشرعي وهو ما جاء في تصريحه: "ربما يتوهم ناظرا أنني أرى الآن رفع الحجاب بالمرة، لكن الحقيقة غير ذلك، فإنني لا أزال أدافع عن الحجاب وأعتبره أصلا من أصول الأدب التي يلزم التمسك بها، غير أني أطلب أن يكون منطلقا على ما جاء في الشريعة الإسلامية"[72].
3- أنه يعتبر الحجاب دورا من الأدوار التاريخية لحياة المرأة في العالم، بمعنى أنه ليس خاصا بالمسلمين، ولا هم الذين استحدثوه، ولكن كان عادة معروفة عند كل الأمم تقريبا ثم تلاشت[73].
4- التأكيد على ضرورة تربية المرأة، وبيان أنواعها، قائلا: "المرأة لا تكون خلقا كاملا إلا إذا تمت تربيتها الجسمية والعقلية، أما تربيتها الجسمية فإنها لازمة في استكمال صحتها وحفظ جمالها، (...) وأما تربيتها العقلية فلأنها بدونها تكون المرأة فاقدة لقيمتها..."[74].
5- المرأة كالرجل تماما، محتاجة إلى التعليم لتكون إنسانا يعقل ويريد، ويخص في ذلك ضرورة تعليمها تعليما دينيا ودنيويا معا[75].
6- تضييق دائرة وظيفة المرأة، وحصر أدوارها في وظيفة واحدة متمثلة في حفظ النوع الإنساني، الوظيفة التي تؤديها كل أنثى من سائر أنواع الحيوانات[76].

([69]) قاسم أمين، تحرير المرأة, موفم للنشر (1988م)، ص 79.
([70]) المرجع نفسه، ص 81-82.
([71]) المرجع السابق، ص 72.
([72]) المرجع نفسه، ص 59.
([73]) المرجع نفسه، ص 61-62.
([74]) المرجع نفسه، ص 115-116.
([75]) المرجع نفسه، ص 22.

7- ارتقاء المرأة يتبعه ارتقاء الأمم والعكس صحيح. "إن ارتقاء الأمم يحتاج إلى عوامل مختلفة متنوعة من أهمها ارتقاء المرأة، وانحطاط الأمم ينشأ من عوامل مختلفة متنوعة أيضا من أهمها انحطاط المرأة... فهذا الانحطاط في مرتبة المرأة عندنا، هو أهم مانع يقف في سبيلنا ليصدنا عن التقدم إلى ما فيه صلاحنا..."[77].

ولا غرو، فقد كان قاسم أمين صاحب الريادة والسبق في فتح المعارك الفكرية الساخنة حول قضايا المرأة بكتاباته التي لا تخلو من المرأة والتملص من واقع الحياة آنذاك، حيث الاحتكام الأول والأخير لعادات وتقاليد لا أساس لها من الشرع وتكاد تتخذ طابع القداسة في معظمها.

وقد ظلت تلك المعارك قائمة ومستمرة بين أصحاب التيارات الفكرية المختلفة في منظوراتها للقضية، والتي تنطلق أساسا من مرجعيتها الدينية المتباينة.

واتساع مساحة المعارك الفكرية ظاهر في خروجها من دائرة مصر وانتقالها إلى مجتمعات عربية أخرى.

ففي لبنان كانت "نظيرة زين الدين" [1908-1976م] التي حذت حذو "قاسم أمين" و"رفاعة الطهطاوي" في تبني الاتجاه الليبيرالي التحرري في دعوتها، إذ جاءت في أواخر العقد الثالث من القرن العشرين 1928. لتفتح معركة أخرى بكتابها "السفور والحجاب" مدافعة فيه عن حق المرأة في السفور معتبرة أنه يورث نصف الأمة الشلل[78].

وقد اتخذت "نظيرة زين الدين" من قضية الحجاب موقفا شبيها بموقف "قاسم أمين"، فكان هجومها يقتصر على النقاب أكثر من كونه هجوما على الحجاب الشرعي، وترى فيه مفسدة وأذى يلحقان بالمرأة والأمة فضلا عن كونه يحول بين المرأة والعمل، ويحرمها من الحرية في الأعمال، كما يحول بينها وبين حقوقها التي نال منها الاحتجاب المنزلي[79].

وبالإضافة إلى رفض "نظيرة زين الدين" للنقاب فإنها تهاجم الاحتجاب المنزلي للمرأة وتستند في مواقفها من قضية الحجاب حسب مفهومها لنصوص القرآن الكريم وآراء الفقهاء، لتطالب برفع الحجاب المخالف للشرع في تطبيقاته، لكنها وفي كل الأحوال تعطي مساحة كبيرة للعقل في التعامل مع النص، فيما يتفق مع ظروفها المعاصرة، لتثبت صحة آرائها.

ولا يخلو موقف "نظيرة" من الحجاب ودعوتها للسفور من إعجاب شديد بوضعية المرأة في الحضارة الغربية حين تعتقد بأن ثمة علاقة بين السفور والتقدم من ناحية، والحجاب والجمود والتخلف من ناحية أخرى[80].

([76]) المرجع نفسه، ص 116.

([77]) المرجع نفسه، ص 118.

([78]) زكي الميلاد، تجديد التفكير الديني في مسألة المرأة، ص 21.

([79]) أحمد محمد سالم، المرأة في الفكر العربي الحديث، ص 183-184.

([80]) المرجع نفسه، ص 189.

ولهذا فقد تصدى الشيخ "مصطفى الغلاييني" للآنسة "نظيرة زين الدين" فرد عليها على الفور (1928) بكتاب حمل عنوان "نظرات في كتاب السفور والحجاب" مثبتا من خلاله شرعية النقاب، نافيا أن يكون النقاب مانعا لترقي المرأة، كما تكلم عن مسألة اختلاط الجنسين وعن عمل المرأة خارج بيتها، وأثبت أن ذلك مجلب للضرر لها، وما إلى ذلك من موضوعات أخرى كانت الآنسة "نظيرة" قد تعرضت لها، فتصدى لها الشيخ قولًا قولًا"[81].

لكن "نظيرة زين الدين" سرعان ما ردت على الشيخ "مصطفى الغلاييني" وكل الشيوخ الذين هاجموها في السنة الموالية لتأليف كتابها "الحجاب والسفور" فألفت كتاب "الفتاة والشيوخ: نظرات ومناظرات في السفور والحجاب وتحرير العقل وتحرير المرأة والتجدد الاجتماعي في العالم الإسلامي"؛ لتوضيح موقفها من السفور والحجاب المتضمن في الكتاب الأول[82].

ومع نهاية العقد الثالث من القرن العشرين ظهر اسم آخر مثل الاتجاه الليبيرالي التحرري في تونس هو "الطاهر الحداد" [1899-1936م] صاحب كتاب " امرأتنا في الشريعة والمجتمع". الذي أثار عند نشره سنة 1930م ضجة كبرى في الأوساط الفكرية للمجتمع التونسي، وكلفه ذلك العيش في عزلة تامة نتيجة ردود الفعل العنيفة الثائرة ضد النص وصاحبه، بحيث سلطت عليه جميع أنواع القمع والصد والحرمان من بلوغ غايته المطلوبة وظل كذلك إلى أن سقط فريسة مرض السل الذي أودى بحياته سنة 1936م[83].

وتتركز الإشكالية العامة التي يطرح فيها "الطاهر الحداد" قضية المرأة في مؤلفه "امرأتنافي الشريعة والمجتمع" على ركيزتين اثنتين يوضحهما عنوان الكتاب. هما: النص الديني "الكتاب والسنة" الخاص بالمرأة. والواقع الاجتماعي الذي تعيش في ظله والتأثير المتبادل بينهما[84].

و"الطاهر الحداد" يذهب مذهب "قاسم أمين" في تبني مفهوم أو منهج الإصلاح كذريعة أو مفتاحا لدعوتها، فكلاهما يرى في الإصلاح ضرورة لا بد منها.

إذ يقف "قاسم أمين" في تحديد ما يريده ويقصده من مفهوم "تحرير المرأة" على مفهوم الإصلاح في مقدمة كتابه وخاتمته، فيقول في المقدمة: " قد طرقت بابا من أبواب الإصلاح في أمتنا والتمست وجها من وجوهه في قسم من أفراد الأمة له الأثر

([81]) منى حسين الدسوقي، الشيخ مصطفى الغلاييني في مفاهيمه الإصلاحية، ص 169.

([82]) زكي الميلاد، تجديد التفكير الديني في مسألة المرأة، ص 21.

([83]) الطاهر الحداد، امرأتان في الشريعة والمجتمع، موفم للنشر (1992) بحث وتقديم خالد محمد، ص(ج) من التقديم.

([84]) المرجع نفسه، ص (x) من التقديم.

العظيم في مجموعها"[85]. في حين يكاد القارئ لكتابه لا يقف على مصطلحات الحرية والإطلاق[86].

وأما الليبيرالي التونسي "الطاهر الحداد" فيقول في مقدمة كتابه: "أن الإصلاح الاجتماعي ضروري لنا في عامة وجوه الحياة، وعلى الخصوص ما كان متعلقا بوجودنا في الحياة، وقد رأيت بعين اليقين أن الإسلام بريء من تهمة تعطيله الإصلاح بل هو دينه القويم ومنبعه الذي لا ينصب، وما كان انهيار صرحنا إلا من أوهام اعتقدناها، وعادات مهلكة وفظيعة حكمناها في رقابنا، وهذا ما حدا بي أن أضع كتابي هذا عن المرأة في الشريعة والمجتمع لنرى أيهما الهادي وأيهم المضل"[87].

وإذا كان "الطاهر الحداد" –في صنه السابق- يبرز دور الإسلام في إصلاح حال المرأة، ويشيد بالشريعة الإسلامية وما ضمنته للمرأة من حقوق وحريات حين يقول: "إذا تأملنا حق التأمل في نصوص الشريعة الإسلامية ومراميها نجد أنها تريد أن تذهب بالمرأة مع الرجل مذهب المساواة في وجوه الحياة. (...) بل ما تزال امرأتنا إلى اليوم تجهل ما قرر لها أو طوي في نصوص الإسلام من كنوز الحرية والحق..."[88].

فإنه في معرض حديثه عن الحقوق والحريات يناقض نفسه حين يرى بأن الشريعة الإسلامية أعلت الرجل على المرأة في ظل ظروف تاريخية معينة، وفي أثناء تغير الظروف لا يجد بدا من "المطالبة بالمساواة الكاملة بين الرجل والمرأة"[89]. ويبرز ذلك في قوله:

"لقد حكم الإسلام في آيات القرآن بتمييز الرجل عن المرأة في مواضع صريحة، وليس هذا بمانع أن يقبل بمبدأ المساواة الاجتماعية بينهما عند توفر أسبابها بتطور الزمن ما دام يرمي في جوهره إلى العدالة التامة وروح الحق الأعلى، وهو الذي يدين بسنة التدريج في تشريع أحكامه حسب الطرق"[90].

ويتضح من هذا الرأي أن "الطاهر الحداد" يسعى بفكره التحرري إلى إعادة صياغة الشريعة الإسلامية صياغة تتماشى ومتطلبات كل عصر بغية الوصول إلى تحقيق المساواة الكاملة للمرأة بالرجل، والمصادقة على كل مطالب الحرية والانطلاق، وهو ما عبر عنه أحد الدارسين بقوله أن "الطاهر الحداد" يطالب بقراءة الشريعة الإسلامية قراءة جديدة تتوافق مع متغيرات العصر"[91].

---

(85) قاسم أمين، تحرير المرأة، ص 3.

(86) زكي الميلاد، تجديد التفكير الديني في مسألة المرأة، ص 34.

(87) الطاهر الحداد، امرأتنا في الشريعة والمجتمع، ص 7.

(88) المرجع نفسه، ص 121.

(89) أحمد محمد سالم، المرأة في الفكر العربي الحديث، ص 121.

(90) الطاهر الحداد، امرأتنا في الشريعة والمجتمع، ص 36.

(91) أحمد محمد سالم، المرأة في الفكر العربي الحديث، ص 122.

إن الإشكالية التي أثارها "الطاهر الحداد" حول قضايا متعلقة بالمرأة مثل المهر، تعدد الزوجات,... إلى غير ذلك، دفعت ببعض الدارسين إلى اعتباره "من أجرأ الانتقادين الاجتماعيين النسويين بإطلاق، فقد تخطى صراحة "ابن خوجة" و"قاسم أمين" و"باجثة البادية" و"نظيرة زين الدين" ودفع دعاواه إلى حدود رأى بعض نقاده على أنها تخرجه صراحة من حظيرة الإسلام"[92]. فقد سعى إلى تجاوز تناقضانه بالدعوة إلى تغيير أحكام متعلقة بالمرأة بحجة أنها مما يشملها التغيير، كتغيير نظام الإرث، ومنع تعدد الزوجات,... الخ.

وحسبما يرى البعض فإن ذلك قد يقع وفقا لقانون التغيير الاجتماعي، وتبعا لضرورات التوفيق بين الشريعة الإسلامية والحاجات المعاصرة[93].

ولعلنا نلمس ذلك في قوله: "... فالإسلام لم يقرر نزول ميراث المرأة عن الرجل كأصل من أصوله التي لا يتخطاها..."[94]. وفي السياق نفسه يضيف "... ولا شيء يجعلنا نعتقد خلود هذه الحالة دون تغيير، على أننا نجد الإسلام نفسه قد تجاوز هذه الحالة التي وجدها أمامه في كثير من أحكامه اعتبارا بضرورة تبدلها مع الزمن، فقرر للمرأة حريتها المدنية في وجوه الاكتساب وتنمية المال بالتجارة وغيرها من التصرفات..."[95].

ومن جانب آخر فقد احتلت قضية تربية المرأة مكانتها البارزة في مشروعه التحرري حيث يؤمن بالدور الفعال للعلم في تربية المرأة، وينادي بضرورة رفع الحجر على المرأة وفك القيود التي لطالما كبّلت حريتها، وإذا كان "الطهطاوي" يدعو إلى تأصيل نقيصتي الجبن والضعف والانكسار في المرأة فإن "الحداد" على العكس من ذلك بدليل قوله: "لا رجاء لنا في تربية المرأة تربية تسجل لنا النصر في الحياة ما لم يزل من أعماقنا احتقارهاواعتبارها خلقا ناقصا لا يقدر من نفسه أن يؤدي واجبه...، وإنما الرجل من المرأة وفي أحضانها ينمو ويعيش"[96].

وعلى اعتدال آراء الليبرالي التونسي "الطاهر الحداد" مرة وتطرفها مرات، فإنها لاقت ردا سريعا شديد القسوة تجلى في كتاب "الحداد على المرأة الحَدَّاد" للشيخ "محمد صالح بن مراد" أحد علماء جامع الزيتونة سنة 1931م[97]. وعلى الرغم من النقد الموجه له إلا أنه ينتصف للمرأة من خلال ربطه نهضة المجتمع بتحرير المرأة وانطلاقها.

([92]) زكي الميلاد، تجديد التفكير الديني في مسألة المرأة، ص 22.

([93]) المرجع نفسه، ص 22.

([94]) الطاهر الحداد، امرأتنا في الشريعة والمجتمع، ص 33.

([95]) المرجع نفسه، ص 34.

([96]) المرجع السابق، ص 238.

([97]) زكي الميلاد، تجديد التفكير الديني في مسألة المرأة، ص 22.

والشيء الملاحظ في كتابات هؤلاء المفكرين المتحررين أنها تنطلق دائما من المرجعية الإسلامية المحافظة أو من "منطلق السياق الديني"[98]. لكن سرعان ما تغير مسارها الفكري سالكة بذلك خط الانحراف في محاكاة التعاليم الإسلامية المحكمة والتي تعلنها في شكل ثورة على "التقاليد والعادات السيئة" والتحول من المحافظة إلى تأليف التحرر.

المطلب الثاني: الاتجاه العلماني

ومن بعد "قاسم أمين" انتقل مفهوم "حرية المرأة" من حرية من أجل الحصول على حقوقها إلى حرية من أجل التحلل والانطلاق السافر، واتخذ نموذجه الأول من محاكات الثقافة الأوروبية في شتى جوانبها، كأسهل سبيل إلى اللحاق بركب الحضارة من جهة، ومواكبة الثورة العلمية والتكنولوجية من جهة أخرى؛ ولا غرو فهذه هي "العلمانية"[99] التي تتخذ من شعار تحرير المرأة صداما مع قيم الشريعة الإسلامية وأحكامها.

وقد اهتم أقطاب التيار العلمي العلماني بقضية المرأة في العديد من مؤلفاتهم؛ فنجد "سلامة موسى" [1888-1958م] يدعو إلى تحرير المرأة، لكن تحرير المرأة يحتمل طائفة من المعاني، فهي تعني "تحريرها من الجهل بالتعليم، وتحريرها من التقاليد بإلغاء الحجاب ثم مساواتها بالرجال في الحقوق الدستورية والمدنية"[100]. وهي المطالب ذاتها التي ينادي بها دعاة تحرير المرأة في الغرب.

والعامل الأول لتحريرها يبرز في الاحتكاك بحضارة الغرب عن طريق الجاليات الغربية التي تقيم، أو كانت تقيم منذ أكثر من سبعين سنة في المدن الكبرى كالقاهرة والإسكندرية، تلك الجاليات التي أضفت بوجودها قيما وأهدافا جديدة أخذ بها المجتمع المصري متأثرا بسلوكها و سلوكياتها في الحياة[101].

ويأتي "سلامة موسى" ناقدا لكل أوضاع المرأة الشرقية، ثائرا على ركودها وتبلدها الناشئ عن عزلتها وسجنها الدائم في البيت. فنجده يقول: "إن المرأة المثلى في الشرق تخدر في البيت، وتعود خادرة أي مخدرة فلا تعمل، ولا تفهم للحياة هدفا، وأنها تحتاج إلى منهج، لأن هذا شأن الرجال وحدهم، أما هي فلها نعيم الراحة، وخلو

([98]) أحمد محمد سالم، المرأة في الفكر العربي الحديث، ص 78.

([99]) العلمانية هي "الاقتصار على العقل البشري وخبراته في إدراك الحقائق وتصريف شؤون الحياة".

* محمد إبراهيم مبروك، المرجع في العلمانية: حقيقة العلمانية والصراع بين العلمانيين والإسلاميين، مكتبة الإشعاع (الإسكندرية)، ط1(2002)، ج1، ص 10.

([100]) زكي الميلاد، تجديد التفكير الديني في مسألة المرأة، ص 35.

([101]) المرجع نفسه، ص 35-36.

البـال، ولكـن هـذه الراحـة، وهـذا البـال الخـالي همـا عمليـة الركـود الـذي ينتهـي إلـى التبلد..."[102].

وعلـى هـذا الأسـاس يـرى أن الفـرق بينهـا وبـين المـرأة الأوروبيـة لا يمكـن إلا فـي تفاوت درجات الحرية فقط؛ لأن المرأة الأوروبية ذاتها ـفي نظره- لم ترق بعد من الأنوثة إلى الإنسانية. لذا فهو يطالب بتكوين فلسفة خاصـة بنا عن المرأة المصرية، بحيث لا تنـشد مـساواتها بـالمرأة الأوروبيـة فقـط، بـل تتجـاوز ذلـك إلـى آفـاق إنـسانية رحبة، ولا شك أن هذا الأخير كفيل بحقوقها وواجباتها[103].

ومن واقع نظرته للمرأة، يرفض "سلامة موسـى" الحجـاب بكـل معانيـه، مقـررا أن حجابهـا بالـشكل المعهـود كانـت لـه أصـول أنثروبولوجيـة منـذ أقـدم العـصور، وجـذور تاريخية يعود إليها، وأنها لما قدمت لـه تبريـرات عـصرية سـرعان مـا تـزول بمـرور الزمن، يشكك "سلامة موسى" في الحجاب (باعتبـاره مـسيحيا قبطيـا)، ومـن ثـم تـدعو إلى الاختلاط والعزل؛ لأن الحجاب والعزل عنده يـؤدي إلـى الـشذوذ الجنـسي، بعكـس الاختلاط الذي يقي الجنسين معا، والمجتمع ككل من هذه الآفة[104].

إن آراء "سلامة موسى"، ومواقفه مـن الحجـاب والآداب الإسـلامية، تقـف صـراحة فـي وجـه الآداب الإسـلامية، والأوامـر الإلهيـة، حـين تقـول بعكـس مـا تفرضـه هـذه الأخيرة، وهو ما لا يقبله عقل عاقل.

ولم يكتف "سلامة موسى" بالدعوة إلـى إصـلاح حـال المـرأة، والتأكيد علـى أهميـة ارتقائها فحسب، بل طالب بضرورة تحقيق المساواة الكاملة بينها وبين الرجل فـي كـل شيء حتى الحقوق السياسية، مشيرا إلى منحها حق الانتخاب والترشح. ففي نظـره أن هذا مما يزيد من إنسانيتها ويجعلها تشارك بصورة أفضل في الحياة العامة[105].

ولا يبتعد "سلامة موسى" في كل محطاته عن إرساء نظرته المتطرفة المسرفة في منح الحقوق للمرأة، ونلمس هذا فـي رأي أحد البـاحثين، إذ يقـول: "ومـن الواضـح أن سلامة موسى كان نصيرا لعمل المرأة إلى أقصى مدى ممكن لأن هذا يعطـي المـرأة الكثيـر مـن الحقـوق، وينـضج شخـصيتها، ويجعلهـا أكثـر وعيـا بـأمور الحيـاة وتطـور المجتمع"[106].

أما "إسماعيل مظهر" [1891-1962] أحد أقطاب التيار العلمي العلمـاني فيـرفض النظر إلى مشكلة المرأة في ضـوء التقاليد الباليـة التـي تزيـدها تعقيدا أو تحكم العقليـة المتأثرة بتقاليد موروثة، وهو ما يردهـا حتمـا إلـى التخلـف والجمـود، لـذا نجده يطالـب بـالتحرر مـن التقاليـد, ومـن الأفكـار العتيقـة التـي أصـابها الانحـلال والفساد، ومـن كـل

([102]) سلامة موسى، المرأة ليست لعبة في يد الرجل، ص 55/ نقلا عن: أحمد محمد سالم، المرأة في الفكر العربي الحديث، ص 122.

([103]) المرجع نفسه، ص 122-123.

([104]) المرجع نفسه، ص 206.

([105]) المرجع نفسه، ص 354-355-359.

([106]) المرجع السابق، ص 390-391.

الآثار الموروثة عن أزمان خالية[107]. فلا ريب أن حضور التقاليد الميتة في ثنايا السلوك اليومي والحياتي للمرأة يسبب تأخرا شنيعا في حياتها وركودا في فكرها.

انطلاقا من ذلك يبرز "إسماعيل مظهر" أهمية التجديد الذي هو مقدمة لإصلاح حال المرأة من الجمود، ويظهر ذلك في ترويجه لمقولة التطور، حين يرى أن التطور هو الروح السائدة في حياتنا، فيقول: "إن العقل قد انفلت من أقطار تلك العقلية القديمة، وإن خطى التطور التي ساقت أمامها حتى الجمادات قد ساقت معها الأحياء أيضا، فغيرت من آدابهم وآرائهم، وأنها انتقلت بالإنسان من الأفق المتوحش البغيض إلى أفق النور والعرفان"[108].

وقد كان لقضية المرأة في فكر "إسماعيل مظهر" حيزا واسعا، ورغم إعجابه باهتمام الغرب بها إلا أنه انتقد بعض الفلاسفة ممن ينظرون إليها على أنها ملهاة، أمثال، روسوو نيتشه....، وغيرهم.

و"إسماعيل مظهر" يشبه في موقفه من حجاب المرأة "سلامة موسى"، إذ يشكك هو أيضا في الحجاب، ولكن من خلال القول بتاريخية نصوص القرآن التي تأمر بالحجاب، ومن ثم يرى أن الحياة قد تطورت، وانقلبت أوضاعها، وهو ما يجعل حجاب المرأة -بمعنى سجنها في البيت- حائلا دون التوفيق بين حاجات الحياة الآن، يقول أحمد محمد سالم "ولهذا فمن الصعب أن نوفق بين الحض على الوقر في المنزل وبين حاجات العصر، وعلينا أن نفسر الآية تفسيرا عصريا، تتوافق مع ضرورات العصر مثل تعليم البنات... الخ من المتطلبات التي تستلزم الخروج من المنزل"[109].

ويؤكد البعض أن "إسماعيل مظهر" حاول وضع آيات الحجاب في سياقها التاريخي ليثبت الآية القرآنية بوقائع تاريخية معينة، فينتهي إلى القول بأنه: "على الرغم من نزول آيات تخص الحجاب، إلا أن هذه الآيات

تخص واقعا تاريخيا معينا، ولا ينبغي أن نتعداه، وبالتالي يصبح من الممكن تغيير عادة الحجاب بناء على تاريخية الآيات القرآنية المقيدة بأسباب النزول"[110].

وفي قضية حقوق المرأة، يسعى "إسماعيل مظهر" إلى تجاوز التشريع الإسلامي من خلال اعتقاده تغيير أحكامه طالما دعت الظروف لذلك، كالدعوة إلى رفع المرأة إلى منزلة المساواة بالرجل في جميع الحقوق المدنية والسياسية، في الميراث وقبول الشهادة، في العمل والاستقلال الفكري والاقتصادي... وفي كل ما يكمل لها إنسانيتها[111].

([107]) إسماعيل مظهر، المرأة في عصر الديموقراطية، ص 100/ نقلا عن المرجع نفسه، ص 67-68.

([108]) المرجع نفسه، ص 75.

([109]) أحمد محمد سالم، المرأة في الفكر العربي الحديث، ص 207-208.

([110]) المرجع السابق، ص 209.

([111]) المرجع نفسه، ص 356.

ومن جانب آخر نجده يدافع عن حقوق المرأة السياسية، شأنه في ذلك الشأن "سلامة موسى" والأمر سيان في قضية عمل المرأة، فقد وجدت المرأة في أعمال العلمانيين "سلامة موسى" و"اسماعيل مظهر" مؤيدين لعملها، وفي ذلك يقول أحمد محمد سالم: "... يدافعان عن عملها بمنطق العقل، وبمنطق التطور المادي التقني المعاصر، وذلك من أجل أن تكون المرأة إنسانا حرا شاعرا له كيانه الإنساني، وليس مجرد متعة للرجل..."[112].

([112]) المرجع نفسه، ص 392.

المبحث الثالث: قضية المرأة في الفكر الإسلامي .

شغلت قضية المرأة في الفكر الإسلامي حيزا مهما، فتعددت حولها الآراء واختلفت الاتجاهات، وذهب فيها المفكرون مذاهب شتى، ظلت كلها تصب في مصب الإصلاح، مما يستوقفنا عند استجلاء مفهوم الإصلاح، والاتجاه الإصلاحي المقصود في هذا المبحث.

المطلب الأول: مفهوم الإصلاح.

يأتي "الإصلاح" في اللغة, على معنى: إحداث تغيير في الشكل أو الحالة، أو وقف خلل، أو إدخال أسلوب عمل أفضل. وهو يعني عندما يصبح علما، الأفكار والبرامج والحركات التي استهدفت إحداث تغيير في شكل السلطة، وتغيير في وضع المجتمع، ووقف الخلل فيه، وإصلاح ما فيه من مفاسد. والإصلاحية هي كل سياسة أو فكرة معينة بذلك(113).

وقد عرف البعض "الإصلاح" فقال: "هو وعي ويقظة في العالم العربي على أيدي بعض زعمائه المصلحين الذين عايشوا أوضاع شعبهم، فاحتكوا بهم، وشعروا بآلامهم، وأدركوا الأخطار المحيطة بهم، وفكروا بعمق في أسباب الداء ووصف الدواء"(114).

من هذا المفهوم نخلص إلى أن الاتجاه الإصلاحي المقصود هنا هو كل الجهود المبذولة من طرف بعض المفكرين و زعماء الإصلاح والحركات الإصلاحية, التي تستهدف تغيير أوضاع المرأة في الأمة الإسلامية بغرض الإصلاح من حالها, والارتقاء بأدوارها ومسؤولياتها نحو الأفضل.

المطلب الثاني: أهم رواد الإصلاح في العصر الحديث.

1)جمال الدين الأفغاني(*): (1838 -1897م)

مثل "جمال الدين الأفغاني" واحدا من زعماء الإصلاح في عصره ومن مجالات الإصلاح التي خاضها إصلاحه أوضاع المرأة.

ينظر "الأفغاني" إلى المرأة نظرة تقدير واحترام من خلال آرائه في قضاياها؛ فقد كانت بعيدة عن التطرف والغلو من ذلك ما يقرره في حجابها حيث يرى أنه لا مانع في السفور إذا لم يتخذ مطية للفجور. الرأي الذي

---

(113) الموسوعة الفلسفية العربية، مج2, القسم الأول، ص 131 / نقلا عن منى حسين الدسوقي, الشيخ مصطفى الغلاييني في مفاهيمه الإصلاحية, ص69.

(114) منى حسين الدسوقي، الشيخ مصطفى الغلاييني في مفاهيمه الإصلاحية، ص 71.

(*) فيلسوف الإسلام في عصره، نشأ في كابل، جال في الشرق والغرب، دعا إلى الوحدة الإسلامية. له "إبطال مذهب الدهرين"، أصدر ومحمد عبده مجلة "العروة الوثقى" في باريس 1884م.

- أنظر: المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق (بيروت)، ط17(1991م)، ص 57.

نفهمه من قوله: "... أما رفع الحجاب فما رأيت لمن قال بلزومه، وخطب فيه أو كتب، انه ذكر أقل نفع له، أو فائدة تأتي من ذاته أو من ورائه، والذي أراه أن الحجاب ستار، إذا رفع طفرة أو فجأة إنما يظهر الغالب من
تحته شناعات الخلاعة والتبرج، واستهوان الفجور، وعدم المبالاة بالرقابة العامة، ولو اقتصر النساء على الاكتفاء بالسفور, ولم يتخذ كما قلنا، مطية للفجور، لما كان في الأمر ما يحتاج لأخذ ورد، ولكن إذا رأينا للسفور متممات لا تتم إلا في خارج البيت فهناك الطامة وفواجع الطفرة واختلال التوازن..."[115].

نستشف من هذا النص أن "الأفغاني لا يستشكل قضية حجاب المرأة ولباسها كثيرا لأنه يؤثر رؤية المرأة معززة مكرمة في بيتها بعيدة عن الأنظار، وأما فيما يخص قضية "التكوين" فيستحيل في نظره أن تستوي المرأة مع الرجل لأنه يفضل بقاء المرأة على تكوينها الفطري الذي هيأه لها الله سبحانه وتعالى وانفراد الرجل بمهام موكلة له.

ومما سبق يظهر تقديس "الأفغاني" لعمل المرأة داخل بيتها كربة بيت ومربية أجيال وصانعة رجال لأنه يفاضل بين هذه المسؤولية العظيمة الشأن ومسؤولية الرجل مهما عظمت وجلت إذ يرى: "أن عمل المرأة، وواجباتها في بيتها نحو زوجها وأولادها، أهم بكثير من صناعة الرجل مهما رقت وعظمت وجل نفعها، وأن أكثر فاضلة من النساء، إن هي قامت ببعض واجبات المنزل، وتدبيره وحسن تربية الطفل تكون قد رجحت على أكبر الرجال علما وعملا"[116]؛لأن -في نظره- ليس غير المرأة من يستطيع تقديم رجال للمجتمع، فهو يعتقد بالاختلاف الوظيفي بين الرجل والمرأة اختلافا كبيرا رادا بذلك على دعاة المساواة بين الرجل والمرأة في كل شيء حين يرى في الوظيفة المنوطة بالمرأة أسمى من كل ما تتوهمه في الرجل من مهن وصنائع على خلاف ما إذا تساوت مع الرجل في اختصاصه فإنها تنزل عن تلك المرتبة، وبذا يرى "الأفغاني" أن في اختلاف الزوجين الذكر والأنثى حكمة شاءها الله تعالى، وبالتالي فإن تبادل النوعين بمزيتين خروج عن حكمة الفطرة ومغالبة للطبيعة وما يعزز مكانة المرأة عند "الأفغاني" قوله: "قوة المرأة في ضعفها وفضل الرجل في قوته، وأن يكون تجاه المرأة ضعيفا"[117].

2) <u>محمد عبده</u>[*]: (1849-1905م)

([115]) محمد إبراهيم مبروك، المرجع في العلمانية، حقيقة العلمانية والصراع بين الإسلاميين والعلمانيين، ج2، ص 33.

([116]) المرجع نفسه، ص 33.

([117]) المرجع نفسه، ص 33-34.

([*]) سياسي مصري، من علماء المسلمين الداعية إلى التجديد والإصلاح، تلميذ الأزهر، حرر جريدة (الوقائع المصرية)، ناوأ الإنجليز فنفي، أصدر في باريس مع جمال الدين الأفغاني "جريدة العروة الوثقى" ثم عاد إلى بيروت

أما "محمد عبده" فإن آراءه و مواقفه في قضية المرأة لا تختلف عنها عند "الأفغاني" لكنها تعوزها الصراحة والحسم الغالبين على فكر "الأفغاني".
وقد كانت آراؤه في معظمها ذات مقصد إصلاحي بعيد إلا أنها في الغالب كانت تصلح سلاحا لطعن الإسلام به، "فهو مثلا برغم حرصه على نبذ أي عصبية غير العصبية الإسلامية نجده يكتب في تمجيد الوطنية بهدف تحريض المصريين ضد الإنجليز فليأخذ العلمانيون ما كتبه مادة صالحة للاستناد إليها في ترسيخ التربية، وهو يدافع عن حرية المرأة الشرقية بدافع مشاركة النساء للرجال في النهضة العلمية والأخذ بأسباب الحضارة فيجد العلمانيون في كتاباته مادة صالحة للغاية في تسويغ الانحلال والفساد بين الرجال والنساء"[118].

ويبدو أن الإمام "محمد عبده" كانت له آراء إصلاحية تجديدية تحت منحى غير ذلك الذي كان سائدا صاغها صياغة نهضوية تحمل بوادر تحرير المرأة وتدعو إلى مشاركتها في ركب الحضارة فتبلورت دعوته الإصلاحية النهضوية في منهجه الذي كان ينبغي به تغيير الواقع المصري.

3) <u>محمد رشيد رضا</u>[*]: (1865-1935م)

والمتأمل في رؤية "رشيد رضا" في قضية المرأة يلمح اهتمامها بها من حيث دورها التربوي الذي تضطلع به، فكان للتربية مكانها البارز في منهجه الإصلاحي، فقد انتهج خطا إصلاحيا جمع بينه وبين شيخه "محمد عبده" في الجانب التربوي، في حين كانت له مواقف أخرى من مسألة تحررها وتعليما عصريا كان قد تفرد بها عن غيره من معاصريه، فرحب بكل الكتابات المذكرة بعمل الإسلام في مجال "تحرير المرأة" فسخر مجلة المنار للتعريف بها وتحليل معانيها ومؤازرة أصحابها لا سيما أن أهمها صدر من أحد أصدقائه المقربين من الذين تتلمذوا على أستاذيه "الأفغاني" و"محمد عبده"، وهو قاسم أمين نفسه في كتاب "تحرير المرأة""[119].

وضمن هذا الإطار ظهر "محمد رضا" مناصرا لحركة تحرير المرأة كما فهمها "قاسم أمين"، وشيخه "محمد عبده" في مرحلة أولى، فكأن بهذه الوجهة الفكرية

فاشتغل بالتدريس والتأليف، مفتي الديار المصرية 1899م من مؤلفاته "رسالة التوحيد"، "شرح مقامات بديع الهمذاني"، شرح نهج البلاغة"، "تفسير القرآن ومجموع مقالات".
- أنظر: معجم الأعلام، ص 369.

([118]) محمد إبراهيم مبروك، المرجع في العلمانية، حقيقة العلمانية والصراع بين الإسلاميين والعلمانيين، ج2، ص 33.

([*]) ولد في القلمون (لبنان)، عالم من علماء المسلمين، صاحب مجلة "المنار" بالقاهرة وتلميذ الشيخ "محمد عبده"، أشهر آثاره "مجلة المنار" و"تفسير القرآن الكريم" المعروف بتفسير المنار.
- أنظر: المنجد في الأعلام، ص 264.

([119]) محمد صالح المراكشي، تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار، ص 344.

المفكر الاجتماعي التقدمي الذي يطالب بتربية المرأة تربية عصرية تجعلها مساوية للرجل في الحقوق والواجبات... وظل اتفاقهما مبدئيا إذ سرعان ما أثبته الخلاف بينهما بعد صدور كتاب أمين الثاني "المرأة الجديدة". ومن هنا تأكد الخلاف بين الرجلين في قضية تحرير المرأة وطرق تعليمها وتربيتها[120].

وبتلك الوجهة انطلق "رشيد رضا" يهاجم تعليم المرأة تعليما عصريا يشبه التربية الاستقلالية بالنسبة إلى المرأة الأوروبية، ومبينا في الوقت نفسه طريق التربية الإسلامية للمرأة المسلمة ووجوب تعليمها.

وقد قاوم "رشيد رضا" كل دعوات تحرير المرأة الزائفة، وكل ما يرمي إلى تقليد المرأة الأوروبية وإلى جانب اهتمامه بقضية تحرير المرأة وبيان الوجه الصحيح منها، اهتم بمسألة حساسة متعلقة بمساواة المرأة بالرجل من حيث الحقوق والواجبات في الحياة المدنية العامة.

وقد توج "رشيد رضا" أعماله المتعلقة بالمرأة بكتابه "حقوق النساء في الإسلام" سنة 1930م، الذي رأى فيه البعض أكثر تقدما وتطورا من عشرات الكتابات الصادرة لعبده "فقد قدم رؤية إسلامية، كان من الممكن لها أن تساهم في تفكيك بعض الإشكاليات الذهنية والاجتماعية، وتدفع بتأسيسات فكرية وفقهية على نسق متقدم في أكثر المجالات حساسية، وهي المجالات التي تتصل بمشاركة المرأة في المجالات العامة الاجتماعية والسياسية، التي تحدث عنها في الصفحات الأولى من كتابه: "بعيدا عن ذهنية السجال النقدي والاجتماعي"[121].

وليس أدل على هذا القول من تفسيرات نقرؤها "لرشيد رضا" حول بعض الآيات المرتبطة بالإشكال، حيث يرى أن مشاركة النساء للرجال في الشعائر الدينية والأعمال الاجتماعية كصلاة الجماعة والجمعة والعيدين وعبادة الحج وكذا السياسة... أمر تضمنته النصوص القطعية من القرآن والسنة، ويستشهد على ذلك بالآية الكريمة: **﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾**[122].

فقد فسر الآية الكريمة مظهرا الوجه الصحيح منها مبينا أن الله تعالى أثبت الولاية المطلقة للمؤمنات مع المؤمنين بما فيها ولاية الأخوة والمودة والتعاون المالي

([120]) المرجع نفسه، ص 345..347.

([121]) زكي الميلاد، تجديد الفكر الديني في مسألة المرأة، ص 59.

([122]) سورة التوبة: الآية 71.

والاجتماعي...، وحول أمر المرأة بالمعروف ونهيها عن المنكر يعتقد "رشيد رضا" أنه فرض من الله تعالى على النساء كالرجال...[123].

فالملاحظ أن "رشيد رضا" ينطلق من أوضاع مجتمعه محاولا إحداث إصلاحات على أوضاع المرأة المسلمة محتكما فيذلك كله إلى النص القرآني، لكنه اختط لنفسه مسارا اتخذ طابعا إصلاحيا اجتهاديا.

4) عبد الحميد بن باديس[*]: (1889-1940م)

لقد ظلت قضية تعليم المرأة تشكل محورا أساسيا تدور عليه جل أفكار "عبد الحميد بن باديس" في موضوع المرأة، فقد كان حريصا شديد الحرص على تعليمها وتنوير عقلها، على أن يتم هذا التعليم في دائرة المثل
الدينية، والقومية، والأخلاق، بحيث لا يجعل منها نصف رجل، ولا نصف امرأة – على حد قوله- فقد كتب في مجلة الشهاب تحت عنوان "المرأة" شارحا وظيفتها في الحياة وهي "النسل، وتربية الإنسان في أضعف أطواره، وحمله وفصاله ثلاثون شهرا، ... فهي ربة البيت وراعيته والمضطرة بمقتضى هذه الخلقة للقيام به، فعلينا أن نعلمها كل ما تحتاج إليه للقيام بوظيفتها، وتربيتها على الأخلاق النسوية التي تكون بها المرأة امرأة لا نصف رجل، ولا نصف امرأة، فالتي تلد لنا رجلا يطير من خير من التي تطير بنفسها"[124].

فقد كان "ابن باديس" في مسعاه الإصلاحي يركز على شرح الطريق المؤدي إلى تربية المرأة الجزائرية بالذات فيراه في التعليم، تعليم البنات تعليما دينيا يناسب خلقهن ودينهن وقوميتهن، وله في ذلك وجهة نظره الخاصة به حين يرى بأن الجاهلة التي تلد أبناء للأمة يعرفونها، خير من العالمة (في إشارة إلى الفتيات المتعلمات في المدارس الفرنسية) التي تلد للجزائر أبناء لا يعرفونها، وهو هنا يثمن قيمة التعليم الديني الذي يحفظ للأمة دينها وأصالتها وتاريخها القائم أساسا على الأخلاق النسوية الحميدة ويحارب المدرسة الفرنسية التي كانت تعمل لاستقطاب الفتيات الجزائريات وسلخهن عن دينهن ومجتمعهن.

ومما لا ريب فيه أن أفكار الشيخ "ابن باديس" في قضية تعليم المرأة راجعة إلى الأوضاع والظروف التي كان يعانيها الشعب الجزائري عامة والمرأة الجزائرية خاصة والتي كانت إما أنها محرومة من التعليم، بحيث لا تعرف قراءة ولا كتابة،

---

(123) محمد رشيد رضا، حقوق النساء في الإسلام، ص 13-14/ نقلا عن: زكي الميلاد، المرجع نفسه، ص 59-60.

(*) عالم جزائري من رواد الإصلاح والنهضة الجزائرية الحديثة، ومن كبار المجاهدين في سبيل استقلال بلاده، ولد في قسنطينة، أتم دراسته في جامعة الزيتونة بتونس، أصدر مجلة "الشهاب"، منبرا لأفكاره الإصلاحية والاجتماعية ومبادئه الاستقلالية وتعليمه الديني، يعتبر رائد الفكر الإسلامي المعاصر في الجزائر.

- أنظر: المنجد في الأعلام، ص 5.

(124) تركي رابح عمامرة، الشيخ عبد الحميد بن باديس؛ رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار (الجزائر)، ط5(1422هـ-2001م)، ص 498.

وإما أنها متعلمة تعليما أجنبيا سطحيا يعمل على تحقير دينها وقوميتها وتقاليد أمتها حتى تتنكر لكل ذلك، وهو ما يأباه "عبد الحميد بن باديس" عن المرأة الجزائرية والمسلمة عامة، وبالتالي فإنه يفضل بقاء المرأة جاهلة على أن تتعلم تعليما يتنافى وتعاليم دينها وهو ما عمل الاحتلال الفرنسي جاهدا على ترسيخه وتدعيمه آنذاك[125].

وبذا يكون "عبد الحميد بن باديس" على حق فيما ذهب إليه في مسألة تعليم المرأة الجزائرية في عصره، لأن الاستعمار الفرنسي كان يسعى لفرنسة الجزائريين ومن بينها تعليم طائفة من أبناء وبنات الجزائر تعليما مشوها يجعل منهم ومنهن آلة في يده لفرنسة الجزائر، يقول الشيخ "ابن باديس" في مسألة تعليم المرأة الجزائرية تعليما قوميا مظهرا أثر ذلك في الأسرة وتكوين الرجال وهو بصدد الترجمة لحياة المرحوم "محمد رشيد رضا": "البيت هو المدرسة الأولى، والمصنع الأصلي لتكوين الرجال، وتدين الأم هو أساس حفظ الدين والخلق، والضعف

الذي نجده من ناحيتهما في رجالنا،معظمه نشأ من عدم التربية الإسلامية في البيوت، بسبب جهل الأمهات، وقلة تدينهن"[126].

وعليه يظهر جليا أن الشيخ "ابن باديس"، كان واعيا جدا بأوضاع عصره، فترتبت عنها فلسفته في قضية تعليم المرأة، فالمرأة مثل الرجل لها كل الحق في التعليم والثقافة إلى أقصى ما تستطيع الوصول إليه، فهو ليس من أنصار تعليمها. أي تعليم مهما كان نوعه وإنما هو يدعو إلى تعليمها إلى أقصى ما تسمح به مواهبها، وإمكانياتها العقلية والذهنية ولكن في دائرة الدين واللغة والأخلاق النسوية الفاضلة والقومية الجزائرية لتكون زوجة صالحة ومربية للأجيال[127].

5) <u>عباس محمود العقاد</u>[*]: (1889-1964م)

وحين نقرأ لصاحب العبقريات والكتابات الإسلامية "عباس محمود العقاد" رجل الفكر والأدب، فإن لقضية المرأة في فكره بعدا خاصا، ووجهة نظر في مصاف الفكر الذكوري المتطرف تنم عن "تكوين نفسي شديد التعقيد"[128]، لذا فقد عده البعض

([125]) المرجع نفسه, ص 498.

([126]) المرجع السابق، ص 500.

([127]) المرجع نفسه، ص 500.

([*]) شاعر مجدد، ناقد، صحافي مصري، ولد بأسوان، اشترك مع المازني في نقد أنصار الشعر القديم، أكثر مؤلفاته مجموعات شعرية منها "ديوان شعر"، "وحي الأربعين"، وله سلسلة "سير أعلام الإسلام"، "عبقرية محمد"، "عبقرية عمر".

– أنظر:المنجد في اللغة والأعلام, ص376.

([128]) أحمد محمد سالم، المرأة في الفكر العربي الحديث، ص 55.

الممثل البـارز للنزعـة الذكوريـة فـي المرحلـة المعاصـرة، لكونـه قد قـدم فـي كتاباتـه المستفيضة ما يسمى "التفكير الذكوري لصورة المرأة"[129].
حين يرى أن المرأة لا يمكن بحال من الأحوال أن ترتقي إلى مستوى الرجل، إذ هو من الدرجة الأولى، أما هي فإنها مخلوقة من الدرجة الثانيـة، ولا شك أن كتابـه عن المرأة "الإنسان الثاني" خير دليل لهذا التصنيف.
و"العقاد" بنظراته المتدنية للمرأة، يكرس سيطرة الرجل على المرأة واستبداده بها، إذ يرى أنها تابعة للرجل، وأن استبداده بها يعتبر أثر من آثار تفوقه.
إنه يرى أن المرأة "إنما خلقت في الكفاية، والقدرة بفعل الرجل، ونتيجة لأثرته واستبداده، وتسخير المرأة في خدمة مطالبه وأهوائـه، فإن هذا القول يثبت رجحان الرجل ولا ينفيه، فما كان للرجال جملة أن يسخروا النساء جملة في جميع العصور، وجميع الأمم لولا رجحانهم عليهن، وزيادتهم بالمزية التي يستطيع بها التسخير، ولو كان مزية القوة البدنية دون غيرها"[130].

وانطلاقا من هذه النظرة المتدنية، يتحدث "العقاد" عن تفوق الرجل على المرأة فيحصره في ثلاثة مبادئ طبعت كتابات كلها[131].
* إن الرجل سابق على المرأة في الخلق وفي المكانة والدرجة.
* إن الفـرق بـين الجنـسين فـرق طبيعـي وبيولـوجي لا دور للتـاريخ ولا للظـروف الاجتماعية فيه.
* أن الرجـل متفـوق علـى المـرأة فـي كـل الميـادين: الطهـي، تـصميم الأزيـاء، القـدرة البدنية, القدرة الذهنية.
وتبرز تلك النظـرة أيضا حين يتكلم "العقاد" عن العبقريـة والشخصية الإنسانية حيث يقصر حديثه –إذا استثنينا النماذج والشخصيات التي خصها بالإعجاب كالسيدة فاطمـة الزهـراء، والـصديقة بنـت الـصديق- علـى الرجـل، ويتجـاوز ذلـك إلـى القـول صراحة بتفضيله الرجل على المرأة[132].
وقد ألف "العقاد" كتابه "المرأة في القرآن" سنة 1950م، وقد بلغ من النـضج ومن الخبرة العلمية درجة لم يدانه فيها كثير، وقد ساق منه الشواهد على آرائه المدونـة في أول الـشباب ومنتـصف العمـر واسـتهل الكتـاب معنونـا فصله الأول: "للرجـال علـيهن

([129]) علي أفرفار، صورة المرأة بين المنظور الديني والشعبي والعلماني، دار الطليعة (بيروت)، ط1(1996م)، ص 93.
([130]) عباس محمود العقاد، المرأة في القرآن، ص 6/ نقلا عن : أحمد محمد سالم، المرأة في الفكر العربي الحديث، ص 55.
([131]) علي أفرفار، صورة المراة بين المنظور الديني والشعبي والعلماني، ص 95.
([132]) نعمات أحمد فؤاد، الجمال والحرية والشخصية الإنسانية في أدب العقاد، دار المعارف (القاهرة)، ط(1983م)، ص 109.

درجة" مشير إلى الآية الكريمة: **﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾**(133)، وهو ما يوحي منذ البدء بتفضيل الرجل على المرأة مما يتنافى والقول بالمساواة المطلقة كما ينادي به البعض بين الحين والآخر(134).

والمتأمل في مؤلفات "العقاد" لا يفوته أن يسجل تناقضه في قضية المرأة حيث ينصفها حينا وهذا ما يظهر في إعجابه بنماذج من تاريخ المرأة، ويثبت دونيتها عن الرجل أحيانا كثيرة مسجلا بذلك اسمه في قائمة الاتجاه الذكوري.

6) الشيخ إبراهيم بيوض: (1899-1981م)

يعتبر الشيخ "بيوض" قضية المرأة من أعوص القضايا التي واجهت المجتمع البشري عبر تاريخه الطويل ويرتبها مباشرة بعد قضية العقيدة، يقول بهذا الصدد: "والمرأة هي أكبر مشاكل الإنسان، وهي مشكلة المشاكل التي مرضت الإنسانية بسببها، ولا تزال، ولعله أكبر مرض بعد مرض العقيدة"(135).

ويستقي الشيخ "بيوض" آراءه في قضية المرأة من مصدرين اثنين أولهما الوحي (القرآن والسنة) وثانيهما عصر الخلافة الراشدة باعتباره العصر الذي ينبغي أن يقاس به حاضر المسلمين؛ لأنه العصر الذي كانت فيه قضية المرأة أكثر تناولا(136).

ونراه في قضية عمل المرأة يقصر عمل المرأة على دورها الطبيعي الفطري، ولكي تؤدي المرأة دورها المنوط بها, يوصي "بيوض" بوجوب تلقينها الثقافة الصحيحة التي تؤهلها للنجاح في ذلك ولا ينكر مبدأ حق العمل للمرأة متى دعت إليه وضعيتها الاجتماعية أو اقتضته الظروف الخاصة للأمة مع ضرورة ألا يتعارض ذلك مع واجبها الأساسي وهو الواجب المقدس للمرأة، وبهذا الصدد يقول مقترحا: "إن بيوتنا لا تكاد تخلو من المناسج وآلات الطرز والخياطة لتشغيل النساء اللاتي يكتسبن المهارة، وتكوين البنات المتمرنات على مستوى كل أسرة؛ لأن من أوكد الواجبات عندنا أن يتولين بأنفسهن إنتاج ما تحتاجه الأسرة من أنواع الزرابي والسجاجيد والأكسية (...) ولكم أن تتصوروا ما توفره المرأة في الجانب الاقتصادي من حياة الأسرة"(137).

ينطلق الشيخ "بيوض" من واقع بيئته، البيئة الميزابية المحافظة على تقاليدها والمتكاتفة في علاقاتها ليؤسس نظرته إلى مهام المرأة التي تتلاءم ومهامها المنزلية وفي الوقت نفسه تساهم في الجانب الاقتصادي المعيش، لكنها تبقى نظرة قاصرة

---

(133) سورة البقرة: الآية 228.

(134) أحمد ماهر البقري، العقاد الرجل والقلم، دار المعارف (مصر)، ط2(1404هـ-1984م)، ص 249.

(135) إبراهيم بيوض، في رحاب القرآن، ص 111/ نقلا عن: نور الدين سكحال، الشيخ إبراهيم بيوض ومنهجه في الإصلاح، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية (قسنطينة)، رسالة ماجستير (1994م)، ص 180.

(136) المرجع السابق، ص 181.

(137) المرجع نفسه، ص 183.

ينفي فيها عن المرأة تطوير حياتها الثقافية والتعليمية والدينية ويحكم عليها بالإقصاء الثقافي والعلمي.

ومن القضايا التي ركز عليها الشيخ "بيوض" اهتمامه وأوضح حكم الإسلام فيها قضية لباس المرأة المسلمة فكان يعتقد أنه جزء من مشكلة المرأة. لا سيما وأنه شكل ثغرة ينفذ منها أعداء الإسلام من التغريبيين الداعين إلى سفور المرأة والمشنعين للباسها بوصفه دليلا على التخلف والرجعية في مقابل السفور الذي يعد مظهر التطور والتقدم، ويرجع مشكلة الزي إلى البعد عن المفاهيم الإسلامية التي ليس لها وزنا في تفكيرهم[138].

7) مالك بن نبي: (1905-1973م)

يعتبر المفكر الإسلامي الجزائري "مالك بن نبي" واحد من رواد الفكر الإسلامي في العصر الحديث، لما بذله من جهود حضارية واسعة تجلت في تشخيص مشكلات أمته ووضعها تحت المجهر، ثم تقريب الحلول والمقترحات الرامية إلى الإسهام في البناء الحضاري، فقد صاغ مشروعه الفكري, القائم أساسا على إبراز مشكلات يواجهها العالم الإسلامي، واضعا بذلك قائمة كتبه تحت عنوان "مشكلات الحضارة"، والتي من بينها قضية المرأة بوصفها "مشكلة" تقتضي حلا.

فقد وقف "ابن نبي" عند قضية المرأة التي تعرضت لكثير من التشويش، خصوصا مع اتخاذ أنموذج المرأة الغربية بديلا لأنموذج المرأة المسلمة، ولا شك أن الإقبال على فكر "مالك بن نبي" في القضية يحيل على المفاهيم التي ينطلق منها، والتي هي بمثابة المحددات الفكرية التي تنبني عليها قضية المرأة عنده والمتمثلة في[139]:

- مشكلة المرأة في مفهوم "مالك بن نبي" هي: مشكلة الفرد في المجتمع وبالتالي لا يمكن بحثها بمعزل عن مشكلة الرجل، إذ هما في حقيقتهما يشكلان مشكلة واحدة.
- يجب استبعاد أقاويل الشرق والغرب ذات الطابع العاطفي المحض أثناء طلب حلها.
- في حين يعتبر إجراء موازنة بين الرجل والمرأة افتئات على حقيقة الأمر ومحض افتراء.
- ويرى "ابن نبي" في أقاويل أدعياء التطرف تعبيرا عن نزعات جنسية لا شعورية.

يوضح "مالك بن نبي" هذه الحقيقة بالنظر إلى الدوافع النفسية العميقة لكلا الطرفين ويتفق في ذلك مع تحليل "فرويد" حين يرى "أنها جميعا تصدر عن شيء واحد هو دافع الغريزة الجنسية"[140]، غير أن "مالك بن نبي" يميز بين موقفين متقابلين من موقف المرأة: موقف المتمسكين بإبعاد المرأة عن المجتمع، وموقف الداعين إلى خروجها في صفة ملفتة للغرائز، وكلاهما يصدران عن دافع واحد هو "الغريزة"، ولا يمكن لهذين الموقفين حل مشكلة المرأة.

---

(138) المرجع نفسه، ص 184.

(139) مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر (دمشق)، ط4(1425هـ-2004م)، ص 123.

(140) المرجع السابق، ص 123.

وفي تقدير "مالك بن نبي" أن "دافع الغريزة" يعتبر عائقا إلى حد بعيد يحول دون حل مشكلة المرأة، وسبل الحل في نظره، تتكامل في عنصرين أساسيين[141]:

1- تصفية مشكلة المرأة من مثل تلك النزاعات.

2- ثم تحل حلا يكون الاعتبار الأول فيه لمصلحة المجتمع.

فعلى ضوء هذا يوضح "مالك بن نبي" أن القضية قضية مجتمع، فإعطاء المرأة حقوقا على حساب المجتمع يستلزم بالضرورة تدهور المجتمع، والنتيجة الطبيعية لذلك التدهور هو تدهور المرأة باعتبارها عضوا فيه[142].

ومن جانب آخر يتناول "ابن نبي" مشكلة المرأة في عمقها فيعتبر أنها "مشكلة إنسانية يتوقف على حلها تقدم المدنية..."[143].

ثم إنه في تحديده لمهمة المرأة في المجتمع يضع أولى خطى التصحيح التي يؤمن بها، وهي النظر إلى هذه المشكلة في ظل المشكلات الاجتماعية الأخرى، ضمن برنامج حضاري شامل متكامل.

أما عن موقفه من تقليد المرأة الأوروبية فإنه يعتقد أن مجرد الانتقال بالمرأة المسلمة من حالة امرأة متحجبة إلى حالة (امرأة سافرة) لن يحل المشكلة بل ربما زادها تعقيدا بعد أن كانت بسيطة، وهو الموقف السلبي الذي يضاعف حجم المشكلة، لأن حالة المرأة الأوروبية ليست بالتي يحسد عليها ولا بالتي ينبغي تقليدها، وأقصى ما يمكن قوله أنها "فقدت وظيفتها من حيث هي وسيلة لحفظ الأسرة وبقاء المجتمع"[144]. وفي هذا السياق يطالب

"ابن نبي" بالتخلص من نظرة الإعجاب التي ينظر بها أنصار تحرير المرأة في العالم الإسلامي إلى المرأة الغربية، فحالة التفريط السائدة في الغرب، تقابلها -بلا شك- حالة الإفراط الملاحظة في مجتمعات المسلمين، والحالة هاهنا تتأرجح بين تفريط وإفراط وهو ما قاد "ابن النبي" إلى صياغة قانون عام يحتكم إليه المجتمع في تحديد مهام المرأة، والمتراوحة بين شخصيتها كزوجة وأم، وشخصيتها كخادمة للمجتمع، -يقول فيه: "من الواجب أن توضع المرأة هنا وهناك حيث تؤدي دورها كخادمة للحضارة، وملهمة لذوق الجمال وروح الأخلاق، ذلك الدور الذي بعثها الله فيه أمًا وزوجة للرجل"[145].

وبفضل الوعي الحضاري لدى "مالك بن نبي" فإنه طمح إلى تخطيط حياة المرأة في المجتمع تخطيطا مفيدا من خلال اقتراحه عقد مؤتمر عام ينظر فيه بعين الاهتمام إلى جميع مهام المرأة، ويتجلى اقتراحه هذا حين يقول: "وهذا لو أن نساءنا عقدن

([141]) المرجع نفسه، ص 124.

([142]) مالك بن نبي، في مهب المعركة، دار الفكر المعاصر (بيروت، دمشق)، ط3(1420هـ-2000م)، ص 97.

([143])و(5) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 126.

([145])و(2) المرجع السابق، ص 127.

مؤتمرا عاما يحددن فيه مهمة المرأة لصالح المجتمع حتى لا تكون ضحية جهلها، وجهل الرجل بطبيعة دورها، فإن ذلك أجدى لنا من كلمات جوفاء ليس لها في منطق العلم مدلول"[146].

وما يمليه عقد هذا المؤتمر عند "ابن النبي" هو أن المرأة في العالم الإسلامي في تطور مستمر ولكنه تطور عشوائي لا يخضع للتخطيط الدقيق، فأوضاعها تتطور بطريقة غير مدروسة ولا مرسومة الأهداف، أي بمعزل عن أهداف البناء الحضاري للأمة[147].

وللوعي ذاته يتوفى "مالك بن نبي" استعمال مصطلح "تحرير المرأة" ويأتي بمصطلح آخر يستمد معناه من معاني الحضارة، وهو "الحضور" حين يرى أنه "مهما يكن عجزنا كبيرا عن تخطيط مراحل تطور الفتاة المسلمة، فإننا نحتاج عند أي تخطيط ألا نغفل بعض القضايا الجوهرية كقضية "الحضور" أعني حضور المرأة في المجتمع حضورا محسًّا بيِّنًا"[148].

ولا شك أن هذا الحضور المحس البين يعني الفاعلية، ويرتبط في مدلوله العام بمصطلح الشهود الحضاري للأمة المسلمة وشهود باق إلى يوم القيامة[149].

8) <u>زينب الغزالي</u>: (1917-2005م)

لقد حاولت "زينب الغزالي" أن تقدم فهما إسلاميا ناضجا، ومتجددا لقضايا المرأة، تتجه فيه إلى معالجة أوضاع المرأة بذهنية امرأة، فهي الأكثر وعيا بذاتها, وتفهما لمعضلاتها، والمرأة على وجه العموم –"هي الأقرب إلى تشخيص أحوالها ومعرفة كينونتها، وبالتالي الأقدر على فهم حاجاتها ومتطلباتها"[150].

وقد تراوحت آراؤها وكتاباتها بين ما هو نقدي إصلاحي، وما هو وعظي إرشادي، وفي أثناء نشاطها الدعوي وحركتها في العالم وإطلاعها على أوضاع المرأة المسلمة في شتى الأنحاء (السودان، الإمارات العربية، الجزائر، الأردن، الكويت، الهند، باكستان،...) ترصد واقعها فتقول: "المرأة المسلمة اليوم تعيش في غمرة من الغفلة، والمؤلم أنها تعتقد أنها ذروة اليقظة والوصول بالمطلوب بها ولها، ولكن عندما نبحث أحوالها مع ما وصلت إليه من التحصيل النظري والعملي من التعليم نجدها تقف في طريق مسدود، ضاعت فيه معانيها ومعالمها"[151].

---

(3)و(4) المرجع نفسه، ص 129.

([5]) أنظر موقع: إسلام أون لاين, إدريس الكنبوري, مالك بن نبي وقضية المرأة (سبق المؤتمرات الدولية ودعا إلى عقد مؤتمر المرأة المسلمة).

([150]) زكي الميلاد، تجديد التفكير الديني في مسألة المرأة، ص 80.

([151]) ابن الهاشمي، الداعية زينب الغزالي– مسيرة جهاد وحديث من الذكريات من خلال كتاباتها–، دار الصديقية (الجزائر)، ط(1409هـ–1988م)، ص 34.

وفي خضم هذا الواقع تتساءل "زينب الغزالي"، عن نهضة المرأة الحديثة وما قدمته لجيلها وأمتها، فترى فيها قضية خطيرة ليس فقط لأنها قضية تمس كل امرأة، ولكن لأنها قضية يتوقف عليها مستقبل جيل بأكمله...
ومن خلال مقالاتها، يرتفع صوتها مدويا، محذرا من الأخطار المحدقة بالمرأة المسلمة والأخطار الكبرى التي تنتظرها والتي ستواجهها.
فتنبه المرأة إلى كيد الصليبية وحقدها الدفين لإفساد عقيدتها وخلقها وحياتها للتحول بها إلى أداة لإفساد المجتمع كله.
وهي بذلك تركز على توجيه الحذر لأختها المسلمة من مصايد الصليبية والصهيونية اللتان اعتمدتا شتى السبل والأغراض للوصول إلى قلوب نساء الإسلام، وبلسان حال المرأة، تبصّر الداعية "زينب الغزالي" أختها بحقائق لا ينبغي أن تغيب عنها قائلة في أسلوب وعظي إرشادي: "والصليبية تحاربك كل يوم وتملأ حياتك – أيتها الأخت المسلمة- بالسموم والأشواك، وهي تلاحقك كل يوم لتسلبك دينك وتنزعه عنك وتستغل في ذلك وسائل الإعلام والأقلام الرخيصة الساقطة والأفكار الساذجة والمسلسلات والمسرحيات القبيحة وغير ذلك الكثير، فانتبهي أيتها الأخت المسلمة، واحذري كل ذلك وتصدي له..."[152].
وتستشف من مسيرتها أنها تطالب بدراسة قضية المرأة من داخل المنهج الإسلامي، كما تسعى إلى إيجاد فهم مستقيم في القضية، ففي نظرها لا وجود لقضية تدعى قضية المرأة أو حتى قضية الرجل، لأن المرأة والرجل حقيقة واحدة، ربط الخالق بينهما.
ومن هنا كانت "زينب الغزالي" ترى في موقف أولئك الذين يدَّعون أن المرأة قضية يدعون لها ويطالبون بإفراد رسالة إصلاح لها، لا يخلو من أمر ذا بال هو دعوتهم لإحياء عصبية عنصرية بإحداث انشطار في المجتمع بين الرجل والمرأة[153].

وهي تؤمن بأن المرأة تستطيع تقديم الأفضل من بيتها حين تقدم لأمتها جيلا صحيحا سليما وهو متوقف على وعيها بدورها وبرسالتها المنوطة بها كأم وكزوجة.
ومن هذه الزاوية تأبى على المرأة المسلمة الابتعاد عن دائرتها الفطرية التي تنسجم مع شخصيتها وأهميتها لبنات جنسها كالتعليم والطب، وترفض خوضها في كل مجال تقليدا للغرب الصليبي.
وبعيدا عن دور المرأة والزوجة والأم والتربية والرعاية، تقف "زينب الغزالي" على طريق الدعوة منوهة بعظم شأنه، مذكرة بالدور الغائب أو الحلقة المفقودة من الدور الرسالي للمرأة المسلمة.

9- <u>علي شريعتي</u>:

([152]) المرجع نفسه، ص 59.

([153]) المرجع نفسه، ص 27.

يظهر اهتمام "علي شريعتي" بقضية المرأة من خلال مؤلفه "مسؤولية المرأة" حيث يبحث فيه موضوع المرأة في التصور الإسلامي الشيعي، تناولها تحليلا ونقدا واقتراحا –ضمن رؤيته الشيعية– لجملة من القضايا والمسائل الخاصة بالمرأة، كقضية الحجاب وحرية المرأة...

يفصل "شريعتي" في قضية المرأة بين النظري والتطبيقي فيرى أن الحديث عن حقوق المرأة وشخصيتها في الدين الإسلامي شيء، في حين أن العمل به على أساس القيم التي يرى أن الإسلام يؤمن بها والحقوق التي يعترف بها، وتطبيق ذلك النظام الاجتماعي والحياة العامة شيء آخر مغاير تماما، فالبون شاسع جدا بين الكلام في الإسلام كنظرية والعمل به وتطبيقه كنظام حياتي[154].

والملاحظة التي نسجلها بهذا الصدد أنه غالبا ما يكتفي مسلمو العصر بطروحات نظرية بحثه، كالقول بأن الإسلام يؤمن إيمانا عميقا بحقوق المرأة، ومن الطبيعي أن الاستفادة المرجوة من هذه الحقوق والقيم تنتهي بانتهاء الحديث عنها، إذا لم تتحقق فعلا في حالة التطبيق العملي للمعلومات المكتسبة لذا يقترح الأخذ بعين الاعتبار بأي بحث نظري يطرح في الإسلام واستكماله بمقترحات عملية تصب في إطار تطبيقه في واقع الحياة[155].

وفي السياق نفسه، يعرض للتداخل الحاصل بين الدين والتقاليد ففي نظره أن التعصب كثيرا ما يكون سببا في الدفاع عن هذا المزيج المتداخل،من ذلك خلط المفاهيم الخاصة بقضايا المرأة المسلمة، والاحتكام إلى تقاليد بالية موروثة بدل تحكيم الشرع الإسلامي.

كما يتناول "علي شريعتي" مسألة المرأة من الرؤية الفرويدية ، معتقدا أن أول ضحية نحرت على عتبة معبد الفرويدية هي "القيم الإنسانية للمرأة"[156]، من منطلق قول البرجوازية بأن" الكل يجب أن يجعلوا من أنفسهم

ضحية لنبي البرجوازية "فرويد"، كونها (أي البرجوازية) "ذا نظرة منحطة ودنيئة لا تستشعر القيم الأخلاقية السامية، ولا تؤمن سوى بالقيم المادية التافهة"[157].

فقد استتبعت البرجوازية فكرة الحرية الجنسية التي رأت فيها المرأة تحطيما لجميع الأغلال التي كبلتها طويلا... فرحبت بها أيما ترحيب إلى أن دخلت برمتها في البحث العلمي ومع مجيء "فرويد" صاحب النزعة البرجوازية، وضع أسس المذهب العلمي الجنسي القائل بأصالة الجنس[158].

([154]) علي شريعتي، مسؤولية المرأة، ت.خليل الهنداوي، تحرير وتحقيق محمد حسين يزي، دار الأمير للثقافة والعلوم (بيروت)، ط1(1426هـ–2006م)، ص 7.

([155]) المرجع نفسه، ص 8.

([156]) المرجع نفسه، ص 21.

([157]) المرجع السابق، ص 19.

([158]) المرجع نفسه، ص 17..19.

ففي نظر "شريعتي" أن شعار تحرير المرأة الغربي فضلا عما يتضمنه من فساد، يسعى إلى تفتيت أواصر الأسرة ومن ثم المجتمع، ويتلخص ذلك في تركيزه على حرية المرأة وقيمها الإنسانية وبالتالي "أصالتها الفردية" فلا شك إذن أن البون شاسع بين الإسلام الذي يقول بأصالة الأسرة والغرب الداعي إلى الأصالة الفردية للمرأة: فالإسلام يرى في الزوجين نصفان يكمل أحدهما الآخر، في حين أن الغرب يراهما موجودان مستقلان يعيشان سوية تحت سقف الأسرة...[159].

10) <u>محمد حسين فضل الله:</u>

أما "محمد حسين فضل الله" فإن رؤيته إزاء مشكلة المرأة تنحو منحى نقديا لجذورها،ذلك أنه يرى أن الوعي ما زال مغيبا في هذه القضية حتى من ذوي المواقع الدينية، فإن اللبس ما زال يكتنف نظرتهم إلى إنسانية المرأة، فنجدهم يعاملونها بالقهر والقمع والتسلط أيضا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه يعتقد بوجود هوة كبيرة بين النظرية والتطبيق، وهو الرأي نفسه الذي قال به "شريعتي"، حيث يوجد أشخاص يحملون أفكارا نيرة وراقية، ولكن يعوزهم تجسيدها في سلوكاتهم، كما يجر المجتمع إلى مواجهة مشكلات معقدة[160]، حيث يقول: "أظن أن مجتمعنا بحاجة إلى التربية أكثر مما هو بحاجة إلى التثقيف، فيتعلم القيم والمنهج الإسلامي النقي فيما يتعلق بالمرأة"[161].

"محمد حسين فضل الله" يدرك أهمية التربية خصوصا إذا تعلقت بالمرأة لدورها الفعال في المجتمع، حين يفضل الجانب التربوي على الجانب التثقيفي، كما أنه يلح على ضرورة أن تمتلك النساء الوعي بدورهن من خلال مشاركتهن في الحياة الاجتماعية والسياسية.

بالإضافة إلى اعتقاد "محمد حسين فضل الله" بوجوب الاحتكام إلى منهج علمي موضوعي في دراسة الموضوعات المرتبطة بالمرأة، مثل بقية المسائل المتعلقة بالرجال وما شابهها، ويقصد بذلك فحص الأحاديث المتداولة، وتمحيصها بشكل دقيق والتثبت من صدورها عن النبي –صلى الله عليه وسلم- والتأكد من صحتها أو ضعفها[162].

ومن باب أولى فإنه ينبغي –حسب رأيه- دراسة الظروف التاريخية التي لاَبَسَتْ صُدُورَ النَّص الشرعي. من ذلك ما ينقل عن الإمام علي τ في نهج البلاغة من قوله: "إن النساء نواقص العقول، نواقص الحظوظ، نواقص الإيمان". فإنه يستبعد نسبة

---

(159) المرجع نفسه، ص 66-67.

(160)و(5) جميلة كديور، المرأة.. رؤية من وراء جدر، ت. سرمد الطائي، دار الفكر المعاصر (بيروت، دمشق)، ط(1422هـ-2001م)، ص 154.

(162) المرجع السابق، ص 155.

هذا القول إلى "الإمام علي" لأن كلا من هذه الكلمات يستند إلى مبرر خاضع للنقاش فنقصان الحظوظ مثلا يستند إلى أنه ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾[163]. والأمر بين في هذه الآية الكريمة، فحين ضاعف الله تعالى حظ الذكر على حظ الأنثى كان ذلك لحكمة مردُّها المسؤوليات الملقاة على عاتق الرجل. وعلى هذا الأساس لا يمكن تفسير موضوع الإرث بأنه نقصان في حظ المرأة، بل على العكس من ذلك حيث يعد في حالات معينة زيادة في حظها، حين يضطر الرجل إلى إنفاق كل نصيبه فيما تخصه من مسؤوليات، على حين لا يلزم المرأة أن تفعل ذلك...الخ[164].

وفيما يرتبط بتولي المرأة القضاء يشير "محمد حسين فضل الله" إلى أن الأسلوب المعاصر للقضاء طرأت عليه تغييرات وتعديلات كثيرة بالنظر إلى شكله السابق، ومن ثم لا يمكن قياسا تولي المرأة القضاء في الماضي عما هو عليه حالها اليوم، والمعيار الذي يتخذه مقياسا لحالة تولي المرأة الحكم أو القضاء هو ظروف الإدارة السياسية في عصرنا سواء بالنسبة للرجل أو المرأة، المختلفة جذريا عن النموذج القديم تماما.

11) الشيخ: يوسف القرضاوي: (1926م)

اهتم الشيخ "القرضاوي" كثيرا بقضية المرأة، وحدد منذ البدء في بحثه لها: وجوب بحثها بعيدا عن آفتي الغلو والتقصير اللتين غلبتا على حياتنا الفكرية، والوقوف في معالجة قضاياها موقف الوسط حيث اليسر والاعتدال، وهو ما أسماه القرآن الكريم بـ "الصراط المستقيم". فكان خطاب الشيخ "القرضاوي" في قضية المرأة يجسد موقف الوسطية الإسلامية البارز في حملته على غلو بعض الفئات الإسلامية وبعض الدعاة المسلمين في النظر إلى المرأة، كما نفهم هجومه على أولئك المقلدين من أتباع الحضارة الغربية الوافدة. ولعل ما يعبر عن هذا القلق هو قوله: "وقضية المرأة في مجتمعاتنا الإسلامية مثل بارز يجسد موقفي الغلو والتقصير، أو الإفراط والتفريط... فهناك المقصرون في حق المرأة الذين ينظرون إليها نظرة استهانة واستعلاء، فهي عندهم أحبولة الشيطان، وشبكة إبليس في الإغواء، والإضلال وناقصة العقل والدين (...) لقد حبسوها في البيت، فلا تخرج لعلم ولا عمل، ولا تساهم في أي نشاط نافع يخدم مجتمعنا مهما يكن نوعه، (...) وكثيرا ما استندوا في حبس المرأة إلى

متشابهات من النصوص، تاركين المحكمات البينات؛ وفي مقابل هؤلاء الذين فرطوا وقصروا في حق المرأة وجاروا عليها، نجد الآخرين الذين أفرطوا في شانها، وتجاوزوا حدود الله، وحدود الفطرة وحدود الفضيلة في أمرها، فإذا كان الأولون أسرى تقاليد شرقية موروثة، فهؤلاء أسرى تقاليد غربية وافدة"[165].

([163]) سورة النساء: الآية 11.

([164]) المرجع نفسه، ص 155-156.

([165]) عبد الحليم أبو شقة، تحرير المرأة في عصر الرسالة، دار القلم (الكويت), ط1(1410هـ 1990م) ص 9...14.

ولعل محور قلق الشيخ "القرضاوي" في قضية المرأة –على حد تعبير "زكي الميلاد"- هو "جدلية دورها الاجتماعي ومشاركتها في الوظائف العامة"[166].

وبهذا الصدد قام "القرضاوي" بدراسة عن جانب مهم من جوانب المرأة المسلمة المتعلق بنشاطها الاجتماعي، ودروها الفاعل في البعد الإنساني المتنوع والمتحرك المواقع، بما في ذلك "دورها في الصحوة الإسلامية المعاصرة" وكذا نشاطها في "العمل الإسلامي النسوي"، وهو أهم ما ميز وجهة نظره في القضية، فقد استطاع الشيخ "القرضاوي" بخبرته الواسعة حصر نقاط الخلاف حول قضايا المرأة في الخطاب الإسلامي وفي جدلية دورها الاجتماعي العام.

وقد حاول أن يقدم فهما إسلاميا صحيحا ومتجددا لقضايا المرأة بالعودة إلى ما اشتمل عليه الإسلام في فكره وشريعته من مبادئ وأحكام سمحة، تعيد للمرأة المسلمة كرامتها ودورها الفاعل ومركزها في الحياة الإسلامية.

ومن خلال هذه الرؤية يوجه "القرضاوي"نقده وتوجيهه للعمل الإسلامي النسوي. فعن وضع المرأة في الحركة الإسلامية يعترف الشيخ بقصور العمل النسائي على المستوى المنشود بالرغم من انتشار الدعوة في صف النساء ولا سيما الطالبات في الجامعات والثانويات وهو ما حال دون قيام قيادات إسلامية نسائية مؤهلة بكفاية واقتدار على مواجهة التيارات العلمانية والماركسية[167].

وفي ضوء هذا الضعف المسيطر على الحركة الإسلامية في جانب المرأة نجد "القرضاوي" يعزو أسبابه إلى:

1- **هيمنة الرجل:** حين يرى أن "مشكلة العمل الإسلامي النسوي، أن الرجال هم الذين يقودونه ويوجهونه، ويحرصون على أن يظل زمامه بأيديهم فلا يدعون فرصة للزهرات أن تتفتح، ولا للقيادات أن تبرز، لأنهم يفرضون أنفسهم فرضا، حتى على الاجتماعات النسوية، مستغلين حياء الفتيات المسلمات الملتزمات، فيكتمون أنفاسهن ولا يتيحون لهن قيادة أمورهن بأنفسهن فتبرز منهن مواهب يفرزها العمل وتصهرها الحركة، وتنضجها التجربة والكفاح، وتتعلم من مدرسة الحياة والممارسة بما فيها من خطأ وصواب"[168].

2- **غياب القيادة النسائية:** ويعلل "القرضاوي" هذا الضعف بغياب الزعامات النسائية الإسلامية، في ميادين الدعوة والفكر والعلم والأدب والتربية، الأمر الذي يحول دون نجاحه وإثبات وجوده في ساحة العمل الإسلامي[169].

3 - **تسرب الأفكار المتشددة إلى مجال العمل الإسلامي النسوي:** الأمر الذي ينكره الشيخ "القرضاوي" باللسان والقلم بسبب ما أدت إليه تلك الأفكار المتشددة من تحكم

---

(166) زكي الميلاد، تجديد التفكير الديني في مسألة المرأة، ص 77.

(167) يوسف القرضاوي، أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، مؤسسة الرسالة (بيروت)، ط14(1417هـ-1997م)، ص 70.

(168) المرجع نفسه، ص 73.

(169) المرجع السابق، ص 71.

متزمت في العلاقة بين الرجال والنساء أدى بدوره إلى العزل التام للمرأة من عالم الرجال في الحركة الإسلامية وهو ما أسهم بقسط وافر في إضعاف تأهيلها[170].

وبشهادة من أحد الدارسين حين يقول: "... فقد عزلت حتى في الندوات والمؤتمرات الثقافية والفكرية، وكنت شاهدا على واحد منها. ففي ديسمبر 1993م حضرت مؤتمر "رابطة الشباب المسلم العربي" في أمريكا، الذي عقد في مدينة ديترويت بولاية ميتشغان، وفي هذا المؤتمر وقف "يوسف القرضاوي" معترضا على فصل المرأة عن برامج الرجال، واعتبر ذلك فصلا لها عن المجتمع"[171].

وبتصريح من الشيخ "القرضاوي" نفسه يقول: "وقد أنكرت هذا -يعني الفصل التام بين الجنسين في مجالس العلم- في أكثر من مؤتمر حضرته، وقلت: إن الأصل في العبادة ودروس العلم هو الاشتراك، ولم يعرف في تاريخ الإسلام مسجد للنساء وحدهن مستقلا عن الرجال"[172].

4- ومع كل هذه الحقائق يبقى أن للمرأة في الحركة الإسلامية جزءا من التبعة الملقاة عليها ولا يمكن تجاهل مسؤوليتها تجاه تنمية مواهبها، وتأهيل ذاتها، وتفعيل طاقاتها. وكذا اتجاه ضعفها داخل الحركة الإسلامية، وهو ما يؤكد عليه "يوسف القرضاوي" حين يرى أن: "الأخوات المسلمات لا يعفين من بعض التبعة، فقد استسلمن لهذا الوضع، ورضين بحياة الدعة والسكون، وأن يفكر لهن الرجال بدل أن يفكرن لأنفسهن، وينبغي أن يأخذن زمام المبادرة، ويفتحن ميادين الدعوة والعمل، ويخرسن الأصوات النسوية الغربية الدخيلة على عقائد هذه الأمة وقيمها وشرائعها، وهي أصوات عالية، وإن لم تمثل إلا قلة مسحوقة لا وزن لها في دين ولا دنيا!"[173].

وإذا كان للمعترضين على نشاط المرأة المسلمة داخل الحركة الإسلامية ما يستدلون به من القرآن الكريم من خلال فهمهم لقوله تعالى: ﴿**وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى**﴾[174]، فإن للشيخ "القرضاوي" فهمه وتفسيره الخاص للآية السابقة، فيذهب في تفسيرها إلى اعتبار أنها خطاب خاص بنساء

النبي صلى الله عليه وسلم اللاتي لهن من الخصوصية ما ليس لغيرهن، وعليهن من التكلفة ما ليس على سائر النساء، حيث يقول تعالى في خطابهن: ﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ**

(170) المرجع نفسه، ص 71.

(171) زكي الميلاد، تجديد التفكير الديني في مسألة المرأة، ص 90.

(172)و(5) يوسف القرضاوي، أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، ص 73.

(173) سورة الأحزاب: الآية 33.

لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنْ النِّسَاءِ﴾[175]، ويبقى خروج المرأة المسلمة وعملها مرتبطا بالخروج المحتشم غير المتبرج، ومنافيا لغير ذلك.

والخلاصة من كل ما سبق، أن قضية المرأة طرحت في أول أمرها في الغرب حيث كانت تعاني المرأة من الاحتقار والمهانة والنظرة الدونية، ثم أعيد طرحها في العالم الإسلامي غداة احتكاكه بالغرب في بداية نهضته، وقد أثار ذلك ردود أفعال مختلفة التيارات الفكرية التي قدمت مشاريع نهضوية انطلاقا من توجهاتها الليبيرالية أو العلمانية أو الإسلامية...

والشيخ "محمد الغزالي" –رحمه الله- واحد من الفعاليات الإسلامية البارزة التي أدلت بدلوها في هذا الموضوع، وكان له مواقفه الخاصة والمتميزة وسط هذه الأمواج العاتية من الأفكار المتضاربة، واستطاع أن يخط لنفسه تيارا متميزا له معالمه الواضحة.

ولعل الميزة الأساسية لفكر "الغزالي" أنه حمل في طياته مشروعا فكريا متكاملا أثرى الساحة الإسلامية، ووقف في وجه التحديات التي تواجه نهوض الأمة بين الحين والآخر، وكان من بين محاور هذا المشروع: المرأة وقضاياها المختلفة.

([175]) سورة الأحزاب: الآية 32.

الفصل الثاني

الغزالي ومشكلة المرأة.

تمهيد
المبحث الأول: الشيخ "محمد الغزالي"؛ حياته وأعماله.
المبحث الثاني: موقف الشيخ" محمد الغزالي" من قضية المرأة.
المبحث الثالث:المرأة بين التقاليد الراكدة والعادات الفاسدة.
المبحث الرابع: صورة المرأة النموذجية عند الشيخ" محمد الغزالي".

تمهيد:

بالرغم من أن قضية المرأة لم تخل ساحتها من الرجال الأغيار المصلحين الذين رفدوها بالعلم النظري والعمل الدعوي الوفيرين –مثلما سبقت الإشارة إليه في المبحث الأخير من الفصل السابق-, إلا أنها أخذت طابعا متميزا في فكر الشيخ "محمد الغزالي", إذ كان –رحمه الله- في تقدير جملة العلماء والدارسين أبعدهم أثرا وأكثرهم سعيا في الدفاع عن المرأة, ونصرة لقضاياها, ووضعها في مكانتها التي رفعها إليها الإسلام.

فقد كان له إسهام كبير في معالجة مشكلة المرأة, وكشف مكامن الخلل والدّاء فيها, ثم تصحيح المفاهيم والتصورات حولها. حيث استوعب كل حيثيات المشكلة فسعى إلى إيجاد الحلول الملائمة لها, وذلك بالتأكيد على أنّ مشكلة المرأة لا تحل باحتذاء النموذج الغربي, وإنما تحل بالرجوع إلى المصادر المعصومة, واستلهام الأحكام الخاصة بالمرأة منها. وهو في كل ذلك يبتغي لها ألا تظل مجرد فرد, وإنما تكون شخصية مركزية فاعلة في شبكة العلاقات الاجتماعية.

وفي هذا الفصل وقفة عند حياة هذا الداعية وأهم أعماله الفكرية والدعوية, ولما كان موقفه –رحمه الله- من قضية المرأة منثورا في صفحات سلسلة كتبه, كان لابد من الرصد والتتبع له في جل هذه الكتب التي عكفت على قراءتها واستخلاص جملة مواقفه منها, من ذلك: موقفه من المرأة في بلاد الإسلام, وموقفه منها في الحضارة الغربية الحديثة.

ولما كانت قضايا المرأة تقع بين طرفي نقيض لا مجال لالتقاء أحدهما بالآخر؛ بين تقاليد راكدة موروثة من عهود الانحطاط والضعف, وأخرى فاسدة متسللة مع الغزو الثقافي والأخلاقي, كان لابد من كشف أثر هذه التقاليد في حياة المرأة المسلمة, ثم بيان سبل التحرر منها والعودة بالمرأة إلى أسلوب الإسلام الصحيح في الحياة من منظور الشيخ "الغزالي".

وخير ما نختم به هذا الفصل, عرض لصورة المرأة النموذجية عند الشيخ "الغزالي" للامتثال والقدوة.

المبحث الأول: الشيخ "محمد الغزالي"؛ حياته وأعماله.

المطلب الأول: مراحل حياته.

المرحلة الأولى: النشأة والتعلم.

في قرية نكلا العنب التابعة لمركز إيتاي البارود بمحافظة البحيرة بمصر، ولد الشيخ محمد الغزالي السقا في 30 محرم 1341هـ الموافق لـ: 22 سبتمبر 1917م، وقد اختار له والده "أحمد السقا" اسم "محمد الغزالي" تيمنا بحجة الإسلام "أبو حامد الغزالي" لما أوصاه بذلك في رؤيا صالحة رآها قبل أن يتزوج.

عاش في مرحلة تميزت بالتغير المستمر والنضال المتواصل ضد سلطة الاحتلال الاستعمارية البريطانية، وهذا ما أثر سلبا على المجتمع المصري وحركة تطوره، ويصف الشيخ محمد الغزالي عصره بقوله: "والقرن الذي ولدت فيه من أسوأ القرون التي مرت بديننا الحنيف! لم أبلغ سبع سنين حتى كاد المرتد التركي "مصطفى كمال" قد رمى "بالخلافة الإسلامية" في البحر! نعم كانت شبحا لا روح له! بيد أن هذا الشبح كان مفزعا لأعداء الإسلام، وإذا كان مغما عليه تحت هوي المطارق على أم رأسه! فمن يدري؟ قد يستيقظ فجأة ويستأنف نشاطه المخوف، فموته أجدى على أعداء الإسلام..."[176].

تلقى الغزالي في العقد الأول من عمره تعليما دينيا تقليديا في الكتاتيب اشتمل على مبادئ القراءة والكتابة وبعض مبادئ الحساب وحفظ القرآن الكريم، فقد كان والده حريصا شديد الحرص على تعليمه، فما إن بلغ الخامسة من عمره حتى كان في الكتاب يحفظ القرآن الكريم ويستظهره في أقصر مدة لم تدم خمس سنوات. لهذا فإن النظام الكتاب – عند الشيخ الغزالي- دورا فعالا ليس له بديل في حفظ القرآن الكريم بالنسبة للغلام الناشئ بالرغم من ثقله على نفسيته، لذلك فإنه يود "لو انعقدت مؤتمرات دائمة لاستيقاء محاسن الكتاب واستبعاد مساوئه ووضع سياسة جديدة لربط الأجيال الناشئة بأصولها وقيمها..."[177].

بقي الغزالي في الكتاب إلى سن العاشرة، فأتم حفظ الكتاب العزيز، وعرف مبادئ ضرورية للتعلم تهيئه لمرحلة جديدة ومهمة ألا وهي مرحلة التعليم الابتدائي.

تدرج محمد الغزالي، فالتحق بمعهد الإسكندرية الديني الابتدائي مع بدايات الحادية عشر من عمره، في عام 1928 للميلاد، "وكان بطل هذه المرحلة أبا وهب ابنه لله على حد التعبير الشائع! وباع كل ما يملك ليصلني بدراسة تخدم الإسلام، وكان الأزهر يومئذ حصن الدين واللغة، بل كان موقفه من الاحتلال الإنجليزي صورة لموقفه من الاحتلال الفرنساوي، كان قذى في عيون المستعمرين وكهفا للأحرار المجاهدين"[178].

([176]) محمد الغزالي "مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي"، إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي(ماليزيا)، العدد السابع (رمضان 1417هـ / يناير 1997م)، ص 156.

([177]) المرجع نفسه، ص 158.

([178]) المرجع نفسه، ص 159.

دخل، إذن، معهد الإسكندرية الديني ليقضي فيه تسع سنين كاملة، درس فيها العلوم الدينية ونصيبا وافرا من العلوم المدنية.

ويصف الشيخ الغزالي الفترة التي عاشها في الأزهر قائلا: "واعتقد أن هذه الفترة من أزهى فترات التألق العلمي في الأزهر، لأن دراسة الطبيعة والكيمياء والأحياء وعلوم الحساب والجبر والهندسة والتوسع في دراسة التاريخ المحلي والإسلامي والعالمي، ودراسة جغرافية العالم كله! إذن هذا كله يصقل فكر الطالب ويعينه على تكوين فكر صائب، بل إن الحقائق الشرعية لا تفهم على واقعها الصحيح إلا بهذه المعرفة..."[179].

وفي أثناء هذه المرحلة بدأت تتكشف له الحقائق نظرا لنضجه الفكري وسعة إطلاعه وانتمائه للأزهر الشريف، ومعايشته لاضطرابات سياسية شدت انتباهه، وحركت في نفسه شعورا بالواجب الديني والوطني وهو دون العشرين من عمره، فلما كان الغزالي يافعا "تولى إسماعيل صدقي باشا الحكم، فألغى الدستور القائم وجاء بدستور آخر، وقبل ذلك كان محمد محمود باشا قد عطل الدستور مؤقتا ومهد للضربة القادمة..."[180]. لم يتردد الشيخ الغزالي في المشاركة والقيادة لإحدى المظاهرات العنيفة والسبب في ذلك كله هو إنكار الأمة لتلك التصرفات، وشعورها بأن القصر وأحزابه يعملون لمصلحة إنجلترا ضد الشعب المصري.

لقد دفع الغزالي بعد ذلك الثمن غاليا؛ إذ تم فصله سنة كاملة من الدراسة، وبعدها اجتاز عقبات صحية فادحة. وهذا لم يمنعه أبدا من التحدي وتجاوزه المحنة الصعبة التي تحولت أخيرا إلى منحة.

فبعد دخوله الامتحان يحكي الغزالي عن نفسه آنذاك قائلا: "لا أدري كيف أديت الامتحان بهدوء! وكرهت أن أعود إلى أبي أنتظر النتيجة في جواره، وعشت في مساكن المعهد حتى تم إعلان النتيجة، وكانت المفاجأة: نجحت في هذا الامتحان الصعب، بل كنت من الأوائل في القطر كله، والأول في معهد الإسكندرية... وأحسست داخل نفسي أن هذه ليست مهارتي، بل كانت دعوات أبي المؤمن المتوكل الصبور"[181]، فلم يضع من عمره ما كان متوقعا، ولم يخب أمل أبيه في مستقبله، وفي الرؤية التي سيطرت عليه.

استفاد الغزالي كثيرا من هذه المرحلة من حياته في المعهد الديني بالإسكندرية بين عامي 1928هـ-1937م، فقد أتم المرحلتين الابتدائية والثانوية، في حين أتاحت له تجاربه البسيطة هناك خبرات كثيرة تؤهله للاستعداد لمراحل لاحقة من حياته.

وفي السنة الأخيرة من مقامه بالإسكندرية التقى بالأستاذ الإمام -حسن البنا- في مسجد "عبد الرحمن بن هرمز" بعد صلاة المغرب، وشاء الله تعالى أن يتعلق قلبه به

([179]) المرجع السابق، ص 160.

([180]) المرجع نفسه، ص 162.

([181]) المرجع نفسه، ص 162-163.

منذ تلك الساعة، يقول الغزالي: "قررت من يومها أن أتبعه، وأن أسير معه على درب واحد لخدمة الإسلام والمسلمين..."[182].

التحق الغزالي بإحدى كليات الأزهر الشريف وهي "كلية أصول الدين"، وبدأ الدراسة بها عام 1938. بدأ الغزالي كعادته يواجه هذه المرحلة من حياته العلمية بنفحات عارمة وبدأت بذلك أهم تحولات حياته الفكرية والعلمية... فكان مثالا للنشاط والحيوية، ولعل السبب وراء ذلك يعود إلى طبيعة المناهج الموضوعة في الكلية وجودة مستوى التلقي العلمي التي كانت "تفتق الأزهار، وتحرر المراد، وتضبط المفاهيم..."[183]، وكذا وجود عدد من الرجال الراسخين أمثال الشيخ –محمد أبي زهرة، والدكتور محمد أحمد الغمراوي، والشيخ أمين الخولي، والدكتور عبد الوهاب عزام، والأستاذ عبد الوهاب خلاف، والشيخ محمد الخضر حسين، والدكتور محمد البهي، والدكتور محمد عبد الله ماضي، والعلامة الدكتور محمد عبد الله دراز، والدكتور محمد يوسف موسى، والشيخ المجاهد محمد الأودن... وآخرون[184]. فنجد أن "الغزالي" قد تأثر في تشكيل بنيته الفكرية والعقلية بمشارب شتى، وعلماء كثيرين ساهموا في بناء شخصيته.

في هذه الأثناء انظم الشيخ الغزالي إلى جماعة الإخوان المسلمين وأصبح واحدا من عناصرها الراغبة في نصرة الإسلام وإعلاء رايته، وتتلمذ على يد الشيخ حسن البنا –رحمه الله-، وتأثر به أيما تأثر، وقد سأل الأستاذ محمد المجدوب الشيخ الغزالي عن الشخصيات التي تأثر بها في حياته العلمية والدعوية فكان جوابه بأنه قد تأثر بعدة شيوخ ذكر منهم الشيخ عبد العظيم الزرقاني والشيخ إبراهيم الغرباوي، والشيخ محمود شلتوت... ثم قال: "أما تأثري الأكبر فقد كان بالإمام الشهيد حسن البنا، وكان عالما بالدين كأفقه ما يكون علماء العقيدة والشريعة، وكان خطيبا متدفقا ينساب الكلام منه أصولا لا فضولا و حقائق لا خيالات... وكان حسن البنا يدرك المرحلة الرهيبة التي يمر بها الإسلام بعدما سقطت خلافته، وذهبت دولته، ونجح المستعمرون شرقا وغربا في انتهاب تركته، فكان الرجل يعارض هذا الطوفان المدمر عن طريق تكوين الجماعات التي تعتز بدينها، وتتشبث بالحق مهما واجهت من متاعب أو عوائق أو ويلات"[185].

تفتقت مواهبه الفكرية والدعوية ونمت ملكاته أثناء حركته ونشاطه الدؤوب في جماعة الإخوان المسلمين فقد بدأ الكتابة وهو لا يزال طالبا في كلية أصول الدين من خلال مقاله "الإخوان المسلمون والأحزاب"، ولعل المرشد العام للإخوان المسلمين كان أول من أخذ بيده وشجعه على الاستمرارية والتألق في مجال الكتابة. لقد

([182]) المرجع نفسه، ص 164.

([183]) المرجع السابق، ص 166.

([184]) مسعود فلوسي، الشيخ محمد الغزالي؛ غصن باسق في شجرة الخلود، مكتبة وهبة (القاهرة)، ط1(1424هـ-2003م)، ص 40-41.

([185]) يوسف القرضاوي، الشيخ الغزالي كما عرفته؛ رحلة نصف قرن، ص 36.

كتب له يوما: "أكتب دائما وروح القدس معك والله يؤيدك..."[186]. ثناء ودعاء كان له وقع عظيم في حياة الغزالي.

يصرح الغزالي بذلك قائلا: "إن تشجيع حسن البنا لي، وإقبال الإخوان عليَّ، كان من أقوى الأسباب في عكوفي على التأليف، مع تجهم الحكام لي وضيقهم بي... واستطعت وأنا طالب –أن أجمع بين مواصلة التعليم ونشر الدعوة في العاصمة والأقاليم..."[187].

ظل الغزالي مقيما بالقاهرة حتى سنة 1941م حيث أنهى دراسته بالكلية، ثم تخصص في الدعوة والإرشاد، وحصل على العالمية، وهي تعادل درجة الماجستير سنة 1943م من كلية اللغة العربية. فبالرغم من ويلات الفقر والعوز التي كان الغزالي يعيشها طيلة أعوام دراسته إلا أنه لم يأبه لها بل بالعكس من ذلك فقد كانت تلك العقبات المتوالية تشحذ همته، وتزيد من إصراره على مواصلة مسيرته العلمية والدعوية.

المرحلة الثانية: مرحلة النشاط الديني والدعوي.

وبعد مرحلة طويلة في سبيل طلب العلم والتحصيل المعرفي، دامت خمسة عشر سنة كاملة قضاها الغزالي في ظروف معيشة صعبة، وبعد حصوله على درجة التخصص في التدريس، كان لا بد له أن يخرج للحياة العملية، فسرعان ما تقدم لمسابقة أجريت بين خريجي الأزهر لشغل وظائف "الإمامة والخطابة والتدريس"، التي كانت خالية بمساجدها... نجح الغزالي في هذه المسابقة برغم العراقيل والمعوقات التي اعترضته يومئذ وكان الخامس بين الناجحين، ثم عين إماما وخطيبا ومدرسا بمسجد "غربان" بالعنبة الخضراء، في هذه الفترة استطاع الغزالي الشاب أن يمزج بين صفتين (الرسمية والشعبية)، فهو من رجال الإخوان المسلمين، وفي الوقت نفسه يعد من علماء الوزارة، في حين ينتسب إلى تخصص الدعوة والإرشاد.

وبعد تسلمه للعمل الحكومي ثم زواجه من ابنة رجل صالح من قريته، وأنجب تسعة أبناء، عاش منهم ولدان (ضياء وعلاء) وخمسة بنات.

في هذه الأثناء ازداد الغزالي نشاطا وتألقا لا سيما في ميدان الكتابة والجهاد بالقلم والكلمة، فالعالم خرج لتوه من حرب عالمية دارت رحاها وتمت معاركها الحاسمة في أرض العروبة والإسلام، ومع ذلك كان العرب المسلمون فيها عنصرا تافها.

ولما كان الغزالي منظما في تخصص الدعوة والإرشاد بكلية أصول الدين، فقد ألف اتحادا لإعادة التشريع الإسلامي، يزاحم الاتحادات الطلابية الأخرى، فعنده أنه "من الواجب أن يعرف الوضع الديني على صورته الكاملة!! إن جمهرة المنتمين للأحزاب السياسية الصحيحة والمزورة كانوا مسلمين يسود بينهم المفهوم الغربي

([186]) محمد الغزالي "مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي"، ص 170.

([187]) المرجع السابق، ص 172.

لمعنى الدين"[188]، ويبدوا أن الأرضية كانت ممهدة، فأمكنه ذلك من اكتساح الساحات الأخرى، فوزع ألوف المنشورات، لكن الأستاذ المرشد لامه على تأليف الاتحاد وعلى السير في هذه المرحلة واتخاذ سبيلا لتبليغ غايتهم، وأقنعه بأن بمنهج الإخوان وحده هو الموصل للهدف المنشود، فمن الأفضل إذن تكريس كل الجهود له

فألغى الغزالي بذلك ما صنعه واستأنف عمله في ميدان الدعوة والإرشاد، فكان يجمع بين عمله في المسجد خطيبا ومدرسا وإماما، وعمله في التحرير,... فكثرت كتاباته خاصة بعد تعيينه سكرتيرا لمجلة الإخوان المسلمين، وكان في نظره أن المنهج الذي يعرض من خلال الدعوة الإخوان هو ما خير ما يقال للناس، فمرشدها وقائدها هو "قائدٌ عابدٌ، ومجاهدٌ صامدٌ، ومربيٌ قديرٌ، وداعيةٌ متفانٍ، يضن باللحظة من عمره أن تضيع في غير عمل للإسلام"[189].

لكن وللأسف الشديد فقد صدر قرار بحل جماعة الإخوان ومصادرة ممتلكاته والزج برجالاتها وقادتها في المعتقلات واغتيال مرشدها. وكان الشيخ الغزالي من بين المعتقلين بصفته عضوا مؤسسا للجماعة بين سنتي 1948-1949م في سجن الطور، وفي بدايات عام 1949 تم اغتيال الإمام الشهيد حسن البنا، وهو تنفيذ للخطة الموضوعة من طرف الغرب للملك فاروق.

ويذكر الغزالي أن "الملك فاروق لما أراد قتل حسن البنا، دبر اغتياله في ظلام الليل، وظهرت الجريمة للناس دون أن يعرف للشهيد الراحل قاتل معروف"[190].

تحمل الشيخ الغزالي نصيبا من أعباء الدعوة وهموما بعد وفاة حسن البنا –رحمه الله- وازدادت مسؤوليته في سجن الطور، فقد كان يرى أن حسن البنا مهد الطريق، وبقي عليه هو وإخوانه إكمال المسيرة، لا أن يتراجعوا ويتوقفوا، وفي هذا الصدد يقول الشيخ القرضاوي: "في معتقل الطور كان للشيخ الغزالي بين الحين والحين – وخصوصا في أعقاب الصلوات- مواعظ بليغة، تميزت -ككل مواعظه- بالإيجاز لا بالإطالة والإسهاب وبما فيها من أفكار حية، ونظرات جديدة، وكان يغرس فيها معاني الإصرار والثبات والتحدي، وأن موت حسن البنا لا يعني أن المعركة قد انتهت مع أعداء الله، وأعداء الأمة، وأن الراية التي رفعها البنا قد تلقفها جنوده وتلاميذه من بعده، ولن يدعوها تسقط أبدا، وكان يستشهد بقول المهلهل بن ربيعة بعد مقتل أخيه كليب:

ولست بخالع درعي وسيفي إلى أن يخلع الليل النهار "[191].

رحل حسن البنا مرشد الجماعة الإخوان المسلمين في وقت مبكر من حياتها، لكن هذا لم يقف عائقا في سبيل سيرورة عمل الجماعة ونشاطها، فقد استأنفت جماعة

([188]) المرجع نفسه، ص 182.

([189]) المرجع السابق، ص 184.

([190]) المرجع نفسه، ص 192.

([191]) يوسف القرضاوي، الشيخ الغزالي كما عرفته؛ رحلة نصف قرن, ص 34.

الإخوان المسلمين نشاطها في ميادين الدعوة والإرشاد والتربية برغم المحاولات الكثيرة (الخبيثة والماكرة), والمتكررة لخصوم الجماعة للإيقاع بين قادتها حتى يسوء ظن بعضهم ببعض، ولا شك أن لعلاقة الشيخ الغزالي بالأستاذ حسن الهضيبي – المرشد الثاني للإخوان- دخل في ذلك يحكي الشيخ القرضاوي –حفظه الله- عنهما قائلا: "كانت علاقة الشيخ الغزالي بالأستاذ حسن الهضيبي –المرشد الثاني- للإخوان المسلمين علاقة طيبة؛ منذ اختاره الإخوان قائدا لمسيرتهم، ورضوا به إماما لجماعتهم،... وظلت هذه العلاقة حسنة، حتى ظهرت على المسرح السياسي ثورة "23 يوليو"، وعجزت عن احتواء الإخوان الذين وقفوا إلى جوارها، وشدوا أزرها، وحموا ظهرها...

فلجأت إلى أسلوب أخبث وأمكر وهو: محاولة الإيقاع بين قادة الجماعة، حتى يسوء ظن بعضهم ببعض، واستطاع جمال الدين عبد الناصر أن يستغل بعض المواقف للاصطياد في الماء العكر؛ وهكذا استطاع أن يوقع بين قادة النظام الخاص وقيادة الجماعة، حتى أدى ذلك إلى احتلال مجموعة من الشباب المتحمس المركز العام، والتمرد على قرارات القيادة المبايعة، كما استطاع أن يوغر صدور جماعة من القادة القدامى، حتى وقفوا مع هذا الشباب الثائر ضد قيادته، وكان من هؤلاء أربعة معروفون من خيرة الإخوان جهادا وسابقة وخدمة للدعوة، ومحبة لدى جماهير الإخوان، كان منهم الشيخ الغزالي، وفي هذا الجو الملبد بغيوم الفتنة المحبوكة صدر قرار القيادة بفصل الأعضاء الأربعة[*] من الجماعة، وبهذا بلغت الفتنة هدفها، وحققت مآربها"[192].

كان الشيخ الغزالي سريع الغضب إذا رأى ظلما أو عوجا، شديدا في الحق، كما أنه لا يطيق الظلم والهوان والاستخفاف بكرامة أحد من الخلق، لذا كان نقده لسياسة المرشد الجديد نقدا عنيفا، ولا سيما إبان فصله من دعوة الإخوان في أعقاب ثورة 23 يوليو، ولكن الشيخ الغزالي بسماحته، وسعة قلبه، وشجاعته على الاعتراف بالخطأ، إن لم يكن يحالفه الصواب فيما كان يرى، سرعان ما سعى لإصلاح ما بينه وما بين المرشد "حسن الهضيبي" وغير موقفه منه لما سمع عن "صلابة الأستاذ الهضيبي وثباته في وجه الجبابرة وأنه لم يحن لهم رأسا، ولم يوطئ لهم ظهرا –غير موقفه- من المرشد الهضيبي ونوه بموقفه، وأشاد بإيمانه ورجولته، وحين أفرج عنه، سارع بالذهاب إلى منزله ليهنئه ويصافحه بحرارة وإخلاص، وقد قابله المرشد بنفس الحرارة، وروح الأخوة، التي كانت دائما إحدى السمات الأولى المميزة لعلاقات الإخوان بعضهم ببعض"[193].

ظلت موجة الاعتقالات والسجون، وويلات التنكيل والتعذيب تتوالى على الإخوان المسلمين بعد ثورة يوليو 1952م. وقد نجا الشيخ وقتها من الاعتقال –أوائل سنة

(*) هؤلاء الأربعة هم: الأستاذ صالح عشماوي وكيل الإخوان، والدكتور محمد سليمان، وأحمد عبد العزيز جلال، والشيخ محمد الغزالي، وكلهم أعضاء من الهيأة التأسيسية للإخوان. المرجع السابق، ص 44.

(192) المرجع نفسه، ص 43-44.

(193) يوسف القرضاوي، الشيخ الغزالي كما عرفته، ص 46.

1954م- وأواخرها(بسبب خلافه مع القيادة الجديدة للجماعة (حسن الهضيبي)، وقرار فصله من الجماعة).

في هذه الفترة بالذات قرر الغزالي أن ينفرد بالعمل للدعوة كما يحب هو ويرضى فقد كانت "الدعوة إلى الإسلام لها كل عقله وقلبه، ولسانه وقلمه، وجهده وجهاده"[194].

وله في ذلك ميدانان فسيحان: ميدان التأليف وميدان المساجد، فكان يلقي الخطب، ويتولى مهمة التوجيه والنصح والإرشاد، وكان يصب جل غيضه على الاستعمار والحكام وسياساتهم المستبدة الجائرة فيما يؤلفه ويضمنه صفحات كتبه التي مثلت – بصفة عامة- مواجهة للاستبداد المالي، والاستبداد السياسي (الإسلام

والأوضاع الاقتصادية، الإسلام والمناهج الاشتراكية، الإسلام والاستبداد السياسي...) ثم مواجهة للسيطرة الغربية وتيارات العلمانية والمادية والإلحاد والتغريب... (من هنا تعلم، دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين...).

دخل الشيخ الغزالي الاتحاد الاشتراكي سعيا منه لخدمة الإسلام ونشر الدعوة... فكانت تجربة شاقة، لا عهد له بمثلها، وكان يرى أنه لا مناص من اقتحام هذا الوسط الرديء والعمل فيه، المهم عنده أن لا يبقى جامدا مكتوف الأيدي والغير يصنع القرارات على حسب هواه! فتلك هي السلبية التي يخشاها.

في هذه الأثناء انعقد المؤتمر الوطني للقوى الشعبية سنة 1962، تم إقرار "الميثاق الوطني" الذي ستمضي البلاد على ضوئه في الأعوام المقبلة وكان الغزالي من بين المشاركين فيه "وكان له مواقف أثارت ضده حملة صحفية قادها عدد من الصحفيين الليبراليين والسياسيين، وانتصرت له فيها جماهير المساجد... وكان يخطب الجمعة بمسجد عمرو بن العاص، فتحتشد لسماعه عشرات الألوف... وعندما كانت تثير انتقاداته الدولة، فتهم بتقييد حريته كانت تتحرك لنصرته جماهير المساجد"[195].

وبعد انقضاء أيام المؤتمر بحلوها ومرها عاد الشيخ الغزالي إلى عمله بوزارة الأوقاف لكن سرعان ما تربص به القوم الماكرون، فرجع إلى ما كان عليه قبل خمسة عشر عاما مفتشا للمساجد بعد ما كان مديرا لها، يحكي الغزالي عن تلك الأحداث قائلا: "ولم يلحقني ضر عاجل من موقفي في المؤتمر ويبدو أن القوم امكر من ذلك، فقد تربصوا بي عدة شهور، ثم جاء وزير هبط بي من مدير للمساجد إلى مفتش بها، أي رجع بها القهقري خمسة عشر عاما في سلم الوظائف، ونقلني من مكتبي الخاص إلى مكتب به بعض الموظفين والموظفات!!"[196].

([194]) المرجع نفسه, ص 65.

([195]) محمد عمارة، الشيخ محمد الغزالي؛ الموقع الفكري والمعارك الفكرية ,دار الرشاد (القاهرة)، ط2(1418هـ-1998م)، ص 9-10.

([196]) محمد الغزالي، "مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي"، ص 211.

وبالإضافة إلى هذا العقاب تم منعه أيضا من الخطابة في المسجد، وحرم من ممارسة نشاطه الدعوي عبر وسائل الإعلام. وبالرغم من ذلك تهن غريمة الشيخ "الغزالي" لما نزل به من أزمات، بل تفرغ للتأليف الذي كان المجال الخصب والأوسع للتعبير عن القضايا التي تؤرقه، وكان مما أصدره من كتب: "الجانب العاطفي من الإسلام" و"معركة المصحف في العالم الإسلامي" و"دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين" و"مع الله: دراسات في الدعوة والدعاة" و"التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام" و"كفاح دين"، الذي صودر أثناء حكم جمال عبد الناصر وأصبح متداولا بعد وفاته.

في هذه الفترة الحرجة –ماديا ومعنويا- أرسلت إليه دولة الكويت تطلبه لقضاء شهر رمضان بها في الدعوة والوعظ، فاستجاب لذلك دون تردد منه، يقول: "عدت من الكويت، وقد قضيت شهرا مباركا، أبيح لي فيه ما كان محظورا علي في القاهرة، حاضرت في المساجد الكبرى وتحدثت إلى أمهات الصحف، وسجلت دروسا كثيرة في التلفاز، والإذاعة، وتعاقدت مع الناشرين على طبع عشر كتب من مؤلفاتي!"[197].

وقد خففت هذه الزيارة من وطأة المعاناة التي كان يعيشها، والغيظ الذي كان يملأ مصدره.

رأى "الغزالي" بعدها أن يظل محاضرا في المساجد الأهلية، والأندية العامة، وعاملا في حقول الدعوة ونشر الثقافة الإسلامية، فكان كالغيث أينما وقع نفع، وأينما حل أفاد، ويصف شعوره آنذاك قائلا: "شعرت بفطرة المؤمن أن هذا التنقل أفاد، وأن جيشا من أهل الإيمان استطاع أن يَثِبَ بالدعوة إلى الأمام، فهل يترك الإسلام يتحرك وحده؟ كلا، لقد وقع ما ليس في الحسبان! أحس أعداء الإسلام أن المصريين متمسكون بدينهم، راغبون في إعلاء شعائره، وإحياء شرائعه، وأنهم تحت وطأة القمع ينكمشون، ثم سرعان ما يفيقون ويسمع جؤارهم بضرورة العودة إلى الدين...!!"[198].

وفي سبيل ضرب الإسلام والمسلمين، أعلنت الحرب على الإخوان المسلمين بوصفهم إرهابيين، كما يسميهم أصحاب السلطة، وتم اعتقال ثمانية عشر ألفا من العاملين في الحقل الإسلامي في ليلة واحدة في سنة 1965م، وكان الشيخ "الغزالي" واحدا منهم، فقد زج به في سجن "طُرّة" غير أنه لم يمكث إلا عشرة أيام ثم أفرج عنه بعد ذلك، يقول في ذلك: "... لقد كنت أخف أهل البلاء بلاء، أما الثمانية عشر ألفا من الشبان الذين احتوتهم سجون أخرى فقد مرت بهم أحوال تشيب لها النواصي..."[199].

([197]) المرجع نفسه، ص 213.

([198]) المرجع السابق، ص 214.

([199]) محمد الغزالي، قذائف الحق، دار الكتب (الجزائر)، ط(1989)، ص 122.

وفـي كتابـه "قـذائف الحـق" ينقل لنـا "الغزالـي" ألوانـا بـشعة مـن القمـع والتعـذيب، تقشعر لها الأبدان وتدمى لها القلوب نالها شباب أبرار لا ذنب لهم سوى أنهم أحبوا الإسلام وأرادوا تطبيق شرائعه "والفتنـة التـي استهلكت جماعـة الإخـوان تـشبه أن تكـون امتـدادا للمـذابح التـي أصـابت أتبـاع الأديـان الثلاثـة علـى التـراب المـصري، المذبحـة الأولـى التـي أصـابت اليهـود علـى عهـد فرعـون والثانيـة أصـابت النـصرانية علـى عهد الرومان والثالثـة أصـابت الإسـلام فـي الـسنوات الأخيـرة، ويجـب أن يـسجل فـي التاريخ العام أن المصريين الذين اعتنقوا الإسلام مخلصين ونـاصروه علـى امتـداد القرون قد تحملوا في الثلث الأخير من القرن الرابع عشر "الهجري" آلاما فوق طاقة البشر، وأنهم قدموا نماذج للبطولات الماجدة أهيل عليها التراب في صمت وينبغـي أن نـشق حجـاب هـذا الـصمت ونـستخرج الـدفائن المتواريـة تحـت طباقـه لتكـون عبـرة ولتكون مفخرة"[200].

أيقن الغزالي أن معانـاة الإخـوان ومحنـتهم كانـت مبيتـة لهـم مـن طـرف عبـد الناصـر وأتباعـه بـالرغم مـن كـل مـا كـان يبديـه لـدعاة الإسـلام عقـب ثـورة 23 يوليـو 1952م وتظاهر لهم بالود ومد يد العون. "لقد كان للمحن التي عاناها الإخوان المسلمون علـى يد عبـد الناصـر وأعوانـه أبلـغ الأثـر فـي اكتـشاف الغزالـي لحقيقـة الأمـر، وتفطنـه إلـى اللعبة الرخيصة التي وجهت إلى الإسلام ودعاته في أرض الكنانة، وهو ما جعلـه بعـد ذلك يوجه أصابع النقد إلى

عبد الناصـر ونظامـه؛ حيث وجـه فـي عـدد مـن كتبـه انتقـادات لاذعـة إلـى عبـد الناصـر وكشف الكثير من التلاعبات التي اقترفت في حق الإسلام والمسلمين علـى يـده وأيـدي أعوانه"[201].

بعد وفاة جمـال عبـد الناصـر "28 سبتمبر 1970"، جـيء بالـسادات مكانـه لرئاسـة الدولة فأعاد الاعتبار للشيخ الغزالي، فأمر بتكليفـه بـسلطات وكيـل وزراء وكـان ذلـك في سنة 1971م. "ولم يفوت "الغزالي" فرصة حصوله على هذه الثقة ليستثمرها فـي خدمـة الـدعوة، فكـان يـشتغل دون كلـل أو ملـل، وأدخـل الكثيـر مـن الإصـلاحات علـى مجالات تكوين الأئمـة وتـدريبهم، وزود المـساجد بالمكتبـات، وكـان ينتقـل إلـى الأقـاليم فيجتمع برجال الدعوة شهريا، وكانت الوزارة تنظم في كل عام مسابقة في عدة كتـب مختارة...الخ"[202].

كلف "الـشيخ الغزالـي" بالخطابـة فـي "جـامع عمـرو بـن العـاص"بطلـب مـن الـدكتور عبد الحليم محمود –رحمه الله- وفي هذا يقول الشيخ الغزالي:

([200]) المصدر نفسه، ص 123.

([201]) مسعود فلوسي، الإمام محمد الغزالي؛ غصن باسق في شجرة الخلود، ص 66.

([202]) المرجع نفسه، ص 70.

"... وقررت أن أجعل من خطبتي فيه سلسلة متصلة في التفسير الموضوعي للآيات الكتاب الكريم وأن أبدأ من أول القرآن وأستمر حتى نهايته إن شاء الله ومد في الأجل... ولقد واصلت ذلك حتى بلغت سورة النساء، وفي تلك الفترة كان قانون "الأحوال الشخصية" يعرض على البرلمان، فظن أنور السادات أنني تعمدت تفسير آيات من هذه السورة في هذه الفترة لبيان مخالفات هذا القانون لأحكام القرآن، فمنعني من الخطابة في وقت كان عدد المصلين قد قارب خمسة عشر ألفا ويزيدون"[203].

وفي سنة 1974، منع من الخطابة بجامع عمرو بن العاص وسحبت منه الدولة اختصاصاته في وظائف الدعوة، نظرا لضيقها بمعارضته فوجد نفسه على "حصير" –دون مكتب- في "سندرة" ملحقة بمسجد صلاح الدين –بالقاهرة- فجلس على الحصير يشتغل بالتأليف[204]: "وهنا قرر الشيخ الهجرة إلى مكة المكرمة، حيث عمل أستاذا في أم القرى، ومتحدثا في الإذاعة، وكاتبا في كثير من المجالات والجرائد السعودية حتى بلغت أحاديثه المذاعة ألف حديث، معظمها مسلسلات من إذاعة القرآن الكريم"[205].

واستطاع خلال هذه الفترة أن يضيف إلى المكتبة الإسلامية وإلى جملة مؤلفاته عدة كتب منها: (علل وأدوية) و(مائة سؤال عن الإسلام) و(دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين) و(ركائز الإيمان بين العقل والقلب)... كما حقق كتابين للإمام بن الجوزي هما:"ذم الهوى"، "صيد الخاطر"...[206].

بعد رحلة علمية دعوية خصبة حافلة بالعطاء العلمي والفكري استغرقها "الغزالي" في سبع سنوات بالمملكة العربية السعودية، وفي جوار الحرم الملكي (ما بين سنة 1974 وسنة 1981م) عاد إلى مصر من جديد، لكن دعوته هذه لم تدم طويلا فسرعان ما التحق بجامعة قطر وقد أعطى الكثير لهذه الكلية
(كلية الشريعة بجامعة قطر) وكانت له يد في تطويرها، وفي تخريج أجيال صالحة منها، وفي نشر الوعي الإسلامي في المساجد والمنتديات... وفي مدة إقامته في قطر أضاف إلى مؤلفاته جملة كتب منها:
(مشكلات في طريق الحياة الإسلامية)، (الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر)، (فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء) و(الغزو الثقافي يمتد في فراغنا) و(هموم داعية)، (واقع الإسلام في مطالع القرن الخامس عشر هجري)...[207].

وفي هذه المرحلة من حياته زادت همته وزاد نشاطه الدعوي، والعلمي على ما كان عليه ولا شك أن للأجواء الفكرية وللحرية العلمية، وللمنزلة الرفيعة التي حظى

([203]) طه جابر العلواني، "شيخنا محمد الغزالي وصفحات من حياته" إسلامية المعرفة، العدد7, ص 13-14.

([204]) محمد عمارة، الشيخ محمد الغزالي؛ الموقع الفكري والمعارك الفكرية، ص 10.

([205]) طه جابر العلواني، "شيخنا محمد الغزالي وصفحات من حياته"، ص 14.

([206]) إبراهيم نويري، الشيخ محمد الغزالي مفكرا وداعية، (بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الدعوة والإعلام الإسلامي) جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية , قسنطينة (98-1999م)، ص 51.

([207])و(2)و(3) المرجع نفسه، ص 51.

بها من طرف الجميع دخل في ذلك، فقد زار -رحمه الله- جل مناطق ودول الخليج العربي وكان يقضي شهر رمضان من كل عام بدولة الكويت، يلقى المحاضرات في المساجد، ويشارك بكل وسعه في بعث الوعي الإسلامي الصحيح وتذليل العقبات التي تعترض سير الدعوة الإسلامية(208).

واصل الشيخ الغزالي مشواره الدعوي، وعمله للإسلام فكان كالغيث أينما وقع نفع، ولم يقتصر في ذلك على دول العالم الإسلامي فقط، بل زار أيضا عدة دول من العالم الغربي مثل كندا وأمريكا وفرنسا وألمانيا، وكان في هذه الفترة يدعى سنويا للحضور والمشاركة في ملتقيات الفكر الإسلامي بالجزائر(209).

وفي أحد هذه الملتقيات في أوائل الثمانينات "أبرق إليه ابنه بأن لا يعود إلى مصر لأن الرئيس السادات سيلقى به في السجن، وكان قد حضر الرئيس "ابن جديد" زائرا ذلك الملتقى في ختام أعماله فأبلغه وزير الشؤون الدينية في ذلك الوقت الشيخ عبد الرحمن شيبان بهذا الخبر، فسلم ابن جديد على الشيخ الغزالي وقال له: الجزائر بلدك، فمرحبا بك داعية إلى الإسلام فيها"(210).

استجاب الشيخ لطلب الرئيس الجزائري "ابن جديد"، تاركا بذلك العمل في "قطر" بعد أن خدم الدعوة الإسلامية فيها خمس سنوات وبدأ رحلة دعوية جديدة في "الجزائر"؛ التي كانت حينها "تموج بالفتن"، ومبادئ الإسلام الصحيحة مخيبة عن عمد، واللغة العربية غير مستخدمة حتى بين البدو، كما كانت مظاهر الحضارة الأوروبية الجامحة ما زالت تهيمن، بكل ما ملكت من قوة"(211).

تم إنشاء جامعة "الأمير عبد القادر" بمدينة قسنطينة، وفي سبتمبر 1984م كانت بداية السنة الجامعية الأولى بهذه الجامعة، وعين الشيخ "محمد الغزالي" مشرفا عليها، فاختار لنفسه أن يدرس تفسير القرآن الكريم، وصار في الجامعة موجها وأستاذا ومفتيا، يزوره الناس للفتوى في الجامعة وفي بيته. وقد كان محور أعماله في الجامعة وخارجها؛ الدعوة إلى الله تعالى، ودراسة قضايا المسلمين، وتشخيص أمراضهم ومآسيهم، وأصبح مركز اهتمام ومراقبة من خلال حديثه الأسبوعي الذي يلقيه في التلفزة كل يوم اثنين، كما كان يلقي كل جمعة تقريبا درسا في أحد مساجدها الجامعة، وغالبا ما يكون في التفسير الموضوعي لسورة من السور، ينزلها على أوضاع المسلمين قديما وحديثا(212).

لم يكتف "الغزالي" في نشاطه الدعوي في "الجزائر" بقسنطينة" وحدها، بل كان يفعل ذلك في العديد من ولايات الجزائر، وبذلك "وصل ما انقطع من دعوة الإمام ابن باديس والشيخ الإبراهيمي وغيرهما من رجال الدعوة والتجديد الذين دعوا في

---

(210) عمار طالبي "الشيخ الغزالي كما عرفته في الجزائر"، إسلامية المعرفة, العدد7، ص 49.

(211) فتحي حسن ملكاوي, العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي،[علاء الدين محمد الغزالي: السيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالي], المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مكتب الأردن، ط1(1417هـ-1996م)، ص 193.

(212) عمار طالبي، "الشيخ الغزالي كما عرفته في الجزائر"، ص 50-51.

الجزائر وغيرها إلى النهضة والوعي، وجاهدوا في الله حق جهاده، وحسب الناس أن ابن باديس قد بعث وأن الإبراهيمي قد عاد"[213].

وفي الجزائر، كلف من طرف "المعهد العالمي للفكر الإسلامي" بعمل دراسة عن السنة النبوية، فلم يفوت "الغزالي" الفرصة وقام بتأليف كتابه "السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث" الذي أثار حوله ضجة عارمة لما احتواه من فصل في الأمور والقضايا. فأقيمت من أجله مؤتمرات لمناقشة الكتاب وتحديد معالمه[214].

بعد رحلة دعوية دامت خمسة سنوات من العمل الدؤوب والاجتهاد المتواصل، من سنة 1984 إلى سنة 1989، قرر الشيخ "الغزالي" ترك الجامعة الجزائرية والعودة إلى بلده "مصر" من جديد "وكان في ذلك الوقت قد تعب لما أصابه من جلطة في دمه، كما أصابه وصب وضير من اختلاف الجماعات خارج الجامعة وتنازعها، كل جمع منهم يريد أن يسيطر على الجامعة بما له من بعض الأتباع من الطلبة، وضاق عليه أمره، وشعر بأسى شديد،... فكتب خطابا لوزير الشؤون الدينية يعتذر فيه عن الاستمرار..."[215].

وكان من بين الخدمات الجليلة التي قدمها الشيخ "الغزالي" للجزائريين، فضلا عن الدروس والمواعظ والتوجيهات، أنه سمح بإعادة طبع كل كتبه تقريبا، مع تنازله عن تقاضي حقوقه المادية، كل ذلك تيسيرا لاقتنائها على القارئ الجزائري[216].

ومكافأة له على جهوده المتواصلة في خدمة الدعوة بأرض الجزائر، وعرفانا بفضله على شعبها، قام الرئيس "ابن جديد" بتكريم الشيخ -قبل مغادرته- تكريما على أعلى مستوى، مقلدا إياه وسام الأثير من مصف الاستحقاق الوطني[217].

إن الرجل طيلة فترة إقامته في "الجزائر"، لم ينقطع عن التأليف والكتابة، فأضاف بذلك مجموعة كتب إلى رصيده الفكري، منها: (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث)، (الطريق من هنا) و(قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة) و(جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج) و(سر تأخر العرب والمسلمين) و(المحاور الخمسة في القرآن) والجزء الأول من (الحق المر) و(مستقبل الإسلام خارج أرضه؛ كيف نفكر فيه) و(صيحة تحذير من دعاة التنصير)...[218].

بعدما يقرب خمس سنوات قضاها الشيخ بالجزائر، عاد إلى مصر من جديد، وهناك شغل منصب رئيس المجلس العلمي لمكتب المعهد العلمي للفكر الإسلامي

([213]) المرجع نفسه، ص 51.

([214]) علاء محمد الغزالي، السيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالي، ص 193.

([215]) عمار طالبي، "الشيخ الغزالي كما عرفته في الجزائر"، ص 54-55.

([216]) مسعود فلوسي، الشيخ محمد الغزالي؛ غصن باسق في شجرة الخلود، ص 91.

([217]) المرجع السابق، ص 92.

([218]) إبراهيم نويري، الشيخ محمد الغزالي مفكرا وداعية، ص 53.

بالقاهرة، وواحدا من مستشاريه وموجهي مسيرته. وفي هذه المرحلة أعد الشيخ دراساته القيمة في كيفية التعامل مع القرآن الكريم، وكيفية التعامل مع التراث الإسلامي، وقضايا الفنون وموقف الإسلام منها، وكثير من القضايا الأخرى، وصدر له عدد من الكتب المهمة هي: (كيف نتعامل مع القرآن) و(نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم) و(تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل)...، ومن خلال تلك المرحلة المباركة من عمر الشيخ، أتيح له تسجيل أهم خبراته خلال حياته الحافلة بالعطاء، تسجيلا بالصوت والصورة، من خلال إجراء حوارات علمية مكثفة يقوم بها أساتذة محاورون أكفاء بعد دراسة مستفيضة في تراث الشيخ وإنتاجه العلمي. وقد كان ممن حاوروه الأستاذ المستشار "طارق البشري"، والأستاذ الدكتور "محمد سليم العوا" والأستاذ الدكتور "محمد عمارة" والأستاذة "صافيناز كاظم"، ولعل من أهم ما ورد في تلك التسجيلات أنها عالجت "ما وراء" فكر الشيخ الغزالي" الذي دون في كتبه ودروسه ومقالاته. كما أنها تعرضت لتقديم تفسيرات مباشرة وصريحة لكثير من الأحداث والمواقف التي لم يعرف المتصلون بحياة الشيخ أو معظمهم تفسيرا صريحا لها[(219)].

في هذه المرحلة من حياة الشيخ "الغزالي" [1989-1996م]، تم تكريمه في عدة دول إسلامية، فنال من الأوسمة والجوائز ما يثبت جدارته واستحقاقه؛ فقد حصل على جائزة الملك فيصل عام 1989م، وحصل في نفس العام على أعلى وسام جزائري، وحصل على أرفع وسام باكستاني سنة 1990م، كما حصل على جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية من المجلس الأعلى للثقافة من حصر عام 1992م، واختير لجائزة "كاتب العام" في 1991م، لما تميز به من نشاطه الفكري، وقبل وفاته بأيام قلائل منحته ماليزيا وسامها الأول،

وكذا رشحته المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (ايسيسكو) لنيل جائزة السلطان (حسن البلقية) العالمية سلطان بروناي العالمية للدراسات الإسلامية التي يتولاها مركز أكسفورد الإسلامي في لندن[(220)]...الخ.

ظل الشيخ "الغزالي" يمارس نشاطاته في ساحة الدعوة عاملا مجاهدا لم يعرف الكلل أو الملل، وقد كان يدعى لسنوات متتابعة لحضور مهرجان (الجنادرية) الذي تتم فعاليته بالرياض، عاصمة المملكة العربية السعودية، لكنه كان يعتذر لظروفه الصحية التي لا تسمح له بالحضور والمشاركة، أما في سنة 1996 التي لقي فيها ربه، شاءت حكمة الله أن يسافر إلى الرياض، للمشاركة في مهرجان (الجنادرية)، أين فاضت روحه الطاهرة مساء يوم الأحد 19 شوال 1416هـ الموافق لـ 9 مارس 1996م. وتحركت طائرة ملكية إلى القاهرة تحمل إلى السعودية أسرته الكريمة، ثم

([219]) طه جابر العلواني، "شيخنا محمد الغزالي –رحمه الله– وصفحات من حياته"، ص 11-12.

([220]) رمضان خميس الغريب، الشيخ محمد الغزالي؛ حياته وعصره وأبرز من تأثر بهم،دار الحرم للتراث (القاهرة), ط1 (1423هـ -2003م), ص 83-84.

تحركت طائرة ملكية أخرى تحمله إلى البقيع، ليدفن مع طليعة خير أمة أخرجت للناس... مع صفوة الصفوة، رضي الله عنهم[221].

لقد كان لخبر وفاة الشيخ "الغزالي" –رحمه الله- دوي هائل في أرجاء العالم الإسلامي كله، بل وحتى خارجه، لم يحظ بمثله الملوك والرؤساء، إذ بكاه الملايين، ونعته وكلاء الأنباء ووسائل الإعلام العالمية، وأقيمت لتأبينه الندوات والمؤتمرات في الجامعات والمراكز العلمية والثقافية في مختلف أنحاء العالم الإسلامي[222].

المطلب الثاني: جهوده وأعماله

رحل "الغزالي" –رحمه الله- مخلفا وراءه تراثا ضخما هو بمثابة "موسوعة فكرية" لها في كل جانب حديث. فقد كتب ما يربو عن الستين كتابا، فضلا عن آلاف المقالات المنشورة وغير المنشورة، كما ألقى آلاف الخطب والدروس والمحاضرات في مختلف بقاع العالم الإسلامي، وغير الإسلامي. "وهذا التراث الكبير، ميزته الأساس أنه متنوع و ثري، فهو لا ينحصر في دائرة فكرية محدودة، وإنما يمتد ليغطي مساحات وميادين فكرية
كثيرة. والسر في ذلك أن الغزالي –رحمه الله- لم يكن مجرد عالم أو باحث أكاديمي يحصر جهوده في دائرة بحثية معينة لا يتعداها ولا يخرج عن مقتضياتها، وإنما كان داعية ومصلحا اجتماعيا، ومن طبيعة المصلح الاجتماعي أن يمد دائرة اهتماماته إلى كل الحدود التي يمكنه أو يوصل دعوته إليها، ويستخدم كل الوسائل التي يراها كفيلة بتحقيق أهدافه والترويج لدعوته"[223].

وفي وصف جامع لمؤلفاته يقول "عبد الحليم عويس": "وقد ألف الشيخ الغزالي كتبا كثيرة، كل كتاب منها يمثل صمودا فكريا، ومقاومة إسلامية للهجمات التي تعرض لها الإسلام في هذا القرن... قرن الاستقلال

المزيف والانهزام الفكري، وليست كتب الشيخ الغزالي مثل كتابات كثير من المؤلفين الذي يؤلفون الكتب، لكي يقدموا للناس فكرا، أو تصورات نظرية، أو إرشادات، أو مواعظ مجردة؛ بل كانت كل كتبه نتيجة معاناة وتجربة نفسية أو اجتماعية أو فكرية، ولذلك فكتاباته ترتبط بالواقع، وتنطلق من التصور الإسلامي الشمولي، وتلبي –في الوقت نفسه- حاجات نفسية أو فكرية أو عملية لدى الأفراد أوالمجتمعات المسلمة وغير المسلمة. هذا –بالطبع ما إذا استثنينا بعض الدراسات التي قدمها تلبية لاحتياجات فكرية، يهدف منها إلى إصلاح مسار الفكر الإسلامي، مثل كتاباته حول

---

(221) أحمد مصطفى فضليه، الإمام محمد الغزالي وشهادة التاريخ، مراجعة وتقديم: محمد عمارة، دار الدعوة (الإسكندرية)، ط1(1422هـ-2002م)، ص 45-46.

(222) مسعود فلوسي، الشيخ محمد الغزالي؛ رائد منهج التفسير الموضوعي، دار الوفاء، ص 45.

(223) مسعود فلوسي، الشيخ محمد الغزالي؛ غصن باسق في شجرة الخلود، ص 140.

(التفسير الموضوعي للقرآن الكريم)، وكتابه (فقه السيرة)، وكتابه (كيف نفهم الإسلام)... وغيرها"[224].

هذا، وقد حاولنا حصر مؤلفات الشيخ "الغزالي" استنادا إلى العدد المتوفر لدينا، وإلى ما تضمنته العديد من المراجع في تعدادها كما يلي[225]:

1- الحياة الأولى: ديوان شعر نظمه الشيخ في شبابه المبكر. أيام كان طالبا في معهد الإسكندرية الديني.

2- الإسلام والأوضاع الاقتصادية: أول كتاب فكري للشيخ، وقد نشر أول مرة سنة 1947.

3- الإسلام والمناهج الاشتراكية.

4- الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين.

5- الإسلام والاستبداد السياسي.

6- من هنا نعلم.

7-تأملات في الدين والحياة.

8- عقيدة المسلم.

9- خلق المسلم.

10- التعصب والتسامح بين المسيحيين والإسلام: دحض شبهات ورد مفتريات.

11- فقه السيرة.

12- في موكب الدعوة.

13- ظلام في الغرب.

14- جدد حياتك.

15- ليس من الإسلام.

16- من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث.

17- كيف نفهم الإسلام.

18- الاستعمار أحقاد وأطماع.

19- نظرات في القرآن.

20- مع الله... دراسات في الدعوة والدعاة.

21- معركة المصحف في العالم الإسلامي.

22-كفاح الدين.

23- الإسلام والطاقات المعطلة.

24- حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة.

25- هذا ديننا.

26- الخديعة... حقيقة القومية العربية وأسطورة البحث العربي.

27- الجانب العاطفي في الإسلام.

28-دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين.

---

(224) عبد الحليم عويس، الشيخ محمد الغزالي؛ تاريخه وجهوده وآراؤه، ص 10-11.

(225) مسعود فلوسي، الشيخ محمد الغزالي؛ غصن باسق في شجرة الخلود، ص 142...185.

29- ركائز الإيمان بين العقل والقلب.
30- حصاد الغرور.
31- الإسلام في وجه الزحف الأحمر.
32- قذائف الحق.
33- الثقافة الإسلامية.
34- الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر.
35- فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء.
36- دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين.
37- واقع العالم الإسلامي في مطلع القرن الخامس عشر الهجري.
38- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية.
39- هموم داعية.
40- مائة سؤال عن الإسلام.
41- علل وأدوية.
42- مستقبل الإسلام خارج أرضه... كيف نفكر فيه.
43- الغزو الثقافي يمتد في فراغنا.
44- سر تأخر العرب والمسلمين.
45- الحق المر (في ستة أجزاء).
46- قصة حياة.
47- الطريق من هنا.
48- جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج.
49- نماذج من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.
50- خطب الشيخ محمد الغزالي في شؤون الدين والحياة.
51- محاضرات الشيخ محمد الغزالي في شؤون الفرد والمجتمع.
52- السنة النبوية بين أهل الفقه والحديث.
53- المحاور الخمسة للقرآن الكريم.
54- كيف نتعامل مع القرآن.
55- صيحة تحذير من دعاة التنصير.
56- أزمة الشورى في المجتمعات العربية والإسلامية.
57- قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة.
58- تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل.
59- نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم.
60- كنوز من السنة.

المبحث الثاني: موقف الشيخ محمد الغزالي من قضية المرأة

المطلب الأول: قضية المرأة في فكر الشيخ محمد الغزالي

أولا: مفهومها وموقعها في فكره

تعتبر قضية المرأة من بين أهم القضايا التي حظيت باهتمام الشيخ "محمد الغزالي" –رحمه الله- الفكري والدعوي- فقد انصب جل اهتمامه لمعالجة أوضاعها المختلفة؛ حيث أفرد لها حيزا هاما من كتاباته واهتماماته الدعوية، وما فتئ هذا الاهتمام يزداد كلما توغل الشيخ في أعماق المجتمع الإسلامي واتضحت له أبعاد المؤامرة الغربية على العالم الإسلامي حتى تكونت – من مجموع كتاباته- صورة واضحة الملامح لهذه القضية التي أشبعها بحثا وتمحيصا.

والمتأمل في فكره يلحظ تلك الحفاوة المميزة بقضية المرأة، وما ذلك إلا لاستيعابه الواسع لكل المضامين الاجتماعية لهذا الدين الذي شمل كل ما يتعلق بحياة الفرد والمجتمع، وإدراكه المبكر بأن إهمال المرأة وانتقاص مكانتها من أهم أسباب انهيار الحضارة الإسلامية.

ويذهب الشيخ في فهم عميق لقضية المرأة، فنجده يؤكد أن "قضية المرأة ليست قضية جنس يسكن المريخ! إنها قضية أمهاتنا وأخواتنا وبناتنا، فنحن مدفوعون إلى بحثها وفي جوانحنا عواطف التوقير والحب والحنان، وهي قضية نصف الأمة، النصف الذي لو حكم بإعدامه ماديا وأدبيا لمات النصف الآخر حتما، فنحن نحفظ ديننا ودنيانا كليهما عندما نحفظ للمرأة وضعها الصحيح في المجتمع"[226].

وقوله هذا يحيل إلى أن قضية المرأة هي قضية كل فرد داخل المجتمع، لأنها تمس أمهاتنا وأخواتنا وبناتنا اللواتي يشكلن نصف المجتمع وبالتالي الأمة. وهو بذلك يدعو إلى ضرورة إيجاد حلول لهذه القضية باعتبارها مشكلة، من خلال محاولة استجلاء وضع المرأة الصحيح في المجتمع، وبهذا الصدد يتقاطع الشيخ "محمد الغزالي" مع المفكر الجزائري "مالك بن نبي" في فكرة أن "مشكلة المرأة هي مشكلة الفرد في المجتمع"[227]؛ فلا يمكن طرحها بمعزل عن مشكلة الرجل. الأمر الذي يتنافى والنظر إلى قضية المرأة كقضية مستقلة.

فهما يرفضان الفكر العربي التجزيئي، الذي يضع المرأة في مواجهة الرجل دائما... فوضع جدار فاصل بين المرأة والرجل يؤدي ضرورة إلى البحث عما يفرق بينهما، وبعد ذلك إلى إيجاد نسب التفاوت والمساواة بينهما، ومع ذلك إلى افتئات على حقيقة الأمر ومحض افتراء[228].

([226]) محمد الغزالي، من هنا نعلم، دار الكتب (الجزائر) , ط(1988) ص 150.

([227]) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 123.

([228]) انظر موقع: إسلام أون لاين, إدريس الكنبوري، مالك بن نبي وقضية المرأة (سبق المؤتمرات الدولية ودعا إلى عقد مؤتمر للمرأة المسلمة).

ولا يتوقف "الغزالي" عند هذا وحسب، بل يذهب إلى أبعد من ذلك، إذ يعتبر أن قضية المرأة هي "قضية الإسلام الذي كذبوا عليه يوم أوهموا الناس أنه يمحق إنسانية المرأة ويخدش اعتبارها ويمنع تعليمها ويعدها للفراش فقط... ليس صحيحا أن الإسلام يعد المرأة (لأنها أنثى) دون الرجل (لأنه ذكر) فرب امرأة أفضل من رجل لأنها أرقى منه عقلا وأسمى خلقا وأنقى ضميرا... وما قيمة اللحى والشوارب في وزن النفوس وعظمتها؟..."[229]. ففي النساء نوابغ وعبقريات كما في الرجال – على حد تعبير القرضاوي-.

والمتأمل في فكره أيضا يلحظ اهتمامه الزائد بقضية المرأة، ويشهد له بذلك علماء وأئمة أمثال: "يوسف القرضاوي" –حفظه الله- إذ يقول: "لم أر من المفكرين الإسلاميين من اهتم بأمر المرأة وإنصافها مثل الشيخ الغزالي"[230].

ويشير "عمار طالبي" إلى الجانب النقدي الممتاز الذي يرى أنه فاق فيه كل من تعرضوا له ألا وهو: "نقده لموقف المجتمعات الإسلامية من المرأة، وتحقيرهم لها وهي الأم والأخت والزوجة والبنت، فهو أكثر الدعاة إنصافا لها، وذودا عن حياضها وكرامتها"[231].

في حين يرى "عبد الحليم عويس" أن ليس من المبالغة اعتبار أن الشيخ "الغزالي" "قاد تيارا لإنصاف المرأة المسلمة من منطلق الرؤية الإسلامية التي تؤصل حقوقها وواجباتها الاجتماعية والإنسانية!!..." [232].

وكل هذه الشهادات تثبت اهتمام الشيخ "الغزالي" بقضية المرأة، ومحوريتها في فكره، وتثمن آراءه ومواقفه المنصفة لها.

لم تخل مؤلفات "الغزالي" من أولى كتبه من جهاد متواصل، فظل يقاوم على جبهتي (الإفراط والتفريط) وكله أمل في تحقيق منهج الوسطية الإسلامية، ويلح – رحمه الله- بقوله: "إننا لا نريد أن ننقل المرأة من عهد الحريم إلى عهد الحرام..."[233].

والحق معه إذ يتمعن في تجاوزات وانحرافات المتعاملين معها التي لا تتعدى في جلها إجحافا أو إسرافا.. من هنا كان يرى أن الكلام في قضيتها "يتذبذب كبندول الساعة إلى أقصى اليمين وإلى أقصى اليسار ولا يستقر مطلقا عند الحد الوسط الذي يطلبه الإسلام"[234]. فقد عاش "الغزالي" حياته مدافعا عن المرأة، ومحاربا

([229]) محمد الغزالي، من هنا نعلم، ص 150.

([230]) يوسف القرضاوي، الشيخ الغزالي كما عرفته، ص.

([231]) عمار طالبي، "الشيخ محمد الغزالي كما عرفته في الجزائر"، ص 68.

([232]) عبد الحليم عويس، الشيخ محمد الغزالي ؛ تاريخه وجهوده وآراؤه، ص 61.

([233]) محمد الغزالي، معركة المصحف في العالم الإسلامي, مكتبة رحاب (الجزائر)، ص 265.

([234]) محمد الغزالي، من هنا نعلم، ص 148.

أوضاعها التي لا تمت بصلة للإسلام، بل الإسلام برئ منها لأنه هو الذي صان شخصية المرأة ورد كل عدوان عليها.

وظل الرجل يتساءل: من المسؤول عما أصاب المرأة ؟! "لما يحرض بعض الشيوخ على تصوير الإسلام سجانا للمرأة وحسب ؟"[235].

فمن منطلق غيرته على الإسلام، وحرصه على انتشاره في كامل أرجاء المعمورة ينتهي إلى القول: إن "الثغرة التي ينفذ منها أعداء الإسلام إلى بيضتنا ونحن نقاوم الغزو الثقافي هي موقف بعض الشيوخ من قضايا المرأة، فهم يقفون أحجارا صلبة أمام كل الحقوق التي قررها لها الإسلام يريدون تعطيلها أو تشويهها"[236].

ومن المؤكد أن أعداء الأمة لن تقر لهم عين ولن يهدأ لهم بال, بأفضل من هذا الذي يقوم به بعض شيوخ الإسلام نيابة عنهم. الأمر الذي لا يكاد ينقضي له أسف "الغزالي" لحظة؛ فأعداء الإسلام يتصيدون له الفرص بشغف لتشويهه, وإثارة التهم من حوله والطعون التي قد تجد طريقها إلى القلوب الفارغة والضعيفة، من العامة وذوي الثقافة الإسلامية المحدودة، فتخدش عقيدتهم، وتجعل نظرتهم لدينهم نظرة تكتنفها الريبة والشك، لا سيما في ميدان المرأة.

لذلك لم يفت شيخنا "الغزالي" أن ينقد نقدا شديدا مسالك بعض المسلمين المعوجة في معالجة قضايا المرأة ومخالفاتهم المستغربة للإسلام في أسلوب حياة المرأة، ... وينكر على أولئك المتدينين القاصرين الذين يسيئون إلى الإسلام من حيث ينشدون خدمته مواقفهم المتسمة بالسلبية والعجز. ومرد ذلك –في نظره- هو تناولهم المشوب بالجهالة والغموض لقضايا المرأة، ...المحتكم إلى أهوائهم وأوهامهم، لا إلى ما أنزل الله[237].

إن الشيخ "الغزالي" يريد إعمال النصوص المكتوبة أو المفهومة من سيرة الرسول ـصلى الله عليه وسلم ـ وسلفه الأول؛ إذ يعرض لأمر بالغ الخطورة يمس قضية المرأة، وهو إسناد معظم قضاياها إلى مرويات موضوعة أو واهية صححها الغرض المدخول، الأمر ذاته الذي يتجه "محمد حسين فضل الله" نحو نقده، ونتلمس ذلك في اعتقاده بوجوب الاحتكام إلى منهج علمي موضوعي في دراسة الموضوعات المتصلة بالمرأة، من ذلك إجراء فحص شامل للأحاديث المتداولة، وتمحيصها والتثبت من صدورها عن النبي ـصلى الله عليه وسلم ـ وكذا التأكد من صحتها أو ضعفها. ولعله –فيما يبدو لنا- ظل تشابها في منهج التفكير لدى كل من الشيخ "الغزالي" و"محمد حسين فضل الله" مع الاختلاف في مصادر الاستدلال؛ ذلك أن الشيخ "الغزالي" لا يختص بنقده أحاديث ونصوص بعينها.. أما "محمد حسين فضل الله" فيأتي تركيزه بالدرجة الأولى عما نقل عن الإمام علي في "نهج البلاغة" من

---

(235) محمد الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل, دار المعرفة(الجزائر), ط(1999)، ص 67.

(236) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، دار ريحانة (الجزائر), ص 33.

(237) محمد الغزالي، حصاد الغرور، دار الشهاب (باتنة), ط(1986), ص 193.

قوله: "إن النساء نواقص العقول، نواقص الحظوظ، نواقص الإيمان"، وقوله: "المرأة شر كلها، وشر ما فيها أنه لا بد منها" وغيرها مما ينقل عن علي ـرضي الله عنه ـ[238]. ومما أسهم في ذلك، التباين الواضح للاتجاه الذي يمثله كل منها ويدعمه.

وحسبما يرى الشيخ "الغزالي" أن تردد المرأة على المساجد مثلا وكذا تزودها بالعلم "سنة يساندها التواتر"، لكن سرعان ما نشأت وجهات نظر عدة، وتسربت الأفكار المتشددة من هنا وهناك، فحرم عليها هذاوذاك... وهذه الوجهات في نظر شيخنا لا تعدو أن تكون "فهما رديئا لأثر ما أو إتباعا أعمى لحديث موضوع..."[239].

فهو يؤكد أن قضية المرأة لم تعالج على ضوء النصوص, بقدر ما عولجت على ضوء ملابسات نفسية أخرى يتبناها ناس مصابون بسوء الظن، وشدة الغيرة، وتصديق الأوهام... فإذا انضم إلى هؤلاء أتباع الشائعات العلمية والآثار التافهة التي تعمل على تشويش قضية المرأة، وتضفي عليها حيرة وغموضا، زاد التعقيد الذي يكتنف قضية المرأة[240].

ومن خلال تحليله لهذه الجزئية يكشف أن قضية المرأة لم تلق علاجها المستمد من العلم الصحيح؛ حيث عولجت ـكما يقول- بعقد نفسية، وأمزجة سوداوية، وقصور يدعي الغيرة، ويتطاول على الحقائق[241].

فمشكلة المرأة، إذن، ليست متعلقة بالنصوص، بقدر ما هي مرتبطة باستيعاب حركية الواقع الاجتماعي وبمستوى توظيف العلم والمعرفة في استيعاب علاقة النص بالواقع والعلاقة الجدلية بينهما.

ويتبدى جليا في كتاباته أنه يتخذ من كتاب الله وسنة رسوله مرجعية لكل أفكاره المتعلقة بالمرأة، رافضا بذلك ما يخرج عن دائرة الصحيح والمتواتر من أحاديث موضوعة أو واهية.

إن اهتمام الغزالي بقضية المرأة كان تجاوبا مع الحالة الاجتماعية لعصره وتأثره بها، وحسب "رمضان خميس الغريب" فإن من ملامح هذا العصر الاجتماعية عن المرأة تطور وضعها وانتقالها من مرحلة القبوع خلف الجدران إلى مرحلة السفور.

وقد كان لكلا المرحلتين قصدا ذميما، والغزالي بدوره نظر إلى القضية نظرة إسلامية واقعية مستمدة من القرآن الكريم والسنة وصحيح الأثر؛ فنعى على من فرط أو أفرط على السواء، وعالج القضية في كتابه "قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة"[242].

([238]) جميلة كديور، المرأة رؤية من وراء جدر، ص 155.. 157.

([239]) محمد الغزالي، مائة سؤال عن الإسلام، مكتبة رحاب (الجزائر), ط(1419هـ -1999م), ص 429.

([240]) محمد الغزالي، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر, دار الهدى (الجزائر), ط(1988)، ص 74.

([241]) المصدر نفسه، ص 76.

([242]) رمضان خميس الغريب، الشيخ محمد الغزالي؛ حياته وعصره وأبرز من تأثر بهم، ص 167.

ومن ثم فقد جاء اهتمامه بالقضية ثمرة نضج فكري ومعرفي وثقافي، ووعي حقيقي بمدى تأثير المرأة في الفرد والمجتمع وبالتالي في الأمة ككل.

فنجده تارة يصحح نظرات اجتماعية طغى فيها جانب التقليد على الحقيقة الإسلامية في قضايا المرأة...، وأخرى يدافع عن الإسلام المتهم باحتقار المرأة وامتهان الأنوثة مشيرا إلى أن "الصورة التي حسبت إسلاما وما هي بإسلام؛ أن المرأة كائن ناقص متهم، يحبس في البيت، محروما من العلم والارتقاء، ومن كل نشاط اجتماعي

أو سياسي يمس حاضر الإسلام ومستقبله... لا ترى أحدا ولا يراها أحد، لا تعرف طريقا إلى مسجد أو مدرسة، لا يسمح لها بعمل ذكي جاد في أي أفق من آفاق الحياة، لا مجال لها في أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو جهاد عن الإسلام حين يغار عليه!! لا يسمع شهادتها في الدماء والأعراض! ولا تقبل لها ولاية في أمر من الأمور!! وعند الزواج لا يسمع لها رأي، وقد تبلغ مرحلة العنوسة ثم سن اليأس وأولياؤها يرون أن الكفء –في نظرهم-لم يتقدم لها، فتشيخ وتموت عذراء!!..."[243].

ويمكننا القول انطلاقا من هذا الرأي إن الإسلام في دنيا المسلمين وعلاقتهم بالمرأة لا يزال قيد التنظير ولم يدخل بعد حيز التطبيق في هذا المجال؛ لذا يرى الغزالي بأن الإسلام شيء، واتجاهات الناس في معاملة المرأة شيء آخر. ولعل خير من يشاطره الرأي هنا "محمد حسين فضل الله" حين يعتقد بوجود هوة سحيقة بين ما هو نظري وما هو تطبيقي من الدين، حتى بالنسبة لأولئك المثقفين ثقافة دينية، فلا زالت الزاوية التي ينظرون منها إلى قضية المرأة ضيقة، ويتجسد ذلك في تطبيقاتهم[244].

وصفوة القول أن الشيخ محمد الغزالي عاش حياته مدافعا عن المرأة، غيورا على مكانتها في الإسلام كأشد غيور، وأمله أن تسلم من كل ما يلتبس بأوضاعها مما ليست له صلة بالإسلام الصافي.

إن كل ما ذكرنا وإن دل على شيء إنما يدل على احترام الشيخ "الغزالي" وتقديره للمرأة، وإدراكه الحقيقي والصادق لمركزها الحساس، وهو صاحب الحس المرهف والعقل الراجح في معاملة المرأة.

وبدافع تشخيص واقع المرأة –في عصره- المترامي الأطراف بين الجهل والعمى وبين الغيِّ والهوى، وقف الشيخ –رحمه الله- بكتاباته يسبر أغواره، ويكشف آثاره التي تنعكس لا محالة على الأمة جمعاء؛ وقد أبان أن "المرأة المطروحة وراء سجن الجهل والعمى، يموت معها نصف الأمة ويمرض النصف الآخر، والمرأة المتروكة للغي والهوى، تضطرب معها الأمة كلها ويلعب بزمامهم شيطان"[245].

---

(243) محمد الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، ص 66.

(244) جميلة كديور، المرأة؛ رؤية من وراء جدر، ص 154.

(245) محمد الغزالي، ليس من الإسلام، دار القلم (دمشق)، ط1 (1420هـ -1999م)، ص 244.

وينتهي الغزالي بعد هذا التشخيص إلى تقرير أنه "لا مجتمع يصلح عندما تكون المرأة حيوانا يحسن تقديم الأكل والمتعة وحسب!"[246]، يأتي هذا كنتيجة منطقية لوعيه التام بمدى أهمية وخطورة دور المرأة في البنى القاعدية للأسرة والمجتمع. انطلاقا من مهمة التربية وإعداد الفرد الصالح. وفي اعتقاده أن المرأة التي لا تكون إلا قعيدة بيتها؛ ليس لها إلا خدمة هذا البيت من تنظيف وطهي وتقديم للأكل والمتعة...، لا يكون لها تكوين فكري، ولا تأهيل تربوي..، لا يمكنها تقديم جيل قادر مؤهل لأداء وظيفة الإستخلاف بشتى أبعادها.

ثانيا: لمحة عن اهتمامه بقضية المرأة منذ المراحل الأولى لحياته

إن اهتمام الشيخ "الغزالي" بقضية المرأة لم تختص به مرحلة دون أخرى من حياته، بل بدأ مبكرا وتوالت اهتماماته تبعا لظروف وملابسات حياة المرأة -أينما كانت وكيفما كانت- منذ أوائل كتبه في الدفاع عن حقوقها المهدورة، وضرب مالا يمت بصلة للإسلام يمس بجل أوضاعها الحياتية من عادات وتقاليد "شرقية راكدة" أو "غربية مستوردة" على السواء.

وذلك كاعتراضه على القرار الصادر عن الرئيس المصري "جمال عبد الناصر" حول: حرية المرأة ومساواتها بالرجل، وطلبه العودة بالمرأة إلى الآداب الإسلامية التي تفرض عليها الاحتشام وتقيم وزنا لمكانتها في الحياة العامة في خطاب الواحد والعشرين من مايو 1962م: "... وفي 21 مايو 1962 خطب الرئيس المصري خطابا أمام المؤتمر الوطني للقوى الشعبية فتعرض لقضية مساواة المرأة بالرجل في كل الأمور، فقام الشيخ الغزالي وهو عضو في المؤتمر ليعرض وجهة النظر الإسلامية، فطالب بالتزام شرع الله فيما يخص المرأة والرجل، فطالب بتخفيف العبء على المرأة والحد من الأمور التي تخرجها عن طبيعتها الأنثوية، وكانت العاصفة، فصبت جريدة الأهرام جام غضبها على الشيخ الجليل، واتهموه بالرجعية، وتطاول رسام الكاريكاتور الشيوعي صلاح جاهني برسومات وزجل يلمز فيها الإمام، فقامت عقبها مظاهرات ضارية ضد المتطاولين على الشيخ"[247].

وكذا تركيزه المبكر واهتمامه الزائد بقضية هي من أكثر القضايا وأخطرها -في الوقت نفسه- على المجتمع؛ ألا وهي لباس المرأة المسلمة. وهو القائل في أثناء حديثه عن الأخلاق في مقال له "كيف تصان الأخلاق": "هَبْك رجلا عفيفا، إنَّ مما يحفظ مروءتك ويصلح سريرتك أن تحيا في مجتمع تحتشم فيه المرأة، وتختفي فيه المثيرات، فذلك أصون للعرض وأعون على الطهارة..."[248] وانطلاقا من هذه

([246]) محمد الغزالي، الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية، دار نهضة مصر (القاهرة)، ط3(2003م)، ص 15.

([247]) علاء محمد الغزالي، السيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالي، ص 188.

([248]) محمد الغزالي، ظلام من الغرب، دار الشهاب (باتنة)، ط(1986)، ص 225.

الفكرة يصبح الحديث عن اللباس مرتبطا بالحديث عن الأخلاق، فشيخنا –رحمه الله- يكشف عن مقصد شرعي في قضية إلزام المرأة باللباس المحتشم الذي يصون عين الرجل من الوقوع على مفاتن المرأة.

وفي أثناء حديث الشيخ "الغزالي" عن قصة حياته يروي موضوع مداخلته في أحداث المؤتمر الكبير المنعقد لمراجعة وإقرار "الميثاق الوطني" قائلا: "... ومضيت في شرح للحقائق الإسلامية الضائعة مطالبا بعودة المجتمع إليها... وبعد ربع ساعة تكلمت عن "الملابس"... وبالنسبة للنساء يكون ساترا للجسم كله ما عدا الوجه والكفين، قلت: ولعل أقرب مثل له زي الراهبات المسيحيات أو الفلاحات المصريات!!" [249]

بالإضافة إلى ذلك فقد شرح موقف الإسلام من المرأة، ثم بين أخطار فصل قضية المرأة عن الدين، حاملا بذلك حملة شعواء على الإباحيين وفاقدي الشعور الديني في مصر وغيرها[250].

وواضح من هذا عمل الشيخ "محمد الغزالي" وسعيه على تقريب الأفهام للزي العام للحجاب الشرعي، حين يعطي مثالا من بيئته هو أقرب من غيره من الشروح والتفصيلات، وهو زي الفلاحات المصريات وهو نظرا لنشأته في البيئة الريفية، وكذا مثال زي الراهبات المسيحيات، نظرا لاستيفائه شروط الحجاب الشرعي، ولعل هذا ما يجسد فكره الواقعي في خدمة الدعوة، فقد ظل "الغزالي" موصولا بالواقع وتيارات الحياة المختلفة.

وهذا من دون شك ينم بعمق على أن قضية المرأة قد شغلت بال الشيخ منذ المراحل الأولى من حياته؛ إذ كان يفرد لها حيزا هاما في اهتماماته باستمرار، وظلت معه تتطور وتتبلور معطياتها حتى آخر أيامه. وعليه ندرك أن مثل هذه القضايا لا تنتهي عند حدود الرأي الواحد أو المؤتمر الواقع أو وقت معلوم بعينه، وإنما هي من القضايا الوجودية الإنسانية التي تطرح أزماتها في كل عصر، حسب ملابساته ومعطياته وظروفه.

ثالثا: دواعي اهتمام الغزالي بقضية المرأة

وضحنا فيما مضى، أن قضية المرأة تتخذ بعدا واسعا في فكر الشيخ "محمد الغزالي", حيث يجعل منها قضية الأمة وقضية الإسلام. ومن مبحث هذا الاستعياب يؤمن شيخنا بأن حفظ الدين والدنيا معا لا يتأتى إلا بحفظ الوضع الصحيح للمرأة في المجتمع. فالمرأة المسلمة تحتل نصف الأمة في العدد، هذا صحيح؛ ولكن النصف الآخر مرهون بقاؤه وصلاحيته بها، نظرا لما تملكه من قدرة في التأثير –إيجابا وسلبا- في محيطها وأسرتها...، ومن هنا كانت قضيتها قضية المجتمع كله، والواقع

([249]) محمد الغزالي ,"مقتطفات من مذكرات الشيخ" ، ص 206.

([250]) المرجع نفسه، ص 207.

يقرر بأن علاجها والوقوف عندها يكون باستحضارها مشكلة تستوجب إيجاد حلول يسعى إليها المصلح الواعي بمشكلات أمته، وهذا ما يؤكده "رمضان خميس الغريب" حيث يقول: "... ومن هنا كان العلاج لها والوقوف عندها من ضرورات المجتمع الراقي ومن أساسيات المصلح الذي يبغي لأمته أن تصل في مدارج الرقي إلى ذروته"[251].

ولا يخفى على من يتتبع وضع المرأة في مراحل التاريخ الماضي والحاضر أنها ظلمت مرتين؛ مرة لما حرمت من كل حقوقها المادية والأدبية... باسم الدين، وأخرى لما أطلق لها العنان بدون أدنى قيود لكي تجرفها عواصف الشهوات فصارت هي والرجل سواء.. وهذا باسم التقدم والحرية، أو مستلزمات الحضارة الحديثة. من هنا انطلقت صيحات الشيخ "الغزالي" عالية لإنصاف الإسلام من الأفهام الخاطئة والتقاليد الزائفة التي قامت على إمساك النساء في البيوت أبد الدهر وجمدت نشاطهن الإنساني، وعلى حد قول الشيخ "الغزالي" فقد جعلتهن أصفارا دينا ودنيا... وبالمثل انطلقت صيحاته لتخطئة أصحاب النظريات المدنية التي ظل كل همها نقل حضارة وتقاليد الغرب الفاسق إلى بلادنا، وكذا نقل العلاقة القائمة بين الجنسين هناك إلى هذه الأمة الطاهرة النقية...[252].

وموقف الشيخ من الحصار المفروض على المرأة من أصحاب النظريات الدينية، وكذا الحرية المتطرفة التي تنادي بها النظريات المدنية، جدير بالتأمل والتوقف عنده، وهو موقف ينسجم مع شخصيته الدعوية، ونهجه الوسطي المعتدل في التعامل مع قضية المرأة؛ ولنا أن نلاحظ بعد ذلك غرضه من وراء تلك الموقف والمواجهات، إذ يتجلى هاجس الحرس على تقديم الصورة الصحيحة للإسلام داخل وخارج أرضه[253].

ومن ثمة كان لاهتمامه –رحمه الله- أبعادا دعوية أكثر منها شرعية وإنسانية واجتماعية وغيرها...، فنجده ينشد مصلحة الدعوة سعيا منه في تحدي واختراق كل ما يقف في طريقها، ودفاعا متواصلا عن الإسلام بالوقوف في طريق المجهودات المسيئة لصورة الإسلام، بدافع التخويف والتنفير منه لا غير.

وانطلاقا من تقديم صورة حسنة للإسلام تتدعم صفوف المسلمين أكثر فأكثر، الأمر الذي يحافظ على ديمومة هذا الدين وحيويته وصلاحيته لكل عصر ومصر، وما نستشفه هاهنا أن أمرا ذا أهمية قصوى يوليه الشيخ "الغزالي" حرصه البالغ

([251])رمضان خميس الغريب، محاور المشروع الفكري لدى الشيخ محمد الغزالي، دار الحرم للتراث (القاهرة)، ط1(1423هـ-2003م)، ص 75.

([252]) محمد الغزالي، معركة المصحف في العالم الإسلامي، ص 265.

([253]) لاسيما في وقت "الدعايات في أوروبا وأمريكا ناشطة لإبراز الإسلام في هذا الإطار الظاهر، وإبراز المرأة المسلمة ومكانتها الاجتماعية صفر..".

أنظر: محمد الغزالي، مستقبل الإسلام خارج أرضه؛ كيف نفكر فيه, دار الكتب (الجزائر), ط(1987), ص 57.

ليحتل الصدارة والأولوية، متمثلا في خدمة الدعوى الإسلامية وتمكين أسلوب الإسلام في الحياة.

وفي هذا المضمار نستقرئ كلاما نفيسا للشيخ "الغزالي" عن المرأة، وقد أبان من خلاله مكانتها في الإسلام ونظرته لها. قائلا: "ونحن نؤكد مرَّة ومرّة أن مكانة المرأة المسلمة في المجتمع المسلم شيء آخر غير ما يقع في أوروبا وأمريكا الآن للنساء، وشيء آخر غير ما يقع في أقطار واسعة من العالم الإسلامي حيث شخصية المرأة ممحوقة من الناحية الدينية والثقافية، وقد تكون باقية للحديث عن ثوب غال ثمين وحلية نفيسة أما عدا ذلك فهي منه صفر...!"[254]، والذي بدا لنا أن الشيخ "الغزالي" يدعو إلى بلورة شخصية المرأة مما يتفق مع الصورة التي خصها بها الدين الإسلامي على مستوى التطبيق. وذلك بمنئًا عما يمليه واقعها في أوروبا وأمريكا، وكذا بعض أقطار العالم الإسلامي حيث تختفي وراء جدران بيتها، لتكون فريسة الجهل المركب.

إن "محمد الغزالي" يعيب كثيرا على بعض المسلمين في قصورهم العلمي الذي دفع بهم إلى إصدار أحكام عمياء لا تعرف إلا المنع والتحريم، كما يعيب على البعض الآخر تطاوله على الحقائق المتصلة بالدين الصحيح، فعنده أن سوء الفهم وسوء العمل يجران بلاء كبيرا على الإسلام، لا سيما حين يتعلق الأمر بالمرأة. ومن أجل ذلك نراه يرد بقوة وبشيء من الحدة على الشاغبين على أحكام الدين الصحيح المستهترين به، يقول متذمرا: "إن بعض المسلمين يعرضون دينهم مزورا، دميم الوجه، ثم يذمون الناس لأنهم رفضوه، وعندي أن هذا البعض
الجهول يجب سجنه أو جلده، لأنه صاد عن سبيل الله، فتان عن الحقيقة التي صدع بها صاحب الرسالة الخاتمة عليه الصلاة والسلام"[255].

وانطلاقا مما ذكرنا، يظهر جليا أن شيخنا يقرر أمرا بالغ الخطورة على مستقبل الإسلام، ممثلا في اتساع الهوة بين الأمة الإسلامية، والإسلام الصحيح في كل ما يخص شؤونها الداخلية والخارجية، وهو ما أخفى وجه الإسلام الحق. وتقريرا للواقع الإسلامي يؤكد –رحمه الله- أن المسلمين قد ظلموا دينهم مرتين: الأولى بسوء التطبيق، والثانية بالعجز عن التبليغ، لقد وضع "الغزالي" يده على الداء وأدرك بخبرته الواسعة من انشغاله بالدعوة الإسلامية مكمن الخلل وموضع العلة، وينتهي بعد هذا التشخيص إلى القول إن: "سوء التطبيق عرض الدين نفسه للتهم حتى قيل: إنه ضد الفطرة والحرية والعقل، والعجز عن التبليغ أبقى جماهير كثيفة في المشارق والمغارب، لا تدري عن الإسلام شيئا يذكر"[256].

فأفكار الشيخ "الغزالي" ومواقفه كلها تصب في مصب واحد هو خدمة الإسلام والدفاع عنه، والدعوة إلى فقهه على وجهه الصحيح ومن ثم حسن العمل به والعمل له، كل هذا وذاك في سبيل نشر الإسلام ورسالته، وإنصاف الشريعة ومحو الغبار الذي أخفى معالمها وأغبش حقيقتها وصفاءها. الأمر الذي نراه مبثوثا في كل صفحة

([254]) محمد الغزالي, الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، ص 75.

([255]) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص 12.

([256]) محمد الغزالي، المحاور الخمسة للقرآن الكريم، دار المعرفة (الجزائر), ط(1999), ص 63.

من صفحات كتبه, مترجما عن اهتمام "الغزالي" الملحوظ وحرصه الشديد على الإسلام.

وقد أثبت الشيخ "الغزالي" حرصا قل نظيره في العصر الحديث على حاضر ومستقبل الإسلام. والملفت لذلك تعميقه للصلة والربط بين صورة المرأة في الإسلام ومدى قوة الجاذبية أو التنفير الذي قد يكتسبه الإسلام انطلاقا من الصورة المستحضرة من واقع المرأة؛ العلاقة التي تترجم عنها حيرته وأدقه على مستقبل الإسلام في قوله: "بقي ما يريب أوروبا من الإسلام أمر المرأة! فقد زعم الزاعمون أن الإسلام يهينها وينتقص إنسانيتها..."[257]. وفي ضوء هذا التصريح يمكننا أن نفهم منهجه المعتمد في تناول جل القضايا وهو "النظر في مآلات الأفعال والأحكام الضابطة لها..."[258]. ومن هنا نفهم حملته على خطباء المساجد الذين يقولون بأن المرأة لا تخرج من بيتها إلا إلى الزوج أو إلى القبر، ورفضه لحبس المرأة بين جدران البيت، فلا ترى رجلا ولا يراها رجل...الخ، مؤكدا بذلك أن تعاليم الإسلام الحقة المستمدة من الأصول الصحيحة لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تعرض عن قبولها واتخاذها منهج حياة الغربيات الواعيات العاقلات؛ لكننا –وللأسف الشديد- لم نحسن عرض ديننا، فقدمنا له صورة تثير الاشمئزاز، ولشيخنا "الغزالي" في ذلك مثال شاهد على واقع الأمر يقول: «وفي خطاب لأحد الدعاة المشاهير قال: "إن المرأة تخرج من بيتها للزوج أو للقبر! ثم ذكر حديثا: "إن امرأة مرض أبوها مرض الموت فاستأذنت زوجها لتعوده فأبى عليها! فلما مات استأذنته أن تشهد الوفاة وتكون مع الأهل عند خروج الجنازة فأبى... قال الخطيب: فلما ذكرت ذلك لرسول الله قال لها: إن الله غفر

لأبيك لأنك أطعت زوجك!!"»[259]، وفي تعقيب "للغزالي" عن الحديث يقول فيه: «والحديث المذكور لا يعرفه رواة الصحاح، وهو يقطع ما أمر الله به أن يوصل! ويرخص الوفاء بحق الوالدين، وهدفه أن لا تخرج المرأة من البيت أبدا، وهو هدف ينكره الإسلام، وفي الحديث الصحيح: "إن الله أذن لكن أن تخرجن في حوائجكن"»[260].

إن هذا العرض المغشوش يضرب الإسلام في أعماقه ويسيء إليه وهو ما يحزن شيخنا ويثير غضبه، ولا يأتي رده على مثل أولئك الدعاة والأئمة لإثبات المعارضة، وتوجيه النقد المدعم بالحجة المنطقية الصحيحة فحسب، وإنما المقصود عنده هو التأكيد على الإحاطة الشاملة -للمتحدث باسم الدين- بكامل نصوص الدين (قرآنا وسنة)، مع وجوب فهم الأحاديث منسجمة مع حقائق الدين ومقاصد الشريعة.

([257]) محمد الغزالي، هموم داعية، دار الشهاب (باتنة), ط(1992), ص 65.

([258]) فتحي حسن ملكاوي، العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، [علي الصوا، الشيخ الغزالي ومنهجه في الفقه]، ص 165.

([259])و(2) محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، دار المعرفة (الجزائر), ط(1999), ص 43.

(3) محمد الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، ص 48.

وقد أكد حقيقة انزعاجه من أثر الدعاة على الدعوة الإسلامية، مما يسجله في قوله: «... ما الذي دعا الشيوعيات إلى التصايح ضد قانون الأسرة في الجزائر والمطالبة بإلغائه؟ الذي دعا إلى ذلك خطباء ودعاة إسلاميون، تحدثوا عن موقف الإسلام من المرأة حديثا استفز أولي الألباب وبعث في النفوس الوجل في مستقبل يستولي فيه أولئك الإسلاميون على الحكم! يقول أحدهم: الإسلام يرى بأن المرأة إنما خلقت لتلد الرجال!! ويقول ثان: لا تكتب ولا تحسب! ويرفق رابع بها فيقول: حسبها إتمام المرحلة الابتدائية في التعليم، وما وراء ذلك لا داعي إليه...!»[261].

ونجده بعد طول تصحيح لما يعتري أفهام المسلمين من أخطاء، ولما يكتنف أنفسهم من ترهات وأباطيل يستشعر مستقبل الإسلام، فيتنبأ بأنه مستقبل في مهب الرياح إذا ما بقي "الفكر العفن" –على حد تعبير "الغزالي"- مستعمرا آفاق الحياة بشتى جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية على النحو الذي يتبناه بعض دعاة الإسلام وينشرونه، والنتيجة المنطقية لكل ذلك هي الحكم على الإسلام بالطرد في كل ميدان...[262].

من أجل كل ما ذكرنا نقتطف من كلام الشيخ المطول في هذا الشأن قوله: "إننا ندعو إلى الإسلام، لا إلى الإقتداء بالمسلمين! ندعو إلى الكتاب والسنة، لا إلى سيرة أمة ظلمت نفسها، ولم تنصف تراثها، ذلك أن دين الله جدير بالإتباع أما مسالكنا نحن فجديرة بالنقد والبعد...!"[263]. وعلى غرار هذه المعطيات التي تطرحها مواقف الشيخ، يمكننا أن نستشف في الأخير بواعث اهتمامه بقضية المرأة والمحاور التي ارتكزت عليها:

1- حرص "الغزالي" الشديد على الدفاع عن الإسلام في وجه خصومه وأعدائه من الجاهلين أو الجاحدين من ذلك ما تعلق بقضية تمس المجتمع ككل وهي "قضية المرأة".

2-إدراكه المبكر للعلاقة الوطيدة التي تربط قضية المرأة بقضية الإسلام وقضية الأمة، وحرصه على أن تفهم قضية المرأة في ضوء تعاليم الدين الصحيح، ورفضه لما علق بشؤونها من أفهام خاطئة وتقاليد زائفة.

3- ومع كل هذا, يتبدى لنا جليا حرصه واهتمامه البالغين على مصلحة الدعوة وخدمتها دافعا ملحا للاهتمام بالقضية, وكذا سعيه المتواصل لتمكين أسلوب الإسلام في الحياة.

([261]) المصدر نفسه, ص52-53.

([262]) محمد الغزالي, مستقبل الإسلام خارج أرضه, ص149.

المبحث الثالث: المرأة بين التقاليد الراكدة والعادات الفاسدة

المطلب الأول: المرأة بين الجمود والتقليد "وجوب التفرقة بين ما هو دين وما هو عادات وتقاليد".

أولا: أثر التقاليد البعيدة عن الإسلام في حياة المرأة المسلمة "التقاليد السائدة"

إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي صان شخصية المرأة، ورفع منزلتها، وأعطاها مكانتها الحقة، وكرمها أيما تكريم، فسوى بينها وبين الرجل في كل التكاليف العبادية وأفعال البر فأرجحهما عند الله ميزانا أكثرهما سعيا وتقى...!! وقد عبر الشيخ "الغزالي" عن ذلك فقال: "والإسلام بنى الكيان الأدبي للمرأة على دعائم راسخة. ولا نعرف نظاما في الأولين والآخرين أولى النساء بهذه الرعاية وأسدى لهن هذه الكرامة"[264].

لكن، -وللأسف الشديد- تتحول هذه المفاهيم الإسلامية، والمكانة الأدبية المرموقة للمرأة في المجتمع الإسلامي لتسلك خط الانحراف بسيطرة الضلال الفكري المتعصب الذي يرضخ أتباعه للأهواء والأوهام، ويسعون لتعطيل نصوص الوحي، وإهمال أحكام الشريعة في شؤون النساء... ولا ريب، فقد كان من وراء ذلك أن ظلمت المرأة ظلما شنيعا، وتراجعت تراجعا محسوسا أفقدها حقوقها الطبيعية وخصائصها الإنسانية، وأعادها إلى ظلمة تقاليد الجاهلية، وعلى غرار ذلك يأتي "الغزالي" ليرصد وضعها قائلا: "ثم ساء وضع المرأة في القرون الأخيرة مع جمود العقل الإسلامي، وضياع نضرته، وسيطرة الترهات والأوهام على اتجاهاته!! ولا عجب فهل يرجى بقاء المرأة في المكانة التي بوأها الإسلام إياها، مع انحدار المجتمع كله؟ وذهول الرجال عن وظيفتهم في الحياة؟ وغيبوبة الأمة كلها عن وعيها!..."[265].

إن المسلمين في واقع حياتهم المعاصرة قد ضيعوا الكثير من هدي الدين، لا سيما ما يتعلق منه بشأن المرأة، والعلاقات بين الجنسين... من هذا المنطلق، أخذ "الغزالي" يجابه هذا الحيف والانتقاص من قيمة المرأة بكل ما يملك، مندداً بتقاليد بالية تسربت إلى الأمة الإسلامية من عهود الانحطاط والضعف والتبست بنظرة الإسلام الصحيحة للمرأة، وتوضيحا لجهوده في هذا الميدان يقول: "ولست أعيد هنا كلاما سبق أن بسطت أطرافه في كتبي الأخرى (من هنا نعلم)، (الإسلام والطاقات المعطلة)،(حقوق الإسلام بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة)، (فقه السيرة) وغيرها. إن الذي يطلع على ما كتب في هذه المؤلفات يدرك أني أنصفت الإسلام من الأفهام الخاطئة والتقاليد الزائفة التي قامت على إمساك النساء في البيوت حتى

---

(264) محمد الغزالي، الإسلام والطاقات المعطلة، ص 103.

(265) المصدر نفسه، ص 107.

يتوفاهن الموت، والتي جمدت نشاطهن الإنساني وجعلتهن أصفارا في الدين والدنيا"[266].

والحق أن تلك التقاليد مرض خبيث يئد المرأة معنويا؛ لأنها تسحق شخصيتها وتجتاح كل حقوقها المادية والأدبية، ثم تعتبرها من سقط المتاع... يصطلح الشيخ "الغزالي" على هذه النظرة الوضيعة بـ "الإعدام

الأدبي"[267]، وهو ما ذهب إليه "مالك بن نبي" إذ يؤكد قائلا: "إننا لا نئد البنات اليوم، لأن قانونا ورثناه عن الإسلام لا زال يمسكنا، ولأن قانونا جنائيا يقفنا عند حدنا ولكن إذا لم ندفنهن على قيد الحياة في التراب، فإننا ندفهن في الجهل"[268].

ولا تعدو أن تكون دوافع هذا الوأد غير واحدة، فقد نظر فيها بعضهم فوجد مردها إلى ضعف الالتزام الديني للرجل، ثم الغيرة التي يجدها في شأن المرأة والتي تزين له دائما مضاعفة الوسائل لاحتكارها والتحفظ عليها ولإطلاق يده للاستبداد بها تأكيدا لحيازتها والاختصاص بها. وهذا الأخير هو "الدافع الغريزي" الذي يختفي وراء سلوكات الرجل المتطرفة ناحيتي اليمين أو اليسار في معاملة المرأة. ومن الدوافع أيضا، اتخاذ الكثير من الحيل الفقهية لتكييف الشريعة بما يناسب الأعراف القديمة. كإطلاق النصوص المقيدة والتوسع في تفسير الأحكام المتعلقة بمظهر المرأة ومسلكها والتشديد في تقديرها، بينما يقع التضييق والحصر في كل حكم يثبت لها حقا أو أكثر...الخ

في حين يأتي استغلال باب سد الذرائع بفرض القيود المفرطة بحجة خشية الفتنة... دافعا آخر للحجر على المرأة وشل حراكها وعزلها عن المجتمع ككل[269].

لقد أدرك الشيخ "الغزالي" كل تلك الدوافع، وأطلق عليها ما أسماه بـ: "العلم الديني المغشوش"[270]، هذا العلم الذي يبنيه أتباعه على لي النصوص أو تحريف الكلم عن مواضعه، باختلاق الأحاديث، أو تقوية الضعيف منها، أو إهمال الصحيح وطرحه جانبا. وبهذا الصدد يقول مصورا هذه الحقيقة: "الحق أن نصوصا صحيحة أهملت عمدا، أو حرف معناها، وقدمت عليها أحاديث موضوعة تحض على جعل النساء أميات، أو أخبار واهية تفيد أن المرأة لا ترى أحدا، ولا يراها أحد، وهي آثار منكرة تخالف مخالفة جلية ما ثبت عن السلف الأولين بطريقة التواتر أو الصحة..."[271].

لقد ترتب على هذه البلبلة أمر خطير في حياة المسلمين، حيث أصبح المجتمع الإسلامي ينسب الكثير من تلك الأوهام والتقاليد الضالة إلى الدين فيضفي عليها

---

(266) محمد الغزالي، معركة المصحف في العالم الإسلامي، ص 264-265.

(267) محمد الغزالي، مائة سؤال عن الإسلام، ص 361.

(268) مالك بن نبي، في مهب المعركة، ص 99.

(269) حسن الترابي، المرأة بين تعاليم الدين وتقاليد المجتمع، ص 39..41.

(270) محمد الغزالي، مائة سؤال عن الإسلام، ص 361.

(271) محمد الغزالي، سر تأخر العرب و المسلمين، ص 44.

حجية شرعية تجعلها مقبولة في نفوس المسلمين، وهو ما أكسبها سلطانا أقوى من سلطان الدين وتعاليمه الصحيحة.
من أجل ذلك، بدا اهتمام الرجل واضحا بهذه القضية "قضية طغيان التقاليد الموروثة على تعاليم الدين في حياة المرأة المسلمة"، فقد أولاها جانبا كبيرا من كتاباته ومؤلفاته التي توجها بمؤلفه "قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة" الذي كان في أواخر سنوات عمره (1992م)، "كما لم يكد يخلو أي مؤلف من قضية أو

أكثر للمرأة، فهو يرد شبهة يثيرها مستشرق فيها إساءة المرأة، ويرد جاهلا بحقها في المجتمع المسلم الواسع، وينفض عنها التقليد الأعمى الذي يجعلها حبيسة الجهل المركب، وينفخ فيها روح الرفض وتصحيح مفاهيم قاصرة لنصوص القرآن والسنة"[272].
إن الدارس المتفحص لمدونة الشيخ المعرفية، ليلحظ حضور هذه القضية في جل كتاباته تلميحا وتصريحا، وقد ظهر اهتمامه في صورة الإنكار الصريح لكل ما يكتنف حياة المرأة من عادات سيئة، أو تقاليد بالية موروثة من عصور العجز والانحطاط، مبينا أنه يرى أن بين هذه التقاليد وبين الإسلام بون شاسع... فتلك التقاليد التي تزدري الأنوثة وتميل إلى اتهامها وتجهيلها وإنكار تعليمها وترددها على المساجد وعدم إشراكها في ميادين المجتمع ككل وكذا الغض من إحسانها، وتشديد العقوبة على زلتها وخطيئتها، تلك كلها عادات من رواسب الجاهلية الأولى، والسير على دربها واتخاذها منهجا في الحياة مضاد لتعاليم الإسلام وهديه الصحيح، وهذا الرأي له ما يدعمه لقوله تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[273].
أما الإسلام فإنه أرفع من أن يكون غرائز جنس ما أو عادات بلد ما، إنه – في وصف الشيخ-: "تعاليم نزلت من السماء، ولم تنبت في الأرض"[274].
في هذا الصدد يكشف "الغزالي"عن المفارقة العجيبة بين تعاليم سماويةو سلوكات جاهلية استحدثها مسلمو القرون الأخيرة، واتخذوها مسلكا في حياتهم لا سيما فيما يتعلق بالمرأة والأسرة.. ويعرض في صفحات كتبه جملة من تلك المسالك أو العادات السيئة الأثر على حياة المرأة المسلمة والأمة ككل ومن ثم الدين والدعوة الإسلامية.
وفق كل تلك المعطيات السابقة، تأتي قناعات الشيخ "الغزالي" لتثبت أن تلك العادات الموروثة، والتقاليد الجاهلية التي يمارسها المسلمون تعد مظهرا من مظاهر

(272) صونيا وافق، (المرأة والإصلاح في فكر الشيخ الغزالي), ص129.
(273) سورة التوبة: الآية 71.
(274) محمد الغزالي، سر تأخر العرب المسلمين، ص 51.

تأخر المسلمين، بل من أخطر أسباب تأخرهم "فساد التصور الاجتماعي بسيطرة التصورات الجاهلية على مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية، وأخطرها المرأة"[275].

ولعل الأخطر من ذلك هو تقديم هذه التقاليد صورة لتعاليم الإسلام وأحكامه الصحيحة في حياة المرأة. من هنا فإن الشيخ "الغزالي" –رحمه الله- ينعى على أولئك الذين يشوهون وجه الإسلام بتقديمه على غير وجهه الصحيح لسوء ظنهم أو غبش معرفتهم به، ونقرأ قوله معلقا: "... وآخرون لا يعرفون ذرة من ضغط التقاليد البشرية على التعاليم السماوية، فهم ينطلقون دعاة إلى الإسلام، والحقيقة المرة أنهم يدعون إلى معالم مجتمعهم البالي، ومواريثهم الهشة، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا"[276].

ومن الواضح جدا أن "الغزالي" هنا إنما يرى أن تصحيح المفاهيم والتصورات كخطوة أولى لا يمكن تجاوزها هو ما يقود إلى التغيير، فالتدين الخاطئ ينجر عنه سلوك سلبي عقيم لا يمكنه تحقيق مبدأ الصلاحية والفاعلية لهذا الدين، لذلك فإن تصحيح النظر إلى عادات الأمة وتقاليدها أصبح ضرورة حتمية تقتضيها مصلحة الدعوة أولا.

وعلى غرار ذلك التفت "الغزالي" إلى قضايا المرأة ودافع عن حقوقها الشرعية، وغاظه ما التف بقضاياها من تقاليد تحط من شانها وتزدري قيمتها، والإسلام المستهدف الوحيد في كل ذلك إما عن قصد أو غير قصد. من هنا بدا اهتمامه بالغا بإعادة النظر في تقاليد أحاطت بأحكام الدين فكادت تخفي معالمه الواضحة.

إن شخصية الشيخ الدعوية تزيد من حماسه لتغيير عادات وتقاليد نحو الأصح والأصلح، بالتنديد بها، والكشف عن تناقضها مع مبادئ الإسلام وأخلاقياته، والدعوة إلى مقاومتها وبترها من مجتمعاتنا. وهو بحكم وثاقة صلته بالقرآن الكريم والسنن الصحاح قد أخذ الدين من معينه المباشر، ومن ثم فإنه يرى المرأة –بمنظار الإسلام الصحيح- "جزءا حيا من مجتمع حي"[277]، جزءا له أدواره ومسؤولياته الدينية والمدنية من تعلم وعبادة، وحرية إبداء الرأي وتكوين شخصية مستقلة...الخ. أما من له الجرأة على التحريف والتزييف فيمنعها من كل هذا وذاك، ولا يدرك حقيقة موقفه الساعي لجعل المرأة عضوا مستهلكا وحسب!! وكنتيجة لهذا النمط من التفكير تصبح المرأة "كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير!!" [278].

لقد نذر الرجل حياته كلها؛ يحمل هموم أمة أكلها الجهل والاعوجاج؛ لأنها تركت القرآن والسنة الصحيحة خلف ظهرها فلم تهتد إلى الموقف الصحيح، ويأسى لأن أقطارا إسلامية برمتها تمنع المرأة من ينابيع التربية السماوية القرآنية الصافية في

([275]) المصدر نفسه، ص 11.

([276]) المصدر السابق، ص 73.

(2)و(3)محمد الغزالي، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص 195.

(4) محمد الغزالي ,هموم داعية ,ص66.

بيوت الله، وتحرمها من العبادة فيها، في وقت تحتضنها كافة الديانات الأخرى في معبدها؛ كل ذلك لأن تقاليد متوارثة فرضت عليها ألا تشارك في جماعة. مع أن الصحابيات ما انقطعن يوما عن شهود الجماعات والجمع.. [(279)].

لذلك، فكثير ما يقتبس لنا من الوقائع التي يعج بها العالم الإسلامي في هذا الشأن تأكيدا منه لمواقف المسلمين التي تهزم الحق في دنيا الناس، وتنصر الباطل الذي هو تقاليد ليست لها صلة بالدين من شتى الوجوه، فيروي قائلا: "... وأمر آخر نذكره آسفين! ذهبت نسوة إلى أحد المساجد للصلاة، وأخذن في مؤخرة الصفوف مكانا قصيا، فجاءهن إمام المسجد غاضبا يقول: إن المساجد بنيت للرجال وحدهم.قال تعالى: ﴿**فِي بُيُوتٍ**

أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ، رِجَالٌ... ﴾[(5)]، وقابلني هؤلاء النسوة كسيرات كاسفات البال فقلت لهن: هذا رجل جاهل، فإن الله يقول: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**﴾[(280)]. فهل الصدق في العهد والوفاء بالوعد والثبات على الدين إلى آخر رمق على الرجال وحدهم؟ فأين قوله تعالى: ﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ**﴾[(281)]؟"[282]

إن هذا الإمام الجاهل –كما وصفه الشيخ- لم يفهم الآية- التي قدمها دليلا على موقفه- في سياق السورة؛ فقد أخذ بها مفصولة عما قبلها وما بعدها، ثم حملها على غير ما محملها؛ لأنه –فيما نرى- يريد اتباع التقاليد السائدة في مجتمعه، وهو ذات ما تمليه أهواءه، فلا يبذل أدنى جهد في معرفة الموقف الصحيح في القضية، مع أنه ممن يقع على عاتقهم الصحيح والتوجيه السليم في كافة الشؤون الخاصة بالأمة.

إن تدين أمثال هذا الشيخ لا يعدو أن يكون "تدينا صوريا" يحمل في طياته امتدادا دافقا من القصور العلمي والعقلي، والغرور الأعمى، وقد يدفع بأصحابه إلى ارتكاب رذائل منكرة[(283)].

لقد وقف الرجل طويلا لكشف علل أمته وأمراضها النفسية، ورأى أن منطق الجهل قد استفحل في الأغلبية الساحقة من الناس، فأصبحوا يحرمون النساء من المساجد ويرون ارتيادهن لها بدعة مبكرة، ويمنعوهن من طلب العلم ويرونه تقليدا أجنبيا. وفي ظل هذا الحرمان الروحي -الذي يرى فيه الجهلة وأصحاب التفكير الباطل

---

(5) سورة النور: الآية 36—37.

([280]) سورة الأحزاب: الآية 23.

(2) سورة آل عمران: الآية195.

(3) محمد الغزالي, قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة, ص62—63.

([283]) عبد الحميد حسانين حسن، من مقالات الشيخ محمد الغزالي، دار نهضة مصر (القاهرة), ط(2002), ج2، ص 135.

مزيدا من التقوى والأدب والعفة-، يتحول الأمر إلى بلاء يحل بالمجتمع الإسلامي، فيورثه مصائب ذات بال، الجهل وسوء التربية وشرر التقاليد[284].

صوب "الغزالي" سهام نقده لأولئك الجامدين المقلدين بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، السائرين في طريق تجهيل المرأة وإسقاط كيانها الروحي والعقلي. ومن ثم فقد أوضح أثر ذلك في الواقع؛ فالمرأة التي صنعتها تلك التقاليد البعيدة عن الإسلام أعجز من أن تدري شيئا عن قضايا أمتها, بل هي أعجز من أن تشرف على تربية أولادها، وفي شتى الأحوال هي أعجز من أن تكون عضوا منتجا فعالا في المجتمع، كما كانت أختها في المجتمع الإسلامي الأول، وهو ذات ما فاضت به مشاعر شيخنا فعبر عنه قائلا: "... فإذا كانت جاهلة بشؤون

أمتها المحلية فكيف تدرك شؤونها العالمية؟ كأن سعة الأفق وحسن التصرف أمسيا وقفا على نساء العالم كله عدا المسلمات المحصورات!!" [285].

لقد ضاق الشيخ بهذا التصور القاصر للدين كما ضاق بتقاليد كثيرة استحدثها مسلمو العصور الأخيرة يغلب عليها طابع الرياء؛ لكونها تقوم في مجملها على التكلف والتزويق والتظاهر الزائف، أوبالأحرى مبنية على النفاق الاجتماعي، بعيدة كل البعد عن الفطرة الإسلامية السمحة.

إن هذه التقاليد –في اعتقاد "الغزالي"- لا تعرف الأحكام الإسلامية الصحيحة في مجمل القضايا، وإذا حدث وأن عرفتها لم تقف مع بواعث تقوى الله وخشيته في تنفيذها وإقرارها. مبينا أن من مقرراتها "جعل الزواج مشكلة اقتصادية رهيبة، ثم فساد الصورة الإنسانية لوظيفة المرأة قبل الزواج وبعده، والجهل التام بدور الأسرة في التربية على امتداد مراحل العمر"[286]. وهو بهذا الصدد يقف على أمثلة واقعية عديدة، اجتاحت الأصول الإسلامية الصحيحة للأمة فيستكمل قائلا: "... ورأيت جماهير المسلمين وكأنها متفقة على جعل الزواج مشكلة تقصم الظهور دون مبالات بما ينشأ عن ذلك من شيوع الفسق والفجور، فأي تدين هذا؟ وبأي حق يستولي بعض الآباء على المهور؟ وبأي حق يكلف بعض آخر بالاستدانة ليعين على زواج ابنته؟ ولماذا تطلب البنت عندنا أثاثا لا تطلبه لنفسها المرأة الغربية ولا المرأة الشرقية؟ إن المرأة العربية العادية ربما فرضت لنفسها بيتا لا تحلم به امرأة لرواد الفضاء، فلم بالله هذا الترف؟ لماذا نرتضي إغلاق البيوت على ألوف العوانس إذا لم يتزوجن وفق هذه التقاليد السفيهة؟ وإلى أين تقودنا تقاليد الرياء التي تواضعنا على الاحتكام إليها ناسين ديننا ودنيانا على السواء! (...) وقد رأيت بنفسي –للأسف- ناسا يؤخرون زواجهم إلى سن معينة حتى يتموه وفق تقاليده المقررة... وإلى بلوغ هذه السن لا

([284]) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص 191.

([285]) محمد الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، ص 67.

([286]) محمد الغزالي، قذائف الحق، ص 314.

مـانع مـن الزنـا، وغيـر الزنـا!! ورأيـت ناسـا يـستدينون بالربـا ليقيمـوا الأحفـال المطلوبة!..." [287].

إن هـذه المخالفـات المستغربة للإسـلام التـي أفـصح عنهـا فكـر الـشيخ "الغزالـي"، والتي كانت نتاج مراقبة وتقصي عميقين منـه لممارسـات المسلمين وعـاداتهم الرديئـة فيما يتعلق بالمرأة والعلاقات الاجتماعيـة، تظل –فيما نـرى- حقيقـة نـسبية؛ فهـي وإن باتت في بعض الأرجاء العربية والإسلامية جزءا لا يتجزأ منهـا، إلا أنهـا فـي الـبعض الآخر تكاد تختفي أمام بساطة المهور وقلة تكاليف الزواج، ونرى ذلك واقعا ملموسا في العديد من المنـاطق الجزائريـة، كبلاد القبائل، وكذا بعض المنـاطق الـصحراوية، وواد ميزاب حيث تنتشر ظاهرة الزواج الجماعي المساعد على اختفاء مظاهر الريـاء والتكلـف والتفـاخر والتنـافس فـي إحيـاء التقاليـد الفاسدة وظهـور أخـرى لا صـلة لهـا بالدين.

وقد يقول هنا قائل" إن الأعراف الاجتماعية تفرض نفسها بحدة، فتصبح منـسجمة مع عادات المجتمع وتقاليده ولا مجال للتخلي عنها أو استبدالها بأخرى حسنة.

فنقول: لا عبرة لعرف اجتماعي إذا كان مخالفا لحكم من أحكام الشرعية الثابتـة. إذ يقع عليه حكم الباطل الذي لا يترتب عليه إلا باطلا مثله. (كما ينص عليه الشرع).

ومما أخذ من عناية الشيخ –رحمه الله- جانبا غير قليل، دعوتـه إلـى "تحكيم الإسلام في التقاليد الاجتماعية السائدة ومحو ما يخالف الدين، وإثبات ما يلائمه" [288].

ولعلـه فـي أثنـاء تعرفـه علـى أمـراض أمتـه وعللهـا لا يفوتـه أن يكـشف أن مكـامن الأدواء، أو الدوافع من وراء تلك العلل؛ فتـأخير الـزواج مثلا وتطويـل أمد الفوضـى الجنسية التي تسبقه لا لشيء إلا لتقديم مهر بـاهض و... هو فـي حقيقـة الأمـر رعايـة لتقاليد موروثـة سـادت حيـاة المسلمين واستحكمت بأرضـهم. فكانـت أولـى من رعايـة أوامر الله وابتغاء مرضاته في كثير من الأحيان.

يطـرق الرجـل هـذه القـضايا (الـزواج والمهـور...) مرتبطـة بواقـع المـسلمين وملابساته، ومنبها في الوقت ذاته علماء الأمة والمتحدثين باسم الإسلام إلـى ضـرورة فقه الواقع، والإحاطة بكافة شؤون الأمـة المسلمة المادية والأدبيـة. وفـي هـذا الـسياق يتعرض لتصويب رأي متحدث في الدين يرى أنه "لا حدود للمهر"، ويستـشهد بقـصة المرأة التي اعترضـت "عمر بن الخطـاب" لمـا أراد تقييد المهور. فيعتقد أن: "القـصة صحيحة، ولكن المتحدث قليل الفقه في الإسلام، ضـعيف الـشعور بمآسـي المسلمين اليوم!... إن قصة عمر مع المرأة المعترضـة تفهم في جو كـان الرجل يستطيع فيـه الـزواج مثنـى وثـلاث وربـاع، وكـان الحـرام يقـع فلتـات نـادرة أو استثناء مـن قاعدة عامـة، أمـا اليـوم فـإن العـرف الـسائد بـين جمـاهير المـسلمين فـي الـزواج والمهـور والهـدايا، لا صـلة لـه بتقـوى الله، ولا إشـاعة الاسـتعفاف، ولا إقـرار الطهـر النفـسي

---

(287) المصدر نفسه، ص 314-315.

(288) محمد الغزالي، حصاد الغرور، ص 7.

والاجتماعي.. إنه عرف يقوم في جملته على رذائل الرياء، والكبرياء، ورغبة أسر كثيرة في الانتفاخ والتعاظم"[289].

فنظرا إلى هذه الحقيقة التي لا مجال لنكرانها، يكون اعتراض الشيخ "الغزالي" على المتحدث في قضية المهور تصويبا سليما للأمور، ووضعها في إطارها السليم؛ لأن جماهير المسلمين تواطأت على كتمان الحق وغض الطرف عمدا في تلك القضايا التي من شأنها أن تجر التخلف فعلا للأمة المسلمة، بل من شانها أن تكون عنصر معارضة لتقاليد الإسلام ومبادئه وأفكاره؛ لأنها ببساطة تفتح الباب على مصراعيه للرذيلة فتصبح جزءا لا بد منه في الحياة الاجتماعية.

وفي مواجهة هذا الفهم الذي يحجم الإسلام، ويقف عقبة في طريق الدعوة الإسلامية، يلتفت "الغزالي" إلى تلك التقاليد والعادات من زاوية أخرى؛ ليؤكد مسؤولية المسلمين عن امتداد الفساد في أرضهم. " فهم ينزلون عند أمر الله في تحريم الزنا، وهذا حسن، بيد أنهم يعقدون الزواج ويجعلون تكاليفه قاصمة للظهر"[290].

وهو تناقض صارخ في التعامل مع المنكر والفضيلة. إذ المفروض في مجتمعات المسلمين أن يكون اتفاقهم على حرمة الزنا عاملا أقوى على إعدام أسبابه، لكن غالبا ما يكون العكس فيحمل المجتمع شبابه مسؤوليات قد يصعب عليه مواجهتها بطرق مشروعة مما سيؤدي به إلى ولوج الحرام من بابه الواسع. لذلك يأتي نقد الشيخ "الغزالي" لهذه الممارسات الاجتماعية مبينا أنها "ربما كرهت الحرام –أو الرذيلة- لأن في الضمير الديني بقية حياة.. ولكن هذه التقاليد لا توسع دائرة الحلال، ولا تزيح العوائق المبعثرة في طريقه..."[291].

إن هذا الفقه يأتي وفق الدلالات الشرعية والمقاصد الحكيمة. فمقصد الشارع من وراء تيسير الزواج واضح يظهر أساسا في قطع سبل الحرام والإفضاء إلى الحلال. وهو ما لا تعكسه تقاليد المسلمين في هذا المجال. و"الغزالي" إذ يواجه تلك العادات الظالمة والتقاليد الفاسدة لا يدعو إلى تغييرها فحسب،بل يستنهض الناس أن يستمسكوا بشرع الله في كل ممارساتهم سواء داخل الأسرة أو خارجها، وأن يصدقوا مع الله أولا وقبل كل شيء.

وأمر آخر أشار له "الغزالي" في عديد من صفحات كتبه "الطريق من هنا"، "الإسلام والطاقات المعطلة"، "ليس من الإسلام"... كما لم يغفله غيره[*]، وهو غضب الرجل لسمعته الخاصة لا لحق من حقوق الله بخصوص خطيئة المرأة،

([289]) المصدر نفسه، ص 266.

([290]) محمد الغزالي، المحاور الخمسة للقرآن الكريم، ص 107.

([291]) محمد الغزالي، الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية، ص 97.

([*]) أنظر: جودت سعيد، رياح التغيير، ص 53/محمد سعيد رمضان البوطي، المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني، ص 194/ وغيرهما...

يصرح بذلك فيقول: "نعم، وهل نشك في ذلك، بعد أن نعلم أننا نقتل المرأة إذا زنت، ونترك الرجل لا يمسه سوء؟"[292].

إن دلالة هذا السلوك لا تعدو أن تكون مجرد غضب إنسان بمساس عرضه وسمعته الخاصة، ولو كانت استنكارا لمعصية لكان الحكم يستغرق المرأة والرجل على السواء.

إن أي مطلع على القرآن الكريم والسنن الصحاح يرى أن وزر المرأة فيما ترتكبه من الآثام والمعاصي كوزر الرجل تماما، لا ينقص من إثمهما شيئا ما دامت هوية الخطيئتين واحدة، ولا تكفرهما إلا التوبة الصادقة، والمرأة والرجل سواء في ذلك, لقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ**﴾[293].

فشملت الآية التوابين من الرجال والنساء معا, ولكن منطق الجهل يحجب حق التوبة على البنت ويعطل حكم الله عز وجل.

إن الرجل يتبرم ويضيق ذرعا بهذه العادات الجاهلية وبأخرى تهين المرأة، وتستميت في تحقير شخصيتها، ومن ذلك رده على الشافعية والحنابلة عندما أجازت إجبار البنت البالغة على الزواج بمن تكره!! ولا يرى دلالة لهذا

السلوك إلا انسياقا مع تلك التقاليد. ويشتد عجبه عندما يرى من يترك النقل والفقه معا في بعض الأحكام، ويدلي برأيه مع صحة وصراحة أحاديث تعطي المرأة حق الاختيار[294].

يقول رسول الله ـصلى الله عليه وسلم ـ: «لا تنكح الأيِّم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن. قالوا: يا رسول الله كيف إذنها؟ قال: أن تسكت»[295] وفي رواية: «الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر تستأمر، وإذنها سكوتها»[296].

([292]) محمد الغزالي، ليس من الإسلام، ص 246.

([293]) سورة التوبة: الآية 104.

([294]) محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص 33.

([295]) رواه البخاري, كتاب الإكراه, باب :" لا يجوز نكاح المكره", ج6, ص135.

ورواه مسلم, كتاب النكاح, باب" استئذان الثيب في النكاح بالنطق والبكر بالسكوت", رقم 3458, مج5, ج9, ص 206.

ورواه النسائي, كتاب النكاح, باب "إذن البكر", رقم 3267, مج 2, ص428.

*حديث صحيح.

([296]) رواه مسلم, كتاب النكاح, باب "استئذان الثيب في النكاح بالنطق, والبكر بالسكوت", رقم3461, مج5, ج9, ص207-208.

ورواه أبو داود, كتاب النكاح, باب "في الثيب", رقم2098, مج1, ص587.

ورواه النسائي, كتاب النكاح, باب "استئذان البكر في نفسها", رقم 3260, مج2, ص426.

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن جارية بكرا أتت النبي ـصلى الله عليه وسلم ـ فذكرت أن أباها زوجها كارهة! فخيرها رسول الله"[297].

وأمام هذه الأحاديث تسقط فتاوى الشافعية والحنابلة في هذه القضية ـفللمرأة الحق كاملا في استشارتها واستئذانها وموافقتها بعد ذلك أو رفضها للزوج المتقدم أوالخاطب، ولا يكون لوليها الحق أبدا في إكراهها على الزواج- لأن ذلك من حقوقها المقررة شرعا.

لقد أدرك "الغزالي" تقاليد أمته التي شغلتها عن الحق في كثير من القضايا، وظل سعيه متواصلا لرد أحكام كثيرة تفشت بين المسلمين، في حين استخفت أخرى كثيرة صحيحة، من ذلك ما هو شائع في كثير من القرى والمدن المسلمة، منع البنت أو الأخت... من حقها في الميراث. وقد عاب كثيرا جهل البعض المطبق؛ إذ يستغلون فضل الرجل على المرأة في الميراث ليهينوها ويزدروا منزلتها. ومن ثم يذهب الشيخ في فهم أعمق لمنطق المساواة، ومنه لموقف الإسلام من مسألة ميراث المرأة، فيقول:

"إن الإسلام لو لم يجعل نصيب المرأة في الميراث نصف نصيب الرجل لاختل ميزان المساواة ولأصبحت كفة المرأة أرجح..!! ذلك أن الرجل مكلف في الإسلام بالإنفاق على المرأة، ويسوق لها المهر إن أراد الزواج.

ومعنى هذا أن ماله سوف يستهلك في الواجبات التي كلف بها، على حين يجمد مال المرأة فلا ينقص!! فلا أقل من استدراك هذه الحال بزيادة نصيبه في الإرث، فهذه الزيادة ليست تفضيلا أدبيا، وإنما هي تعويض مادي بحت...!!"[298].

هذا وإننا نجد صورة دقيقة متوازنة توازنا مقسطا في معادلة الحقوق والواجبات، بخصوص مسألة الميراث، فيما رسم القرآن الكريم خطوطه العريضة وأوضح تفاصيله الهدي النبوي. وحقيقة التفاوت مكنونة في قول "الغزالي" السابق؛ فمقدار الزيادة مستمد من الواجب الملقى على عاتق الرجل من أعباء مالية كالنفقة والمهر... والملاحظ أن تلك التحليلات، للشيخ "الغزالي" في المسألة، قد أخذت مسارها من نتاج التربية القرآنية أو التدبر الواعي والمستمر للقرآن الكريم، وهو ذات ما يضعه كنتيجة عامة لقانون المساواة؛ إذ يقول: "إن الذي يتدبر القرآن الكريم يحس المساواة العامة بين الذكور والإناث، وأنه إذا أعطى الرجل حقا أكثر فلقاء واجب أثقل لا لتفضيل طائش"[299].

---

*حديث صحيح.

([297]) رواه أبو داود, كتاب النكاح, باب" في البكر يزوجها أبوها ولا يستأمرها", رقم6096, مج1, ص586.
ورواه ابن ماجه, كتاب النكاح, باب" من زوج ابنته وهي كارهة", رقم1532, مج2, ص127.

*حديث صحيح.

([298]) محمد الغزالي، هذا ديننا، دار الكتب (الجزائر), ص 55-56.

([299]) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص 32.

والغريب في الأمر، أن بعض التقاليد الجاهلية القديمة لا تزال حية في ضمائر البعض، بل ومحببة إلى نفوسهم، لأنها تخدم مصالحهم وتشبع أهواءهم ورغباتهم الدنيوية لا أكثر. وبهذا الصدد يكشف الشيخ "محمد سعيد رمضان البوطي" عن بعض الحقائق الملموسة في واقع المسلمين، فيقول: "... ولئن كانت الجهالة المطبقة تشكل بعض العذر في ارتكاب هذه الموبقة (يعني اجتياح ميراث الأنثى)، في القرى النائية، حيث الحاجة ماسة إلى معرفة الدين وأحكامه، فإن رسوخها في بعض أحياء المدن، وداخل بعض البيوتات والأسر المتشبعة بالثقافة والتعاليم الدينية، ليعد أمرا مستشنعا وهبوطا خطيرا إلى التلاعب بدين الله والعبث بأحكامه في سبيل مغنم مالي جانح تسيل اللعاب عليه"[300].

ولعل مثل هذه الظواهر السلبية –التي لم تكن لتقف عند حدود الوعي الديني والمعرفة الصحيحة- متسربة من مفاهيم خاطئة ومزيفة لطالما نفت عن المرأة إنسانيتها وحريتها بما فيها استقلالها المادي، وركنت إلى عادات جاهلية تروق لها بعد أن عطلت أحكام الله عز وجل.

وقلم "الغزالي" حاضر دائما بشجاعته وجرأته على إحقاق الحق والصد عن الظلم والباطل إذ يفضح مثل هذه المجتمعات التي تحتقر المرأة وتأكل أموالها وحقوقها بالباطل، فيفصح قائلا: "إن المجتمع الذي يهين النساء،

ويقلل من شأنهن ويستبيح حقوقهن المادية والأدبية مجتمع أناني ظلوم بعيد عن تعاليم الإسلام ووصاياه، وكذلك المجتمع الذي يجور على المستضعفين الذين لا شوكة لهم، ولا يستطيعون دفاعا عن أنفسهم!" [301].

وشبيه بموقفه في رد تلك التقاليد الجاهلية التي تجتاح حق المرأة الشرعي في الميراث، موقفه في استنكار عادة السطو على مهور النساء، سواء أكان بطريق مباشر أو غير مباشر.

وثمة أمر آخر لا يفوت الشيخ "الغزالي" بالنقد والتعليق، وهو أحكام الطلاق والخلع وتطبيقاتها في مجتمعات المسلمين، وتصويرها تصويرا يتنافس مع الشرع. وفي هذا يتعرض لعوج فقهي أو قانوني عاصره في مصر "فقد كان القضاء الشرعي يحكم بأن يقود رجال الشرطة المرأة الكارهة بالقوة إلى بيت الطاعة لتحتضن من تبغض!! وكان رد الفعل لهذا المسلك أن وضع باسم الشريعة قانون آخر يخرج الرجل من البيت إذا أوقع الطلاق!" [302].

وفي نظرنا أن هذا التصرف يخرج الأمور عن طبيعتها، بل هو أمر ترفضه الطبائع الإنسانية السليمة، فضلا عن كونه ينافي ما ثبت من نصوص الشرع؛ فقد

([300]) محمد سعيد رمضان البوطي، المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني، دار الفكر (دمشق), دار الفكر المعاصر (بيروت), ط(1421هـ -2000م), ص 199.

([301]) محمد الغزالي، الحق المر، دار نهضة مصر (القاهرة), ط(2000), ج4، ص 172.

([302]) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص 62.

كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يقضي بفراق من تبغض زوجها وتشتهي مفارقته. وهذا فضلا عن أن مشروع الأسرة لا يمكن أن يحقق انطلاقه ونجوعه إلا إذا حقق شرطي الود التراضي المتبادلين.

إن الشيخ "الغزالي" بدوره يستنكر هذه الفوضى والاضطراب في فهم الدين وتطبيقه، ويدعو جماهر المسلمين إلى ضبط العلاقات داخل الأسرة بموازين الشرع، ولهم في ذلك سند توجيهي لكل حال ومقام، فأين قوله تعالى: **﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾** (303)، وأين توجيهه عز وجل: **﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾** (304).

ويردف تعليقا آخر، فيقول: "...وإذا كنا في عصر تلتمس العيوب فيه لديننا الحنيف، ويقال عنه إنه قضى على شخصية المرأة، واجتاح حقوقها المادية والأدبية، فلماذا بالله نستبعد حكم الخلع من شريعتنا -وهو حق- ونزعم أن المرأة يقبض عليها لتساق إلى بيت هي له مبغضة!..."(305).

إن هذا الفهم المجانف لميزان الشرع وحكمه -كما سبق- يقبع وراءه قمع لمشاعر المرأة وعواطفها، ثم تعطيل التشريع القاضي بمساواة المرأة مع الرجل في هذا الحق؛ كل ذلك نزولا عند أهواء تأبى الوقوف عند مشاعر النساء وتلبيتها.

ومن جهة أخرى، يسترسل "الغزالي" في تصوير واقع إسلامي متوتر ومشحون بالتناقضات لطالما انجرت عنه الأضرار الفادحة؛ فالطلاق كما مارسه المسلمون (ولا يزالون يمارسونه) اقترن بعدة انحرافات، حيث وقع

الاعتراف بالطلاق البدعي، وانتشر الحلف بالطلاق، وأصبح وقوع الطلاق لمجرد الوافه أمرا معهودا، بل يكاد يندر أن تتم العدة داخل بيت الزوجية، وأن يقع الطلاق داخل النطاق المرسوم شرعا في طهر، واعتزال وإشهاد... كل هذه الثغرات أضرت بالإسلام إضرارا بليغا، وجعلت الأوروبيون ينظرون إلى سهولة الطلاق وميوعة حدوده عند المسلمين نظرة استهزاء مما قلل من انتشار الإسلام وبلوغ رسالته(306).

إن "الغزالي" يشخص العلل الكامنة من وراء هذا الاضطراب، فيرجعها إلى التقاليد البالية حيث تتماهى تلك التقاليد في كيان الأمة لتصبح جزءا منها. فيقول: "إن تقاليد الشرق، والأعراف الشائعة فيها من وراء هذا العوج الفكري والخلط الشائه"(307).

والواقع أن تلك العادات والتقاليد الجاهلية -القديمة المتجددة- التي تسطو على حقوق المرأة وتجتاحها،وتلغي حريتها وإرادتها وتغض الطرف عنها، إنما تنجم من

---

(303)و (4) سورة البقرة: الآية 229.

(5) المصدر السابق, ص62.

(306) محمد الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، ص 133.

(307) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص 52.

أعراف الناس وأهواءهم فتغدو –مع الوقت- وكأنها من أصل الدين، وما هي منه شكلا ومضمونا؛ لاختلافها البين مع طبيعة وجوهر ومقاصد الإسلام. إلا أنها تذوب في الشخصية الإسلامية دون وعي، وتتقمصها في غفوة لتعرض بها النموذج الإسلامي عرضا رديئا منفرا. وفي هذا الصدد نقرأ قول الشيخ المعبر عن هذه الحقيقة، يقول فيه: "إنني طفت في أقطار إسلامية كثيرة، فرأيت سطوة العرف أقوى من سطوة الشرع، واتباع الهوى أهم من اتباع العقل! وللناس قدرة عجيبة في إلباس شهواتهم ثوب الدين وتحقيق مآربهم الشخصية باسم الله"[308].

ويفهم من كلام الرجل أن مشكلة المسلمين الحقيقية متأصلة في نفوسهم؛ بسبب التعصب والاعتزاز بالتقاليد، والتي باتت تشعرهم وتتهيأ لهم في هيأة الدين فيعمون عن حقائقه، وينكبون على تقاليدهم التي لن تنفعهم في شيء، بل ربما انجرت عنها أضرار وخيمة، وآثار مرة على الإسلام والمسلمين. فهي وإن كانت سببا واقعيا ملموسا في تقهقر الأمة الإسلامية وتراجعها إلى آخر الركب في الأعصار الأخيرة، فإنها تدفع بالمدنية الحديثة إلى النصر والتمكين. ومن ثم لا يوجد مفر من القول بأن ذلك الضلال الفكري، والتعصب الأعمى ساعد الغرب وفتح له أبواب النفوذ. ويأتي الشيخ الغزالي على تأكيد ذلك، مستحضرا الجوانب الظلامية من الفكر الديني قائلا: "والنجاح الذي صادف الحضارة الغازية يعود إلى ضعف المقاومة وإلى غباء المدافعين! إنني عاصرت الأيام التي أدخل فيها طه حسين الفتيات الجامعة، فقد كان التيار الديني يرى ذلك حراما!! إن تعليم البنات في مدارس خاصة بدأ بعد الاحتلال البريطاني لمصر، فإن التقاليد السائدة كانت تفرض الأمية على النساء باسم الإسلام!!" [309].

وتأسيسا على كل ما تقدم يمكن القول بأن الفكر المتطرف يستحيل أن يحمل في طياته فكرا بديلا نافعا للأمة المسلمة ومناسبا للبشرية.

وأحسب أن الشيخ "الغزالي" في هذا قد أبان ضرر تلك التقاليد التي برزت بثبوت الدين، وتبنى مسؤولية الدفاع عنها وحمايتها طائفة من قصار العلم الديني الصحيح. وبهذا الصدد اختار الشيخ قصة الناقة والقلادة نموذجا واقعيا يحمل نظرة استشرافية مستقبلية للإسلام وصحوته، إذا ما ظل الفكر الديني الجهول يتحكم بزمامه ويسيطر عليه. يحكي قائلا: "وأذكر هنا قصة الناقة التي عرضها صاحبها بعشرة دراهم، واشترط أن تباع قلادتها معها بألف درهم! فكان الناس يقولون: ما أرخص الناقة لولا هذه القلادة الملعونة...!"[310]. ونقول كذلك: ما أيسر الإسلام، وما أيسر أحكامه وتعاليمه لولا الإضافات البشرية المشوشة عليه.

([308]) محمد الغزالي، الطريق من هنا، دار الكتب (الجزائر)، ط(1986)، ص 46.

([309]) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص 19.

([310]) محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص 59.

وعلى ضوء الاستقراء وتتبع نصوص الشيخ ثبت أن من خصائص التقاليد الموروثة أنها:

- لا عقل لها، بل هي فادحة ومثقلة بالأسرى والضحايا لفخامة آثارها على الأجيال المتعاقبة[311].

- لا تعير اهتماما لأركان الدين التي يتساوى في التكليف بها النساء والرجال معا[312].

وقد اتضح أيضا أن تلك التقاليد الشرقية التي يحرص الناس على إحيائها تقوم على أحد ثلاثة دعائم، يحصيها الشيخ في إحدى مؤلفاته هي[313]:

1- انتقاص مكانة الأنثى –لصفتها الجسدية- فالرجل –مطلقا- أفضل من المرأة.

2- حصر وظيفة المرأة في المتعة المادية والاستيلاء الحيواني، وإبعادها عاطفيا وعقليا عن كل ما يجاوز حدود هذه الوظيفة التافهة.

3- النظر إلى المكانة الشخصية، والقيمة الخلقية من خلال عرض المرأة وحدها، ...فقد يضحك الأب لفساد ابنه، ولكن يسودُّ وجهه لفساد ابنته.

على هذا، قام الرجل بدراسة الظواهر الاجتماعية وما يتصل بها من موروثات لا تمت بصلة للدين الصحيح، ووقف طويلا في تحليل ونقد كل تلك الموروثات وبجرأة لا مثيل لها رد كثيرا من الأعراف الراكدة المتخلفة ظنها المسلمون أصولا راسخة، وألح على "ضرورة غربلة تراثنا الضخم المنقول عن الأجيال السالفة ومراجعته"[314].

وقد شمل اتجاهه في النقد كل العادات والتقاليد الراكدة منها والوافدة، ففي اعتقاده أن "التقاليد الإسلامية البالية شريكة في المسؤولية الجنائية مع الانحلال الذي وفدت به المدنية العصرية"[315]. مما أدى إلى تراكم الأوزار التي حجبت الرؤية السليمة عن العقل الإسلامي، وابتعدت به عن منابع الوحي، وبالتالي تحولت العادة إلى دين وأمسكت بزمام سلطتها بشكل رهيب، فنحن –إذن- أمام إشكال مضاعف؛ التصورات والتمثلات المنحرفة للدين على المستوى الداخلي. والقطيعة الغربية مع الدين: معرفة ومنهجا وسلوكا.

ثانيا: أثر الغزو الثقافي والأخلاقي في حياة المرأة المسلمة.

(التقاليد الغازية).

([311]) محمد الغزالي، مائة سؤال عن الإسلام، ص 363.

([312]) محمد الغزالي، من هنا نعلم، ص 153.

([313]) المصدر نفسه، ص 46.

([314]) محمد الغزالي، سر تأخر العرب والمسلمين، ص 14.

([315]) محمد الغزالي، قذائف الحق، ص 313.

يشكل الغزو الثقافي الأخلاقي السلاح الفعال والناجع الذي يستعمله الغرب في ترويض الشعوب والمجتمعات العربية الإسلامية في اتباع النموذج الغربي خاصة على المستويين السلوكي والاستهلاكي، وإعادة تشكيل العقلية العربية الإسلامية وفقا لمعطيات المرجعية الغربية وتحقيق عملية إبادة حقيقية للقيم والمبادئ والثوابت الإسلامية التي تجسد عمق وجوهر الحضارة الإسلامية.

ومما لا شك فيه أن الصدام العنيف بين الحضارتين؛ الإسلامية والصليبية والذي كان من نتائجه –الوهن الحضاري الذي أصاب الأمة الإسلامية، قد انعكست آثاره الوخيمة على كافة الأصعدة، خاصة الصعيد الاجتماعي، الذي نال الضربة القاصمة؛ إذ تفككت شبكة العلاقات الاجتماعية واضطرب النسق الوظائفي له، واختلت الموازين بين عناصره ومكوناته.

ولعل هذا يعود إلى الإستراتيجية الغربية المحكمة والمتمثلة في أعتى قوة عصرية هي قوة الإعلام، مما جعل الثقافة الغربية تلج إلى البيوت بسهولة تامة ودون كبير عناء. فالغزو الغربي لم ينجح مشروعه أثناء اللقاء المباشر (الاستعمار العسكري)، بقدر ما نجح اليوم بقوة عبر الأجهزة الإعلامية المتطورة التي ضربت عمق المجتمع، وقاعدته المحورية التي هي المرأة، وهذا كله عبر خلق شقاق بين الرجل والمرأة، ودفع المرأة إلى المطالبة بحقوقها واسترجاع ما ضاع منها، وما سلبه الرجل منها، والزج بها في أتون الحضارة الغربية وبهرجها المادي، حتى تنسى وظيفتها المحورية وانشغالاتها الرسالية.

وقد يأخذ منا الموضوع صفحات وصفحات إذا انسبنا في تحليل ظاهرة الغزو الثقافي، التي أشبعها المفكرون بحثا ودرسا. لذلك سنعمد إلى تحليل هذه الظاهرة المدمرة للمجتمعات والقاصمة لظهورها كما وردت في كتابات الشيخ "الغزالي" ووضعها في سياقها الفكري الثقافي والاجتماعي، بمعنى هل باتت هذه الظاهرة تحصيل حاصل بين الشعوب، أم أنها ظاهرة آنية سببها اختراق دولة غالبة لدولة مغلوبة على أمرها وهكذا.

إننا أثناء قراءتنا لكتابات الرجل، نجد أن الهاجس الذي يسيطر عليه هو محاولته الدائبة لتشخيص منابع الرذائل العابثة في الحياة الإسلامية، فيقول: "إن أمامنا –نحن الدعاة المسلمين- مصدرين للمتاعب يجب التغلب عليهما.

الأول: أسباب الهبوط الموروثة من تقاليد فكرية واجتماعية وسياسية تتبخر عندما تعرض على كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

والثاني: أمواج الغزو الثقافي التي انتهزت فرصة انحلال الشخصية الإسلامية، وحاولت جعل الهزيمة العسكرية ارتدادا عاما عن الإسلام"[316].

وبعد أن تناولنا بالدراسة والتحليل المصدر الأول "دور التقاليد البعيدة عن الإسلام في حياة المرأة المسلمة"، نصل إلى المصدر الثاني الذي يشخصه الشيخ بـ "أمواج الغزو الثقافي". ولا ريب أن المصدر الأول ممهد لانطلاقة المصدر الثاني

(316) محمد الغزالي، علل وأدوية, دار المعرفة (الجزائر), ط(1999)، ص 185.

وانتصاره؛ إذ يعود ذلك إلى الإنحراف الكبير الكامن في طرائق ومناهج تقديم الإسلام واقعا يعج بالبدع الذميمة والأفهام السقيمة، والأوضاع الجامدة والعادات الفاسدة، ونحسب أن لهذه "الفوضى العلمية والاجتماعية" -كما يسميها الشيخ- اليد الطولى في التمهيد للغزو الثقافي ثم إنجاحه.

فكان أن انطلقت مشاريع الغرب تجوس خلال ديار المسلمين، وتطارد الدين المغلوب على أمره في ميادين التربية والتعليم والتشريع، ويطوي تقاليده الاجتماعية والأدبية والاقتصادية والسياسية.

وكانت النتيجة أن أفلح في تكوين أجيال تتجاهل ماضيها،وتسعى إلى إزاحته كله كونه يمثل أنقاضا أو مخلفات تجاوزها التاريخ، ليحل محلها البناء الجديد الذي يعد الغرب واضعه ومؤطره[317].

وفي وصف دقيق لآثار هذا الغزو ومآربه يقول الشيخ "الغزالي": "إن هذا الاستعمار بدأ احتلالا عسكريا لأرضنا، احتلالا مشحونا بالبغضاء لديننا ولغتنا وحضارتنا وكل مقوماتها المادية والأدبية، وقد سارع بمحو الشريعة وجعل الحكم بغير ما أنزل الله! ثم أنشأ التعليم المدني فارغا من العقائد والقيم الدينية، وجعل مقاليد السلطة بيده! ثم هجم على التقاليد الاجتماعية فأخذ يصبها في قوالب جديدة لا ترتبط بكتاب ولا سنة! ثم وضع خططا اقتصادية تجعل شعوبنا مستهلكة لا منتجة، وتجعلها عربة ملحقة بالقطار الغربي يجرها حيث شاء طوعا أو كرها، وغطى هذا كله بإعلام مكتوب أو مقروء له طنين يذهب الرشد!!" [318].

إن "الغزالي" وهو يحلل الظاهرة الاستعمارية بشقيها؛ العسكري والثقافي، يركز على معطيات هامة لا يمكن تجاوزها، تتمثل في مقومات الشخصية الإسلامية، فتفكيك المنظومة الدينية النفسية هو تحصيل حاصل لمجتمع متشرذم لا أهداف له ولا مشروع.

ولعل أسوأ ما في الأمر: الحملة على موقف الإسلام من المرأة، واتهامه باحتقار الأنوثة وانتقاص حقوقها وكرامتها؛ ومما أعان على استمرار هذه الحملة متدينون جهلة، قصار النظر والباع في نصوص القرآن والسنة. مما كرس تمثلات وتأويلات خاطئة للإسلام كمعطى رباني متعالي عن النقص والتحريف. وهذا هو الجانب الهام الذي يركز الشيخ على تحليله، بكشف سقطاته وفلتاته، فهو نوع من التحليل الداخلي الذي يركز على طرائق الفهم الديني والتي يعتقد عادة أنها هي الدين، الأمر الذي جعل الاستعمار العالمي "في غارته الأخيرة علينا يستغل هذا الاعوجاج المنكور،ويشن على تعاليم الإسلام حربا ضارية! كأن الإسلام المظلوم هو المسؤول عن الفوضى الضاربة بين أتباعه"[319].

([317]) محمد الغزالي، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، دار الكتب (الجزائر), ط(1987) ص 56.

([318]) محمد الغزالي، جرعات جديدة من الحق المر، دار نهضة مصر (القاهرة), ط(2000), ج5، ص 193.

([319]) محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص 46-47.

إن الغرب كان حريصا أشد الحرص –منذ البداية- على فرض سلطانه التام على العالم الإسلامي من شتى الجوانب، العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والثقافية والأخلاقية والدينية... دون إغفال لواحدة منها، فاستماتته في تجريد الأمة من التربية المحافظة، والتقاليد المرعية، والأحكام الرادعة... كل ذلك مكنه من القضاء على المواريث الفكرية والروحية لها.

ومع تراجع وانكماش الثقافة الإسلامية تاركة وراءها فراغا تملؤه الثقافة الأجنبية والأفكار الدخيلة، تردى الناس في حمى التقليد للثقافة الغربية الملحدة في طريقة حياتهم وملبسهم وكلامهم...[320].

إن جانب المرأة –بلا شك- جانب لم يغفله العرب؛ فقد عمد إلى بث أفكاره وأسلوبه في الحياة في وقت كانت هي تعيش فراغا روحيا وفكريا، لا تكاد تدري شيئا عن دينها وأمتها، بل قد تعجز عن فهم أبسط قضايا المجتمع الإسلامي. وبتعبير أدق، فإن المرأة حينها "جاهلة وعاجزة إلا عن الوظائف الحيوانية!" [321].

ومن البديهي أن المرأة المسلمة لما كانت عليه من فقدان الشخصية وخلو الفكر أن تندفع في تقليد كل ما هو غربي وتقمصه دون رشد منها ولا تمييز أمام غيبة المفاهيم الإسلامية الصحيحة، لا سيما في ناحيته الماجنة. يقول "الغزالي": "فلما سرت في بلادنا جراثيم الفسق لم تجد مناعة تكسر ضرواتها، فكان هذا الفساد العريض"[322].

و كان ينبغي عليها قبل أن تنبهر بكل ما هو غربي أن تميز الخبيث من الطيب من كل تلك المعارف الوافدة، لو حصنت حصانة إسلامية تحميها من كل متغيرات العصر, وتصون شرفها وأخلاقها.

وبهذا الصدد يقول الشيخ مصورا واقع المرأة المسلمة الذي أصبحت تسيطر عليه تقاليد هذه الحضارة بعناصرها المميتة والمدمرة: "فلما سقطت الأمة جمعاء في براثن الاستعمار من نحو مائة سنة كانت المرأة المسلمة لا تساوي شيئا من سقط المتاع... وكان الدرك الذي هوت فيه الذريعة التي يسرت لأذناب الاستعمار أن

يستخرجوها من البيت إلى الشارع لتسير فيه دون هدف، وبذلك انتقلت في ضلال إلى خبال، أي من العطل إلى الفساد"[323].

فلو كان تحرير وعي المرأة من الحدود الضيقة التي تفرضها تقاليد الشرق أو "الأفكار الميتة"[324] (على اصطلاح "مالك بن نبي" عليها)، وإمدادها بأفكار تنبض بالحياة، لأنشئ لديها جهاز مناعي يقيها جرثومة "الأفكار القاتلة"[325] ويصدها عن شرورها.

([320]) محمد الغزالي، حصاد الغرور، ص 117.

([321]) محمد الغزالي، سر تأخر العرب والمسلمين، ص 49.

([322]) محمد الغزالي، من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث, شركة الشهاب (الجزائر)، ص 156.

([323]) محمد الغزالي، الإسلام والطاقات المعطلة، ص 108.

([324]) "الأفكار الميتة": ما يجول في أنفسنا من أفكار فقدت الحياة.

([325]) "الأفكار القاتلة": تلك الأفكار التي نستعيرها من الغرب.

أما وإن المرأة المسلمة اليوم تترك في زحمة هذه الأفكار وتلك؛ فإنها لن تكون إلا عضو استقبال وامتصاص "للأفكار القاتلة"، بل فريسة جاهزة لها.
ويمضي الشيخ "الغزالي" –رحمه الله- في تناول أدوار الغارة الاستعمارية في تضليل المرأة المسلمة بتفصيل وحكمة مبرزا استماتتها في تحقيق أحد هدفين:
إما استبقاء المرأة جاهلة لا تدري شيئا عن نفسها أو عن العالم من حولها.
أو تعليقها –إذا تعلمت- بمحاقر الأمور وأنواع التبرج والزينة، وتقليد المدينة الحديثة في كل أشكالها الماجنة... وسبيلها في تحقيق مآربها وأهدافها واستعانتها بتعليم لا تربية معه[326].
فلا بد أن نأخذ في الاعتبار أهداف المدينة الحديثة وما تصبو إليه، أثناء توجيه الإصلاح، فالحاجة ماسة للتربية والتعليم معا نظرا لما تمليه نوايا تلك الحضارة وشرور خططها.
وإذا كانت التقاليد الشرقية تحتقر المرأة وتستهين بقدراتها، بل تريد الإبقاء على جمودها العقلي والفكري بفرض قيود اجتماعية ثقيلة ليست من محكمات الدين على حراكها، فإن التقاليد الغربية تتخذها وسيلة لبعثرة الإثم فيكل شبر من أرجاء المجتمع المسلم معتمدة في ذلك على دعائم ثلاث هي بمثابة استراتيجية محكمة لبلوغ مراميها، يذكرها الشيخ "الغزالي" في أحد مؤلفاته، هي:
1- التسوية المطلقة بين الرجل والمرأة في المكانة المادية والأدبية.
2- إقامة المجتمع على الاختلاط التام وترك المرأة تتقلب فيه كما تشاء.
3- النظر إلى الناحية الجنسية على ضوء الاستقلال الشخصي والتصرف الطبيعي!"[327].
وشعار المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة في الغرب شعار يحمل في طياته خرقا لنظام الحياة والعلاقة بين الجنسين الذكر والأنثى كما يصورها الإسلام؛ حيث يجعل الرجال قوامين على النساء فهم حمالوا الأعباء الثقيلة في

مسؤولية البيت ونفقته، ...أما الاستعمار فيأبى ذلك إباء يدفعه إلى السعي وراء الخلخلة الاجتماعية وزعزعة شرائع الإسلام تحت ستار المساواة بين الجنسين.
وما هو جدير بالتنويه أن هذه التسوية لم يقصد بها تكريم المرأة ودعم جانبها، وإنما قصد استدراجها من حصنها لمآرب شتى هي أماني وآمال الغزو الثقافي[328].
بل إن القول أن المرأة تعادل الرجل في كل شيء ويجب أن لا تقل عنه في حق ما، هو في نظر الشيخ "الغزالي" لا يعدو أن يكون عبثا يراغم طبائع الأشياء، ويصادم أحكام الدين، ويؤدي إلى أوخم العواقب.

---

* انظر: مالك بن نبي، في مهب المعركة، ص 129.

([326]) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص 126.

([327]) محمد الغزالي، من هنا نعلم، ص 149.

([328]) محمد الغزالي، كفاح دين، ص 228.

ولم يفته –رحمه الله- أن ينقد نقدا شديدا هذا الأسلوب الجديد في الحرب المعلنة على كل ما له صلة بالإسلام، المتعارض مع الفطرة الإنسانية. ويذهب في استدلال عقلي أعمق لمعنى الآية الكريمة: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ**﴾[329]؛ إذ يرى أن هذا "حكم يعتمد على حقائق كونية، كما تقول: الشمس أكبر من القمر، وهذا التفضيل لا يفيد أن القمر حقير، ولا أنه مظلم، ولا أنه تافه الأثر، فلكل من الكوكبين عمله المنوط به، وفضله المرجو منه. ولو أن كل شيء في الوجود أدى رسالته تبعا لاستعداده الخاص لازدهرت الدنيا واستقام أمرها، أما أن يذهل هذا عن وظيفته اللاصقة به، وذاك عن عمله المعد له، ثم يرمق وظيفة الآخر بتطلع ولهفة، فذلك ما لا تصلح عليه الحياة، ولذلك يقول الله عز وجل: ﴿**وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ**﴾[330]..."[331].

إن الذين يثبتون فروقا بين الرجل والمرأة إنما يتعامون عن الحقيقة التي أكدها القرآن الكريم، وهي أن البيت كالمجتمع تماما يحتاج إلى قيادة، وقد جعل أمر قيادته بيد الرجل لأمر ذو بال، فهو صاحب الفضل، وهو ما ميزه الله به لأداء دوره والقيام بواجباته.

وفي المقابل من ذلك، فإن من يلجأون إلى تضخيم مواطن الفروق بين الرجل والمرأة (مثل طلعت حرب ومحمد فريد وجدي...) إنما يتجاهلون معنى قوامة الرجل على المرأة. فيعدونها قوامة سيادة وتسلط. موظفين بذلك الفروق البيولوجية لصالح الرجل، وتفوقه، وضعف المرأة أمام قوته. وكلا المذهبين تزييف للحقائق واحتيال على الدين.

وظاهر أن آثار تلك المساواة كما أقرها تلك التقاليد الغازية، والوافدة إلينا من الغرب قد فتكت بنا أكثر مما فتكت به، لماذا؟ "لأن جرثومتها سرت دون مقاومة. أما هم فلديهم شيء من المناعة أحدثها تقدمهم الكبير في

شتى الميادين... في الوقت الذي تقل في أسباب المناعة العلمية والدينية عندنا"[332]. أو كما اصطلح "مالك بن نبي" على هذا الوباء بـ "القابلية للاستعمار". تلك القابلية المتمثلة في غياب المقاومة والاستسلام.

([329]) سورة النساء: الآية 34.

([330]) سورة النساء: الآية 32.

([331]) محمد الغزالي، الإسلام والطاقات المعطلة، ص 102.

([332]) محمد الغزالي، كفاح الدين، ص 229.

وكلام الشيخ "الغزالي" –السابق– إنما يكشف عن المسؤول الأول في الأمر؛ إذ لا يكون مضمون التقاليد الغربية الذي يحمل فعلا جراثيم فتاكة، بقدر ما تقع المسؤولية على المسلمين بمقتضى "الأفكار الميتة" التي يحملونها.

وتوضيحا لمقولته، يضرب في أحد مؤلفاته مثالا يعكس تلك الحقيقة؛ إذ يرقب وضع المرأة والرجل فيدنيا الفرنجة فيرى أنهما سواء في الظاهر، ولكن في كثير من الأحيان تغلب الفطرة الإنسانية تزويرات البشر، فإذا المرأة تتملق الرجل، وتسير وراءه، وتحرص على خدمته ومرضاته إن كان زوجا أو أبا، وعلى تربيته إن كان ولدا، فيحين يرى وضعهما في الشرق المريض بجراثيم الاستعمار قد آل إلى ضياع أكيد. ويأسف أن يرى أن الرجل ليس قواما على المرأة. ولا مساويا لها. إذ أصبحت هي صاحبة القوامة وهي القوامة عليه، فإذا بالرجل يتملق المرأة، ويطلب رضاها، إنه يكاد يسرق ليعطيها...[333] وتصدق نظرة الشيخ هذه على المجتمعات الأكثر تمدنا، حيث انطلاق المرأة ووقوفها على قدم المساواة مع الرجل في العمل والإنتاج، والاستقلال المالي... كل ذلك يساعد على اختلال التوازن في المجتمع وانقلاب الموازين رأسا على عقب.

وباسم "حق المرأة في الحياة" استوطن الفساد والرذيلة، ومهدت السبل لإشاعة كلمة حق أريد بها باطل، لذا يسارع الشيخ "الغزالي" ليكشف خبايا هذا الحق بجرأته المعهودة مستهلا ذلك ببيان وجه الخلاف الحقيقي بين الإسلام ومدنية الغرب، الممثل أساسا في أسئلة تتوق المدنية إلى الإجابة عليها "بنعم"، وهي كما يطرحها:"

- هل المرأة كلأ مباح أم لا؟
- هل جسمها وعرضها نهب للكلاب والذئاب أم لا؟
- هل تشتبك مع الرجال في أحفال الرقص أم لا؟
- هل تحشر حشرا في الفصول والمدرجات بين الطلاب الذكور أو تقوم الفواصل بينها وبينهم؟
- هل يترك الاختلاط طليقا يؤدي لنتائجه المرة أم توضع له المعالم التي تباعد بين الأنفاس، وتصون حرمات الله والناس؟"[334].

وبديه أن هذا هو الخلاف الحقيقي بين الإسلام وهذه المدنية الفاجرة، إذ الخلاف ليس فيما تدعيه هذه المدنية من ضمان لحق الحياة والعمل والإنتاج للمرأة؛ لأن الإسلام وحده صاحب السبق في هذا

([333]) المصدر نفسه، ص 228.

([334]) محمد الغزالي، الإسلام والطاقات المعطلة، ص 115.

المجال وفي غيره مما يصون للمرأة عرضها وشرفها ويدافع عن حقوقها وحرياتها, في وقت يكون دفاع تلك المدنية عن حقوق

وحريات المرأة دفاعا مزورا مغشوشا!! الأصل فيه دفاع عن شهوات الرجل وحسب، وهيهات أن يحمل أدنى دفاع عن حق المرأة المظلومة.

لقد أمست المرأة في البيئات التي خلفها الاستعمار تفكر بعقل المستعمر، وتتبع تقاليده وتحذو حذوه في كل شيء، فترفض تقاليد أمتها بعد أن امتد الغزو الثقافي في فراغها، بل ترى فيها قيودا لا مسوغ للاحتباس فيها إلا مجرد الإبقاء على عادات قديمة رثة خلفها الآباء والأجداد... ولهذا كان تعبير الشيخ: "الغزو الثقافي يمتد في فراغنا" في موضعه المناسب، إذ جعله عنوانا لأحد كتبه والذي نقرأ في صفحاته تأكيده بأن " التحدي الثقافي الأجنبي يمتد حتما في هذا الفراغ العقلي والديني عندنا، وربما أعانه هذا على استئصال شأفتنا، والقضاء على رسالتنا"[335].

وكما ذكرنا، فأنه يحق قول "الغزالي" بأن المرأة المسلمة –بهذه التقاليد– قد انتقلت من ضلال إلى خبال، ونحن لا ننكر هذا عليها، فهي إذا تحررت من قيد التقاليد الشرقية الجاهلية وقعت أسيرة تقاليد وافدة مع الاستعمار الغربي الذي غزا عقلها وفكرها، فانسلخت من شرعة الأدب والفضيلة واستسلمت لحياة التحلل والانطلاق الأعمى.

وفي خضم هذا الواقع يرتفع صوت "زينب الغزالي" محذرا من الأخطار المحدقة بالمرأة المسلمة، والأخطار الكبرى التي تنتظرها والتي ستواجهها، فتنبه المرأة المسلمة إلى كيد الصليبية وحقدها الدفين قائلة: "لقد أدرك الصليبيون أهمية دور المرأة في بناء المجتمع الإسلامي، فبذلوا كل الجهد لإفساد عقيدتها وخلقها وحياتها للتحول بها إلى أداة لإفساد المجتمع كله، والصليبية –ومعها الصهيونية– وراء كل الأفكار التي أبعدت المسلمة عن دينها، سواء عن طريق المناداة بتحرير المرأة أو المساواة بينها وبين الرجل، وتمزيق الحجاب والخروج للعمل والمشاركة في الحياة السياسية، أو الاختلاط والموضة أو... وكلها سموم وإن ظن ساذج أنها عسل!" [336].

و"الغزالي" بدوره يتألم من التحول الخطير الذي طرأ على مسار المرأة المسلمة فجرها من العطل إلى الفساد، ومع ذلك لا يفتأ يذكر نفسه والآخرين بالتقصير في حقها والتسبب في انحرافها، فلا يلقي اللوم كله على الآخرين حينما انتهزوا الفرص لخدمة ما يعتقدون، ولكن ينزع إلى رد اللوم كل اللوم

([335]) محمد الغزالي، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، ص 71.

([336]) ابن الهاشمي، الداعية زينب الغزالي" مسيرة جهاد وحديث من الذكريات من خلال كتاباتها"، ص 58.

على المسلمين إذ تركوا فراغا امتد فيه غيرهم، فيقول ساخرا: "... ومن ترك باب داره مفتوحا لا يلوم اللصوص إذا سرقوا مدخراته"[337].

ومع هذا النقد الموضوعي لتسيب المسلمين، نجده يحارب –بداهة– مباذل حضارة الغرب (أوروبا وأمريكا) الشائنة التي تشيع التفسخ والهلاك، ويأبى استبدال جاهلية عربية بجاهلية أوروبية؛ هكذا كان موقف الرجل من

التقاليد الجاهلية بصفة عامة (عربية وأوروبية)، موقفا صريحا جريئا لا يخشى في الحق لومة لائم، فكلتاهما شر وانحراف عن سواء السبيل. وفي جملة تقويمه لها يعتقد أن:

"الانحراف المأخوذ على الغرب ليس أسوأ من الانحراف الذي ينشدونه هم، إن الغرب يميل عن الصراط المستقيم ثلاثين درجة إلى اليسار، وهم يميلون عنه ثلاثين درجة إلى اليمين والعوج الواقع لا يخففه أن يكون هنا أو هناك، إنه بعد عن هدايات الله على أية حال"[338].

ومما لاشك فيه أن هذا الانحراف المستمر في الفطرة الإنسانية، وخدش جماليات هذه الفطرة؛ من عفة وحياء ونقاء... كما يجسده الغرب هنا وهناك سببه ضعف اليقين وحب الحياة العجلة، الأمر الذي جعل الهوة تزداد اتساعا بين الأمة والدين؛ مما فتح الباب على مصراعيه لسخرية الغرب، وأمكنه الفرصة تلو الأخرى من تحقيق أغراضه ومآربه، وتنفيذ مشاريعه بشكل مستمر ومتواصل، لتدمير المنظومة القيمية الإسلامية، وتحريف ما أمكن تحريفه من عناصرها المتماسكة.

والواقع أن تلك التقاليد كما أقرتها مدنية الغرب، فقد قلبت الموازين الأخلاقية رأسا على عقب، وانطلقت تمحو قواعد الحلال وترسي قواعد الحرام التي لا تعدو أن تكون غالبا استغلال أنوثة المرأة والانحدار بها إلى مرتبة الحيوانية.

وتقديرا للواقع نقول: إن أولى خطى التصحيح التي يؤمن بها الشيخ "الغزالي" –رحمه الله– هي العودة بالمرأة إلى تعاليم الإسلام الصحيحة، كما طبقت أيام السلف الصالحين، ولا صلاح لشأنها إلا بهذه العودة[339].

ولنا أن نسأل بعد ذلك: ماذا أحدث التقاء "الموروثات الرديئة" مع المحدثات السخيفة" –بتعبير الشيخ– في حياة الأمة الإسلامية وكذا المرأة المسلمة؟.

([337]) محمد الغزالي، ظلام من الغرب، ص 161.

([338]) محمد الغزالي، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، ص 76-77.

([339]) محمد الغزالي، الإسلام والطاقات المعطلة، ص 108.

لقد أمعن "الغزالي" في سبر أغوار هذا الالتقاء فوجد أنه "ضاعف حجب الغفلة وعقد أسباب البلاء، كما أنه زاد أعباء المصلحين، وضرورة التروي في حل المشكلات، والتلطف في بعث القوى الهامدة"[340].

من هنا فإنه تدعو إلى ضرورة النظرة الواعية في تلك الرذائل لكشف سوئها، وشرح دورها في إفساد الضمائر، وتعويق السير، وتضليل الغاية،... لكونها آفات يظهر فيها المروق عن الدين والفسوق عن أمر الله، ورفض الاستجابة والانقياد لآيات الله[341].

بيد أننا عندما نمعن النظر في تبيين الفروق بين تلك العادات المتوارثة والتقاليد المتسللة إلينا من الخارج التي انتشرت بيننا ووقفت سيرنا، نرى البعد الشائن لكليهما عن مستوى الاعتدال والاتزان؛ فكلاهما شرود عن الصواب وابتعاد عن الحق.

ولا جرم أن التقاء تلك الموروثات التافهة الشأن والمحدثات الفاسدة جعل الفوضى والارتباك يسودان عالم المرأة، في حين بات وجه الإسلام الصحيح لا يكاد يبين في زحمة هذه التقاليد وتلك. وكانت النتيجة الحتمية، أن غدت المرأة ضحية لصراع فكري بين مختلف التيارات المؤيدة والمعارضة لهذه الموروثات والمحدثات.

وصفوة القول، لكي نتمكن من العودة إلى ديننا، ونتصل بخط سيره الأول، ونحصن أنفسنا ضد العلل النفسية والاجتماعية الزاحفة علينا مع الغزو الأجنبي، لا بد من رعاية أمور شتى يحصيها "الغزالي" – رحمه الله– في كتابه "قذائف الحق"، وهي[342]:

1- توثيق الصلة بين المرأة وينابيع الثقافة الدينية والمدنية.

2- إعادة الجيل للعلاقة بين النساء وبيوت الله في الصلوات.

3- تدريس الوظائف التربوية للبيت المسلم حتى نستطيع تخريج أجيال تعرف ربها ودينها ومعاشها ومعادها على قواعد مغروسة في اللحم والدم، وفضائل يرضعها النشء مع اللبن.

4- الحكم بإعدام ما تواصى به المسلمون في تقاليد الزواج من مغالات في المهور وإسراف في الحفلات وتكديس للأثاث وتنافس في الكماليات، وإعادة الزواج إلى معناه السهل القديم ليكون عصمة وسياجا للدين والدنيا.

([340])و(4) المصدر نفسه، ص 128.

([342]) محمد الغزالي، قذائف الحق، ص 314.

5- وصل ما بين البيت المسلم وقضايا المجتمع الكبرى حتى لا يحيا بيت في جو منافعه الخاصة جاهلا أو جاحدا ما وراءها، ولو أن كل دولة مسلمة أنشأت وزارة للأسرة والشباب كي تضمن ما ذكرناه ما كان ذلك كثيرا، بل لعله يكون أقرب إلى حياتنا الإسلامية الصحيحة.

والمتأمل في هذه العناصر يجدها بمثابة البنى الأساسية التي تتأسس عليها المرجعية الإسلامية في بعدها العلائقي. فلا تصبح المرأة مجرد فرد، وإنما شخصية مركزية فاعلة في شبكة العلاقـــات الاجتماعيـــة. وهذه لا ريب أعظم استراتيجية –بالمفهوم الحديث- تأخذ بها الأمة المـــسلمة إذا أرادت أن تنـــهض بأدوارها الريادية التي كانت عليها.

المبحث الرابع: صورة المرأة النموذجية عند الشيخ "محمد الغزالي".

من منطلق وعي "الغزالي" الداعية التام بأن "الإسلام لا يقيم -في سباق الفضائل- وزنا لصفات الذكورة والأنوثة، فالكل سواء في العقائد والعبادات والأخلاق، الكل سواء في مجال العلم والعمل والجد والاجتهاد؛ لا خشونة الرجل تهب له فضلا من تقوى ولا نعومة المرأة تنقصها حظا من إحسان"[(343)].

ومن منطلق فقهه العميق للقرآن الكريم ووثاقة صلته به، وتأمله في أعماق الآية الكريمة ﴿**مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا، وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا**﴾[(344)]. يستقي "الغزالي" -رحمه الله- نماذج من النساء في التاريخ ويبرز ما حققن من إنجازات رائعة للبطولة والمجد والنضال... ليرسم للمرأة المسلمة الصورة المثلى التي ينبغي أن تظهر بها في الحياة وتتقمصها لتدعيم شخصيتها ومكانتها في الوجود.

وفي ضوء هذه الرؤية، كان من حقه، وهو الداعية المتمرس في شؤون أمته، الواعي بالواقع المتدني للمرأة المسلمة، أن يجاهد نفسه فيعطي نماذج من هنا وهناك، تفسح للمرأة المجال للاقتباس في حدود ما أقره لها الشرع.

المطلب الأول: نماذج من المرأة العربية المسلمة.

للشيخ "محمد الغزالي" -رحمه الله- وقفات مطولة في محطات تاريخية صنعتها نسوة أخيار كن مضرب المثل، ونموذج القدوة عبر التاريخ، أدين واجبهن الديني

---

(343) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص 92.

(344) سورة النساء: الآية 123-124.

والدنيوي بمهارة تفوق أحيانا مهارة الرجال، وبرعن في ميادين الدعوة والجهاد والنضال...

ويكفي في ذلك أن نقرأ ما كتبه في مؤلفه "قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة" عن نماذج فذة تحت عناوين بليغة تشد الانتباه: "امرأة بألف رجل"، "امرأتان نادرتان"، "الصديقة الأدبية"...

ونظرة فاحصة في تاريخنا وتراثنا ترينا -كما يقول الشيخ- أن "النساء الصالحات كثر في تاريخنا، ما بخلن بمال ولا وقت في سبيل الله، وقد أدين في صمت ما يعجز عنه الكثيرون، ويستطيع الباحثون في بطون التاريخ أن يجدوا أسماء متوارية محرومة من الشهرة لها عند الله مكانة رفيعة لا ينالها غيرهم"[345].

ويوغل الرجل في أعماق التاريخ فيصور لنا -ابتداء بنساء بيت النبوة والصحابيات الجليلات- من واقعهن صورا ناصعة تستدعي الوقوف، فيشعر بالإعجاب والانبهار لشخصية أم المؤمنين "خديجة" في تميزها بالبصيرة الثاقبة، والخبرة الواسعة بأغوار الرجال، وبميدان عملها التجاري، ثم بجرأتها الأدبية الفائقة. ويستوقفه تجلد "سمية" وصبرها على ما ينزل بها من تعذيب.. فيكتب قائلا: "كم أشعر بالإعجاب لأول امرأة أسلمت، ولأول امرأة استشهدت"[346].

وعن علم أن أم المؤمنين "عائشة"-رضي الله عنها- يقول: "وعلم عائشة يتجاوز الفتوى إلى التصحيح، ورد ما يشيع من خطأ، وكان رسوخها في فهم القرآن، وفقهها في السنة النبوية، وإطلاعها الواسع على أدب العرب يجعلها المرجع الثقة أبدا"[347].

فتأخذه الحسرة على نساء المسلمين وتراجعهن في شتى الميادين الدينية والدنيوية، لذلك نجده لا يفتأ يدعو إلى تدارس جدِّي لسير وخلال أولئك النسوة، وعلى ضوء ذلك يتساءل: "ألا تكون هذه السيرة الناضرة أسوة للنساء المسلمات في شتى الأعصار والأمصار؟ أم تقول للنساء: أقعدن في البيوت، لا شعر ولا نثر، ولا دين ولا دنيا!!" [348].

ثم يستوحي الشيخ "الغزالي" من التاريخ الإسلامي أيضا قصص مسلمات كن بمثابة منار الدعوة إلى الله من أمثال: "أم سليم" وقصة مهرها الشهيرة من "أبي طلحة" -خدمة للدعوة الإسلامية حينها- و"أم حكيم" التي

كانت سببا دافعا لإسلام "عكرمة ابن أبي جهل". وإلى ذلك يلمع الشيخ مؤكدا أن "إسلام أبي طلحة بعض حسنات أم سليم التي أوتيت العلم والإيمان من قبله، وإسلام عكرمة بن أبي جهل، وجهاده واعتراضه الرومان يوم اليرموك اعتراضا كسر حدتهم... ثم استشهاده آخر الأمر، كل ذلك يوضع في كفة حسنات زوجته أم حكيم

([345]) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص 81.

([346]) المصدر نفسه، ص 83.

([347])و(4) المصدر نفسه، ص 85.

التي أغرته بالإسلام إغراء واجتذبته إليه اجتذابا... ولا ينقص ذلك من أجر الشهيد العظيم شيئا"[349].

وفي اعتقاد "الغزالي" الجازم أن أجر "أم سليم" لا يقل عن أجر زوجها!، ولا ريب فإن هذه الحقائق التاريخية –من رؤيته- هي التي جعلت الوحي الأعلى يفصِّل عند تقسيم الجزاء، فيذكر الجنسين معا لقوله تعالى: ﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى...**﴾[350].

لقد أدرك الرجل لطول خبرته وكذا إحاطته الشمولية بالتاريخ، أن أمجاد التاريخ الإسلامي كانت للمرأة اليد الطولى في صياغتها، فضلا عن إسهامها الجبار في صنع نهضة الإسلام وحضارته، لذا نجده يلح دائما على أن: "المرأة العظيمة تعين الرجل على الجهاد وعلى الاستشهاد"[351].

ويمكننا أن نفهم هذه القاعدة في ضوء نماذج لشخصيات نسائية يستحضرها "الغزالي" في ثنايا كتبه معقبا: "... واسمع لها تحرض رجلها على الموت! قالت أسماء بنت أبي بكر –توصي ولدها عبد الله بن الزبير- بالثبات في قتال الظلمة-: "يا بني، لمن قتل على باطل فلقد قتلت على حق!. اللهم ارحم طول ذلك القيام، وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة وبره بأبيه وبي. اللهم إني قد سلمت لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت، فقابلني في عبد الله بثواب الشاكرين الصابرين. ثم أخذته إليها فاحتضنته لتودعه، واعتنقها ليودعها –وكانت قد عميت في آخر عمرها- فوجدته لابسا درعا من حديد.

فقالت: "يا بني، ما هذا لباس من يريد ما تريد من الشهادة!

فقال: يا أماه إنما لبسته لأطيب خاطرك وأسكن قلبك به!

فقالت: لا يا بني انزعه.

ثم جعلت تذكره بأبيه الزبير، وجده أبي بكر، وجدته صفية بنت عبد المطلب، وخالته عائشة زوج رسول الله، وترجيه القدوم عليهم إذا قتل شهيدا... فخرج من عندها، وكان ذلك آخر عهده بها"[352].

لقد فعلت ذلك "أسماء بنت أبي بكر" كما فعلت ذلك "الخنساء" في معركة القادسية، ويمضي الشيخ في الإشادة بمواقفها الجهادية، وتضحياتها في سبيل الله، فيلاحظ أن "الملامح النبيلة للمرأة المسلمة نراها في الخنساء، التي جاهدت في حرب فارس، وحضرت موقعة القادسية الهائلة، واشتركت بأبنائها الأربعة، وقبل أن ينزلوا

---

(349) محمد الغزالي، علل وأدوية، ص 128.

(350) سورة آل عمران: الآية 195.

(351) محمد الغزالي، علل وأدوية، ص 128.

(352) محمد الغزالي، ظلام من الغرب، ص 241.

ساحة الوغى جمعتهم وزودتهم بنار من الإيمان، ونور من اليقين (...) ولما بلغ خبر استشهادهم إلى الخنساء لم تجزع، بل قالت: الحمد لله الذي شرفني بهم"[353].

والمفارقات جلية -يكشفها هذا النص- بين امرأة يصنعها الإسلام، وأخرى تصنعها الجاهلية، وهو ما يجتمع في شخص "الخنساء"، هذه المرأة البكاءة في الجاهلية لوفاة أخيها "صخر"، الصابرة المستبشرة لاستشهاد أبنائها الأربعة في الإسلام، وهذا -من دون شك- من الأبعاد الوظيفية للإيمان واليقين بالله عز وجل.

يستجلي "الغزالي" ذلك وفي فوائده غصة من واقع أليم تصنعه رائدات النهضة النسائية، فيغيظه إهمالهن بل صدهن عن الزخم الهائل من شخصيات نسوية تاريخية كن خير أسوة لهن-لو أحسن الاستفادة منهن والسير على منوالهن-، وارتمائهن في أحضان الغرب ينشدن عنده القدوة.

وعلى غرار ذلك لا تفوته المناسبة ليوجه لهن انتقاده، فيقول ساخرا: "إن رائدات النهضة النسائية في بلادنا أقصر باعا وأنزل رتبة من أن يفقهن هذا المثل، فإحداهن تكره أن تكون أما لأربعة، ولو فرضت عليها الأقدار أمومة أربعة ما أحسنت حضانتهن وتربيتهن وتوصيتهن حتى يبلغوا هذه الذروة (...) وعندما يقال لها: تستطيعين صناعة المستقبل كما تبغين عندما تحسنين تبعل الرجل، وتنشئة الذرية الوافدة، يتورم أنفها ضيقا وغيظا"[354].

يستأنف الشيخ حديثه بهذا الصدد، فيرصد وضع المرأة في ضوء السيرة النبوية فيرى العجب العجاب "يوم حنين"، حين استسلم الطلقاء للهزيمة، وثبت بضعة نسوة مع المؤمنين الراسخين، قاتلن بشرف وبسالة ودافعن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أيما دفاع، من أمثال: أم سليم (الغميصاء بنت ملحان)، وأم عمارة (نسيبة بنت كعب)...[355].

وبأسمى عبارات التبجيل والإعجاب يصف الشيخ "هند" زوجة "عمرو بن الجموح" قائلا: "...ولننظر في أدب وتوقير إلى امرأة ألبسها الله تاج الإيمان والكرامة، حضرت معركة أحد وأبلت بلاء حسنا وفقدت في هذه المعركة ابنها وزوجها وأخاها، وبقيت على فداحة مصابها راسخة الإيمان، محبة لله ورسوله، تقول بعدما نجا الله رسوله من القتل بأيدي الكفر: كل مصيبة بعده جلل، تعني تافهة..."[356].

هذا ولا ينسى "الغزالي" بطولة "نسيبة بنت كعب الأنصارية" النادرة، لقد شهدت هذه المرأة قتال أحد، وشهدت بيعة الرضوان في عمرة الحديبية وشهدت فتح مكة ويوم حنين، وكانت قد شاركت -من قبل- في بيعة العقبة... "إنها مثل عال للمسلمة المجاهدة التي شرفت أسرتها ودينها"[357].

([353]) محمد الغزالي، ركائز الإيمان بين العقل والقلب، ص 294-295.

([354]) المصدر نفسه، ص 296.

([355]) محمد الغزالي، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص 197-198.

([356]) المصدر نفسه، ص 198.

([357]) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص 89.

وفي باب الزهد والبذل السخي في سبيل الله، يلمح الرجل إلى ما قامت به امرأة محسنة وقفت ما لها لله، وأنشأت منه مؤسسات يتفجر الخير منها منذ عشرات السنين، هذه المرأة هي "الخازندارة"، والشيخ "الغزالي" أحد المدينين لها ماديا وأدبيا, يعترف بذلك في قوله: "الحق أنني دعوت من أعماق قلبي للمرأة الصالحة! تبني معهدا ومسجدا وملجأ ومستشفى؟ تنشر العلم وتحمي العبادة وتربي اليتامى، وتداوي المرضى؟ أي قلب زكي في صدر هذه المرأة التي أقرضت الله قرضا حسنا، وادخرت عنده ما ينضر وجهها ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾[358]"(2).

ويلتفت الشيخ إلى الجزائر أين سمع باسم السيدة "فاطمة السومرية" التي قادت جيشا من أشجع الشباب، وهزمت عددا من الجنرالات الفرنسيين في معارك ضارية!! ثم يستغرب لأن اسمها وإن ذكر باحترام يطوى على عجل. فلم يجد بدا من توجيه هذا الاقتراح للجزائريين قائلا: "خلدوا سيرة بطلتكم هذه، ودرسوها للبنات في المدارس والمعاهد، فالذكرى تنفع المؤمنين!" (3).

وإلى جانب هذا ينظر الشيخ إلى واقعه، فيرشح نماذج رائدة من نساء عصره لخدمة الدين والدعوة، فيقول: "... وأعرف الآن نساء يقمن بعمل رحب في خدمة بيوت الطالبات، وإنشاء المؤسسات الصحية والثقافية... في مقدمتهن السيدة الجليلة "زهيرة عابدين" الأستاذة بكلية طب جامعة القاهرة"(4)، مذكرا بجهود هذه المرأة في تصحيح المفاهيم، وسعيها في إخراج الدين من قوقعة أصحاب الأهواء والمعقدين، قائلا: "وقد استعانت بي في فتوى متواضعة لتمنع متخرجة في كلية الصيدلة من القعود في البيت والارتزاق من آلة خياطة... لأن أحد المشايخ قال لها: "إن المرأة لا يجوز أن ترى أحدا أو يراها أحد". قلت لها" هذه فتوى مخبول لا يعرف الإسلام، بل هو وأمثاله قرة عين لأعداء الإسلام، فلا يحرم الإسلام على المرأة أن تبيع وتشتري، وأن تتعامل مع الناس ما دامت مستترة في زيها الإسلامي، متأدبة بآداب الإسلام، غير متبرجة بزينة، تحفظ نفسها وعرضها من الذئاب"(5).

وفي المقابل يستبشر الشيخ "الغزالي" بظهور نساء يصدعن بالحق بين الحين والآخر، من ذلك السيدة "زينب الغزالي الجبيلي" التي جاهدت جهادا صادقا في بناء نهضة إسلامية واعية وأبلت بلاء حسنا في ميدان الدعوة لله(6).

([358]) سورة الحديد: الآية 12.

(2) محمد الغزالي, قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة, ص80.

(3)محمد الغزالي, سر تأخر العرب والمسلمين, ص48.

(4)و(5) محمد الغزالي, الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية, ص17-18.

(6) محمد الغزالي, دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين, ص200.

وفي واحدة من خطب الجمعة بجامع "عمرو بن العاص" يعلو صوت الشيخ الإمام ليؤكد أن "قضية المرأة تحتاج إلى نهضة نسائية راشدة وأقول، أنا أعرف نساء في السلك الجامعي –أساتذة- يشرفن الآن على بيوت الطالبات وعلى أعمال نسائية جليلة في خدمة المرأة، (...) وأعرف أديبات مسلمات يكتبن كتبا رقيقة في خدمة الدين ورفض التبرج ولهن أقلام رائعة... أسأل نفسي وأسأل هذه الأمة: لم لا يقود هؤلاء النسوة الحركة النسائية في بلادنا؟!"[359].

ويجدر بالذكر أن نؤكد بدورنا ما أكده "الغزالي"، من أنه يستحيل أن تنهض المرأة بقيادة نسوة جاهلات متبجحات، يطحن الإسلام ظهريا،ويقدن حركة نسائية غريبة نابية عن أمتنا، ومن منطلق هذه الثقة في قدرات المرأة المسلمة فإنه يعتقد بأنه يستحيل أن تنهض المرأة إلا بقيادة "امرأة تصلي وتزكي وتصوم وتحج البيت"[360].

هكذا إذن يرى "الغزالي" الصورة النموذجية للمرأة المسلمة، الصورة التي رسمتها أمهات المؤمنين والصحابيات، وأمثالهن ممن حذون حذوهن وتقصين أثرهن، فهو يدعو إلى صياغة المرأة على هذا المنوال؛ صياغة تنزع بها إلى تقمص الأخلاق الراقية والخصال الزكية التي ظهرت بها المرأة المسلمة.

إن امرأة اليوم يجب أن يكون لها –فعلا- من يرسم لها هذه الصورة، ويبصرها بيومها وحاضرها وغدها، يبصرها بتاريخها المجيد وما حمل من أسماء لامعة، وما يستفاد منه من عبر، من أمثال شيخنا "محمد الغزالي" –رحمه الله-؛ إنه من خلال كتاباته يسجل الوقائع ويستخلص منها العبر والدروس، وبتلك الإحاطات النبيهة لا يفتأ يدعو إلى اقتفاء خطى النسوة تركن بصماتهن على صفحات التاريخ الإسلامي وبلغن الروعة في العلم والعمل والعبادة...، ويوجهنا إلى أن نقتدي بتلك النماذج الجديرة بالإكبار إذا نحن ابتغينا العودة إلى المعالي من جديد.

المطلب الثاني: نماذج من المرأة غير المسلمة

لقد زادت الشيخ "محمد الغزالي" خبرته في الحياة، وسعة إطلاعه على إنجازات المرأة في الغرب الشيوعي والرأسمالي، إدراكا بنواحي العطب المتعددة في كيان أمته، فنذر نفسه لإصلاح ما يمكن إصلاحه وتجديد ما يمكن تجديده، وهو ينطلق لا تحده الأقطار، فنراه يتحدث عن نماذج نسوة مسلمات وما حققن في تاريخهن، كما يتحدث عن صور لنساء غربيات تستحق التسجيل.

وفي الوقت الذي يدعو فيه المرأة المسلمة إلى إصلاح أمرها باقتفاء خطى أخواتها اللاتي صنعن التاريخ، يدعوها إلى الوقوف والإطلاع على تفوق المرأة هناك (في الغرب)، بل إلى حسن الاقتباس منها.

والحق أن تلك الرؤية لم تكن أبدا لانبهاره بأولئك النسوة لأشخاصهن وذواتهن، وإنما لعلمه –رحمه الله- بأن هذه الحقائق لا بد أن تعرف؛ فإذا كان أعداؤنا قد صنعوا المعجزات وهم على باطل فلم تقتبس من عندهم

---

[359] قطب عبد الحميد قطب، خطب الشيخ الغزالي في شؤون الدين والحياة، ج4، ص 160.

[360] المرجع نفسه، ص 160-161.

المرأة المسلمة هذا التفوق وهي على حق، هذا وفضلا على أنهم ما تقدموا إلا بما نقلوه عن أسلافنا فلم لا نقتبس منهم ما يدعمنا ويواصل مسيرتنا استرجاعا لما سلب منا في فترات غفلتنا.

هذا ما يؤكده الشيخ "الغزالي" ونقرؤه في أحد مؤلفاته، إذ يقول: "ومن الغلط تصور أني أحرم الاستفادة من تجارب الآخرين ومعارفهم!! كيف وهؤلاء الآخرين ما تقدموا إلا بما نقلوه من أسلافنا من فكر وخلق ووعي وتجربة؟!.

إن دولة الخلافة الراشدة اقتبست في بناء النظام الإسلامي من مواريث الروم والفرس دون غضاضة...

وعندما آكل أطعمة أجنبية أبا بحاجة إليها فالجسم الذي نما هو جسمي، والقوى التي انسابت في أوصاله هي قواي!!

المهم عندي أن أبقى أنا بمشخصاتي ومقوماتي!!

المهم أن أبقى وتبقى في كياني جميع المبادئ التي أمثلها والتي ترتبط بي وأرتبط بها؛ لأنها رسالتي في الحياة، ووظيفتي في الأرض، هذا هو مقياس النهضة"[361].

وبالجرأة المعهودة في الشيخ، رد كثيرا من الانتقادات المفندة لرأيه وتناول بجدية ضرورة الانتفاع من الآخر، فهو القائل: "... ولم يكن بد من الانتفاع من تجارب غيرنا لأن فقهنا المجمد من قرون لا يلبي الحاجات الطارئة"[362].

ولا ريب فإن نظرته هذه جرّت عليه الكثير من البلاء ممن لا يحسنون الفهم، "وقد فسروا نظرته لبعض الآراء وقناعته بها أنه يتأثر بضغوط الواقع الجاهلي المسيطر وسيطرة النظم والقوانين والنظريات الغربية"[363].

لكن الشيخ "الغزالي" لم يقف صامتا بل دافع عن اتهاماتهم له بالميل إلى الحياة الغربية، باعترافه في إحدى خطب الجمعة: "أنا ساخط على الأمريكيين وغاضب عليهم؛ لأنهم ضدي وضد ديني وبلدي!! لكن يوم أرى المسلمين لا يحسنون الارتفاع إلى مستوى خصومهم يغلبني القهر وأكاد أبكي!! ما الذي يجعلنا على هذا النحو من فساد التصور للأمور؟..."[364].

بيد أن الالتفات إلى الوجه المشرق من واقع الغربية يجعل الشيخ يدعو المسلمين إلى ضرورة التفتح العقلي، ونبذ التقوقع والجمود فضلا عن كونه قد جعل من هذا النقد والتوجيه فريضة ملحة، إذ يرى أن : "النقل والاقتباس في شؤون الدنيا، وفي المصالح المرسلة، وفي الوسائل الحسنة ليس مباحا فقط، بل قد يرتفع الآن إلى المستوى الواجب"[365].

---

(361) محمد الغزالي، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص 228.

(362) المصدر نفسه، ص 224.

(363) رمضان خميس الغريب، محاور المشروع الفكري لدى الشيخ محمد الغزالي، ص 231.

(364) قطب عبد الحميد قطب، خطب الشيخ محمد الغزالي في شؤون الدين والحياة، ج1، ص 214-215.

(365) محمد الغزالي، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص 225.

وله ما يدعم نظرته هذه، إذ يقول الإمام الشهيد "حسن البنا" –رحمه الله- "الإسلام يحرر العقل ويحث على النظر في الكون، ويرفع قدر العلم والعلماء ويرحب بالصالح والنافع من كل شيء و"الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها"""[366].

إن "الغزالي" يدعو في كتاباته إلى الانفتاح على الغير، لكن هذا الانفتاح يقتضي وجود ضوابط تحفظ كل ثوابت الشرع والدين، وهذا ما يحتاج إلى مناعة كافية تمنع تسرب الجراثيم إلى الكيان الإسلامي. وفي نظره أنه لا ضير من استيراد ثمرات التقدم وآلياته، وكذا الانتفاع من خبرات الغير في آفاق الحياة العامة، فالمهم أن يكون ذلك في إطار صلب في شرائعنا وشعائرنا.

وفي ضوء هذه الرؤية الواعية الناضجة وجدناه في كتاباته يعمد إلى تقصي أخبار المرأة الغربية، وانتقاد نماذج حية من واقعها لا يمكن بحال تجاهلها وغض الطرف عن بطولاتها وأمجادها في التاريخ، وفي هذا الشأن يقول: "لقد رأيت نساء ذوات عقول وهمم، لا يدانيهن رجال كثير، ولا يزري برجحانهن أنهن نساء،... بل امرأة مثل "تاتشر" أخطر وأنفع لوطنها من زعماء خانوا دينهم وباعوه بثمن بخس... إن القاعدة العامة في القرآن الكريم: **﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**[367]"[368].

ويمكننا أن نفهم رأيه في تلك المرأة في ضوء محاورته لأحد الشباب القاصري النظر... حين تجاوز جوانبها المتعلقة بالقصور الديني، وأمعن في جوانب العمل والمثابرة والإخلاص[369].

لقد ظل الرجل يساند الحق، ويناصر أهله، مرتبطا دائما بقواعد الإيمان وركائزه والولاء للإسلام وحده، لا يحيد عنها قيد أنملة. من أجل ذلك وجدناه ينوه بنشاط المرأة اليهودية في سبيل خدمة دينها ووطنها، ويذكرها بما هي أهل له كما فعل مع "مارغريت تاتشر" رئيسة وزراء إنجلترا. وقد تناول تلك الأمثلة في مؤلفه "السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث" قائلا: "... وقد لاحظت أن المرأة اليهودية شاركت في الهزيمة المخزية التي نزلت بنا، وأقامت دولة إسرائيل على أشلائنا، إنها أدت خدمات اجتماعية وعسكرية لدينها. كما أن امرأة يهودية هي التي قادت قومها، وأذلت نفرا من الساسة العرب لهم لحى وشوارب في حرب الأيام الستة وفي حروب تالية...!"[370].

ثم يلقي نظرة على تفاني الراهبات في خدمة التنصير، ودعم صفوفهن بشتى الطرق والأساليب:

([366]) المصدر السابق، ص 229.

([367]) سورة النحل: الآية 97.

([368]) محمد الغزالي، صيحة تحذيرمن دعاة التنصير، ص 113-114.

([369]) سبق الإشارة إلى الحوار كاملا، أنظر ص 102-103.

([370]) محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص 45.

"وقد لاحظت في الشمال الإفريقي وأقطار أخرى أن الراهبات وسيدات متزوجات وغير متزوجات يخدمن التنصير بحماس واستبسال!.. ولعلنا لا ننسى الطبيبة التي بقيت في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين وهي تهدم على رؤوس أصحابها وتحملت أكل الموتى من الحيوانات والجثث، ثم خرجت ببعض الأطفال العرب آخر الحصار لتستكمل معالجة عللهم في إنجلترا..."[371].

وبهذا الشأن لا ينسى الغزالي مثال المبشرة "تريستا" وجهودها الواسعة في خدمة رسالتها التبشيرية يروي لنا قصة جهادها لخدمة المسيحية: "... قرأت أسماء من نالوا جائزة نوبل العالمية، فإذا بين العمالقة المختارين اسم راهبة من الهند تدعى "تريستا"! وتساءلت: ترى لماذا منحت هذه الجائزة؟ وكانت الإجابة:إنها نجحت نجاحا تاما في أداء رسالتها التبشيرية! ... أنها من مركز عملها في "كلكتا" منذ سنة 1947م كانت تقوم بخدمات عظيمة في إغاثة المنكوبين ورعاية المرضى... وكان "السيناتوركيندي" قد رشح اسم الراهبة عندما زار الهند في أثناء أزمة "بنجلادش" واطلع على الجهود التي بذلتها لإسكان لاجئي باكستان الشرقية، وقد شاهد بنفسه نشاط الراهبة التي تعمل لنشر الدين المسيحي بين شتى الطبقات وبين البؤساء والمساكين والمضطهدين... وذلك عن طريق فتح شبكات المدارس والمستشفيات والملاجئ... ودور رعاية اللقطاء والأطفال المهجورين..."[372].

يستكمل الغزالي حديثه فيذكرنا بأسماء لامعة في صفحات تاريخية "أنديرا غاندي –جولدا مائير –الملكة فيكتوريا..." نساء هناك استطعن تحقيق ما كانت تصبو إليه آمال الرجال هنا.

"فأنديرا غاندي" مثلا كانت وراء الضربات القاصمة التي أصابت المسلمين في القارة الهندية، فحققت لقومها النصر الذي كانوا يصبون إليه، حتى شطرت الكيان الإسلامي "باكستان" شطرين! وصنعت هزيمة المسلمين وأذلتهم، حين عاد الماريشال "يحيى خان" يجر أذيال الخيبة!! [373].

فحق فيها قول الشيخ الغزالي: "إن امرأة تحكم ومعها جهاز شورى دقيق، أقرب إلى الله وأحن على الناس من مستبد يقف الغراب على شواربه، ويزعم أنه أحاط بكل شيء علما، وهو لا يدري شيئا"[374].

فعنده أن امرأة كـ: "أنديرا غاندي تتولى الحكم وتجري انتخابات نزيهة تسقط هي فيها، أشرف من رجل له قامة وهامة يتولى الحكم ويزور الانتخابات ويطلع على الناس بوجه وقاح كأنه لم يصنع شيئا وهو قد أهلك الحرث والنسل"[375].

([371]) المصدر السابق، ص 45.

([372]) المصدرنفسه، ص 44-45.

([373]) محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص 50.

([374]) محمد الغزالي، علل وأدوية، ص 153.

([375]) محمد الغزالي، مستقبل الإسلام خارج أرضه، ص 63.

وشبيه بموقف "أنديرا غاندي"الهندية، موقف "جولدا مائير" اليهودية في صنع مصائب المسلمين وهزائمهم، يقول الغزالي: "... كما ضربت العرب امرأة يهودية –جولدا مائير- فسودت وجوهنا سنة 1967م، والعمالقة الذي لهم عضلات من "شراميط" كما يقول الرافعي، بدا عوارهم، وانكشف عارهم، وظهروا على حقيقتهم!!".
امرأة هندية تهزم المسلمين هناك.. وامرأة يهودية تهزم المسلمين هنا..والسبب واضح وهو أن الأمة الإسلامية فرطت في دينها وتراثها..."[376].
وثمة أمر آخر يومئ إليه الشيخ "الغزالي" حين يقول: "إن إنجلترا بلغت عصرها الذهبي أيام الملكة "فيكتوريا"، وهي الآن بقيادة ملكة ورئيسة وزراء، وتعد في قمة الازدهار الاقتصادي والاستقرار السياسي..."[377].
ويحسن بنا أن نذكر في هذا المقام قوله –رحمه الله-: "إن القصة ليست قصة أنوثة وذكورة. إنها قصة أخلاق ومواهب نفسية..."[378].
لعل أول ما يثب إلى الذهن من قراءة هذه النماذج أن الشيخ "الغزالي" معجب بها... بل نقول –بدقيق العبارة- أنه معجب بمظاهر القوة والنشاط والثبات، وحب العمل والمثابرة.. التي ميزت تلك الشخصيات عن غيرهن. مما جره إلى القول: "وقد ذكرني الجهاد الديني والاجتماعي الذي تقوم النساء غير المسلمات به في أرضنا أو وراء حدودنا. بالجهاد الكبير الذي قامت به نساء السلف الأول في نصرة الإسلام"[379].
فإذا كان يدعو –فيما سبق- إلى اقتفاء أثر نساء السلف الأول، وكذا اللاتي ذاع صيتهن في شتى الأعصار، والاهتداء بسيرهن عبر التاريخ، فإنه يطالب المرأة المسلمة بضرورة اتباع نهج المرأة الغربية في تحصيل العلوم والمعارف، والتفوق في شتى ميادين الحياة.
إنه يدعو إلى الاقتباس لا إلى الاندماج، والفرق بينهما واضح، والاقتباس المقصود –في نظر الشيخ- هو نقل جوانب القوة ووضعها في قوالب تتوافق مع الشرع الإسلامي، والآداب الشرقية.
وعلى هذا الأساس وجدنا "الغزالي" يستجمع كل الجوانب الإيجابية للمرأة الغربية "النموذج" في مجالات مختلفة، ويعرضها في صورة تغري المرأة المسلمة وتستجلبها إلى ترقية وضعها.
إننا نلمس –من دعوة "الغزالي" المرأة المسلمة إلى ضرورة تقصي الجوانب المضيئة في شخصية المرأة الغربية –توجهه الإصلاحي المحض، وذلك باستشفائه

([376]) قطب عبد الحميدقطب، خطب الشيخ محمد الغزالي في شؤون الدين والحياة، ج1، ص 80.

([377])و(3) محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص 51.

(4) المصدر نفسه، ص 45-46.

العلاج أنى كانت سبله، وأنى وجد أسبابه؛ فهو يبحث عن الخطى المثلى لتحسين حالة المرأة المسلمة بحيث لا تخرج عن حدود الحكمة الإلهية، ولا الفطرة الإنسانية في شيء.

إن الإختلالات الكامنة في أنماط التفكير للعقل الإسلامي، والشروخ الطارئة على آليات حراكه الاجتماعي والاقتصادي والتربوي، هي كلها نتيجة لرؤيته الجزئية، وتهميشه لعنصر المرأة بطرائق متعددة وأساليب متنوعة، وإضاعة الوقت في مناقشة قضايا ليست بالمصيرية؛ كمسألة عمل المرأة وخروجها من بيتها، وما قاربها من قضايا، وعدم الاعتراف بكيانية المرأة بناء على تأويلات ذاتية للنصوص، وفهم أناني للشرع الحنيف، ولعل "الغزالي" حين أفاض الحديث في قضية النهضة النسوية متفحصا آلاءها وآثامها، وفتح الموضوع على مقاربات متعددة الحال في العالم ككل، أراد أن يشير إلى عدم تضييع الوقت، والسعي بكل ما أوتيت هذه الأمة من قوة لتجاوز نكباتها، والنهوض من كبواتها، والخروج من الأعمال الارتجالية والعفوية والأنانية إلى رحابة الأعمال النظامية المتماسكة التي لا تهمش أي كائن بل تعتبره إمكانية هامة من إمكانيات متعددة لتحقيق النهضة، ولا شك أن في المرأة خير عميم لو أحسن تأطيره وتوجيهه.

الفصل الثالث

الغزالي وقضـايا المـرأة

المبحث الأول: قضية التربية والتعليم.

المبحث الثاني: قضية اللباس.

المبحث الثالث: قضية العمل.

تمهيد:

ثبت من خلال الفصل الثاني "الغزالي ومشكلة المرأة", أن ثمة اهتمام كثيف من طرف الشيخ " الغزالي" بقضية المرأة, وأن هذا الاهتمام يحمل في طياته بواعث الحرص على رسالة الإسلام ومصلحة الدعوة, وما زاده اهتماما أكثر بالقضية ما لاحظه من غلو بعض الفئات الإسلامية, وبعض الدعاة المسلمين في النظر إلى المرأة, الأمر الذي يقف حائلا دون بلوغ رسالة الإسلام, ويعطى سلاحا ناجعا لأعدائه لمحاربته والصد عنه.

وفي هذا الفصل "الغزالي وقضايا المرأة", نحاول الكشف عن هذا الاهتمام في بعض القضايا الأساسية, والتي أولاها الشيخ جانبا كبيرا من اهتمامه, وهي قضية التربية والتعليم وقضية اللباس ثم قضية العمل. سعيا من ورائها إلى إبراز موقف أو مواقف الشيخ منها, كقضايا لا تزال إلى اليوم بين نقيضين لا يريد أحدهما الالتقاء بالآخر, حيث لا مجال لتخيير أحدهما على الآخر.

والقضايا المطروحة على بساط هذا الفصل, كما تدعمها آراء الشيخ "الغزالي", تكشف كلها عن سعة النظرة الإسلامية للمرأة ومنزلتها وعظم دورها في الحياة الأسرية والاجتماعية.

المبحث الأول: قضية التربية والتعليم.

المطلب الأول: مفهوم تربية وتعليم المرأة من منظور الشيخ الغزالي.

لا شك أن تزكية النفس من وراء كل فلاح وصلاح وخلق قويم؛ إذ قال تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾[380]. وتزكية النفس في الآية الكريمة تشير إلى التربية الصحيحة وما تقتضيه من إصلاح وتصفية وتطهير للأفعال والأقوال والأخلاق بصفة عامة، فقد "أكد القرآن الكريم أن تزكية النفس الإنسانية هي الغاية من شتى التكاليف، والتزكية المنشودة هي التربية الصحيحة، هي تصفية المعدن الإنساني من شوائبه، وجعل الغرائز تحت رقابة العقل المؤمن فلا تطغى ولا تجمح..."[381]. وللشيخ "محمد الغزالي" أكثر من تعريف للتزكية بهذا المعنى، من ذلك ما يذكره في إحدى محاضراته: "التزكية: هي البحث عن كل عيب في النفس الإنسانية ووقف واجتثاث جذوره، ثم يجيء بعد هذا تكميل النفس الإنسانية بالكمالات الإنسانية"[382]. يتضح من هذا التعريف أن التزكية (التربية) هي العمل على تقصي العيوب والنقائص واستئصالها من النفس البشرية، وإحلال الفضائل التي لا بد منها للارتقاء إلى الكمال الإنساني محلها.

فإذا كانت هذه هي التربية الصحيحة فلا شك أنها ثمرة بذر وجهد ورعاية وعناء يستغرق العمر كله، منذ بدء التكليف إلى انتهاء الأجل، عمل يتطلب مجاهدة النفس والبدن، والتزام درب الصالحين، وحيال هذه القضية يرى "الغزالي" أنه "لا بد من عمل يقوم به المرء داخل نفسه حتى تصلح! عمل مرهق جاد يكسر الرغبة الجامحة، ويخضع الإنسان لوصايا الرحمن! ﴿**فَأَمَّا مَنْ طَغَى، وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى، وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**﴾[383]"[384].

([380]) سورة الشمس: الآيات 7...10.

([381]) محمد الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، ص 87.

([382]) محمد الغزالي، محاضرات الشيخ محمد الغزالي في إصلاح الفرد والمجتمع، جمع وإعداد: قطب عبد الحميد قطب، دار رحاب (الجزائر)، ط(1989)، ص 133.

([383]) سورة النازعات: الآيات 37...41.

([384]) محمد الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، ص 88.

وحينما يتحدث الشيخ "محمد الغزالي" عن التربية، فإنه يؤكد على الأسس القاعدية التي من دونها لن تقوم قائمة لهرم القيم الإنسانية. فالتربية عنده هي "تكميل النفس الإنسانية بقمع أهوائها وإطلاق خصائصها العليا"[385]. وحسبما نرى أن الشيخ هنا يجعل عملية التربية عملية شاقة نوعا ما، بل ومستعصية على كثيرين،

حينما ينسب لها صفة "القمع" المتضمن لمعنى المنع التام، والمفروض أن يقوم عمل التربية على تنظيم الأهواء وتهذيبها وضبطها وإحكامها في سياق أوامر الله تعالى ونواهيه. وعلى هذا نراه يؤكد في موطن آخر على أن
"التربية المنشودة ليست شيئا سهلا، إنها معاناة وجهد يقوم به المربِّي والمربَّى معا، وتشترك في تحقيق النتيجة عناصر أخرى في مقدمتها البيت والبيئة والسلطة الحاكمة، كما يشترك الماء والشعاع والحر أو البرد في إنضاج الثمار"[386].
وإذا كانت هذه هي عملية التربية فإنها تحتاج إلى مربين أكفاء قادرين على تحمل أعبائها والصبر على مشاقها، ومن المربين البيت وأساس البيت المرأة؛ فتربية المرأة تربية للمجتمع ونهضة له، وإهمالها إفساد للمجتمع ونكسة له. ومن هنا كانت التربية الصحيحة هي القوة الفعلية لنهضة الأمم دوما. وبهذا الصدد يقف الشيخ "الغزالي" إلى جانب إقرار أن "التربية الراشدة الناضجة هي الضمان الأول لكل نهضة، والبيت هو المدرسة الأولى لتلك التربية.. وعندما تكون المرأة صفر العقل والقلب، لا ثقافة في مدرسة.. ولا عبادة في مسجد.. فمن أين تتحقق التربية المنشودة؟"[387].
إن المرأة هي عنصر النجاح أو الفشل، هي عنصر النصر أو الهزيمة، والتربية أساس ذلك كله، فبقدر ما تتميز الحياة الإنسانية بالتربية الصحيحة الراشدة للمرأة بقدر ما تتحقق نهضتها، ولا فوز لأمة تعطل نفسها وتهملـه، من هنا كان لا بد من تعليم المرأة أصول دينها ودنياها حتى تدرك واجباتها نحو بيتها ومجتمعها، وتتهيأ لوظيفتها ورسالتها الأولى في الحياة.
ومن مبعث وعي الرجل بأن رفع مستوى الشعوب، والجهاد التربوي -كما فعل محمد عبده- هو أقرب مناهج الإصلاح صوابا ونفعا، فقد توجه نحو دراسة أحوال المجتمع المسلم، فكانت "قضية المرأة" على رأس منهاجه العملي في الإصلاح الاجتماعي[388]. وهو مسار طويل أشرنا إليه في الفصل الأول ضمن مبحث المرأة في الفكر الإسلامي الحديث) سبق إليه "عبد الحميد بن باديس" والإمام "محمد عبده"، وتلميذه "محمد رشيد رضا"، وجاء من بعدهم شيخنا "الغزالي" الذي تتلمذ في مدرسة الإمام "حسن البنا" فوسعه وعمق جوانبه.

([385]) قطب عبد الحميد قطب، خطب الشيخ محمد الغزالي في شؤون الدين والحياة، ج2، ص 247.

([386]) محمد الغزالي، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، ص 35.

([387]) محمد الغزالي، هموم داعية، ص 145-146.

([388]) انظر موقع:إخوان اون لاين، لطيفة حسين الكندري, بدر محمد ملك، تربية المرأة من منظور الشيخ محمد الغزالي، (2005)، ص 8.

وإن كان عمل التربية من منظور "الغزالي" يتجه نحو نشود الكمال الإنساني، والارتقاء بالنفس البشرية إلى الأفضل دوما، فإن لليبرالي التونسي "الطاهر الحداد" وجهة أخرى قد تعد قاصرة عن إدراك المفهوم الكلي للتربية –حسبما يرى الشيخ- حين يحصرها في التحسيس الكامل بواجبات الحياة ومزاياها، ونلمس ذلك من كلامه في تربية المرأة، يقول فيه: "إن عمل التربية يتجه لإيثار الشعور الكامل بواجبات الحياة والانتفاع

بمزاياها. وتمرين المواهب الإنسانية المادية والمعنوية في الفرد والمجتمع للقدرة بنفسها على استثمار الحياة. ولكن من أين لامرأة بصفتها فردا أو جنسا أن تدرك واجبات الحياة ومزاياها حتى تتهيأ للقدرة على استثمارها معنا ونحن لا نعدها لشيء من ذلك،... ليس لها من العلم ولا من الأخلاق إلا الأباطيل والأوهام في أوساطنا بصورة عقائد وعوائد مقدسة لا تُمس، فكانت بذلك شؤما في بيوتنا ونقضا في بناء حياتنا..."[389].

والفرق بين الرجلين واضح يدعمه الاتجاه الذي يسانده كل منهما.

والشيخ "محمد الغزالي" في حديثه عن المرأة يركز على قضية جوهرية حاسمة لا يمكن تجاوزها بأي حال من الأحوال، هي قضية التربية والتعليم؛ تربية المرأة لتكون فيما بعد مربية أجيال، وتعليمها لتهيئتها لهذه المهمة الجليلة والخطيرة في آن واحد.

فمنصب "ربة بيت" –في نظره- منصب كبير يحتاج إلى مؤهلات رفيعة، وإنشاء الحياة وفق ما يرتضيه ديننا يحتاج إلى حظوظ مضاعفة من العلم والخبرة. الأمر الذي نال قسطا وافرا من اهتمامه وتتبعه انطلاقا من السياق الثقافي العام، ليكشف لنا فيما بعد مدى سلبية وخطورة قلة الوعي التربوي –لا سيما في أوساط النساء- على واقع المجتمع المسلم. وما دام هذا هو شأن التربية فإن "الغزالي" –رحمه الله- ينبه إلى جلالة وخطر مكانة المرأة التربوية معتبرا أن "وظيفة المرأة في بناء الأسرة، وبالتالي في بناء الأمة تحتاج إلى جهد يتصل فيه عمل الليل والنهار"[390]. ونظرا لحس الرجل الشعري، يورد أبياتا للشاعر العراقي "معروف الرصافي"، تنم عن حكمة بالغة هي خلاصة تجربة الرجل القيمية الإسلامية. ولا شك أن الشعر في تلك الفترة الحرجة من التصادم الحضاري بين عقيدتين كان له من الأهمية بمكان في إصلاح المجتمع وتوعيته. يقول في هذه الأبيات:

ولم أر للخلائق من محل يهذبها كحضن الأمهات.

فحضن الأم مدرسة تسامت بتربية البنين أو البنات.

وأخلاق الوليد تقاس حسنا بأخلاق النساء الوالدات.

وليس ربيب عالية المزايا كمثل ربيب سافلة الصفات.

([389]) الطاهر الحداد، امرأتنا في الشريعة والمجتمع، ص 237-238.

([390])و(3) محمد الغزالي، من هنا نعلم، ص 173.

وليس النبت ينبت في جنان   كمثل النبت ينبت في الفلاة[391].

وهي أبيات تدل دلالة صريحة على طواعية النفس البشرية للتربية كيفما كانت؛ فيمكنها أن ترتقي كما يمكنها أن تسفل وفقا لنمط وطريقة التربية المسداة لها عن طريق الأم، المصدر المتحكم في تربية المجتمع والأمة. هنا يقف الشيخ وقفة تجلي واحدة من منطلقاته الفكرية التي ألزم نفسه بها في خصوص تربية المرأة؛ وهي وسطيته في المطالبة بخروج المرأة ومشاركتها في الأعمال التي تناسبها مع التأكيد على قداسة وظيفة ربة بيت. حيث تؤدي دورها بصورة متوازنة، دون تعطيل لطاقاتها في إطار الوظيفتين، حيث لا تعارض بين المسارين،

يقول مؤكدا: "إن المرأة المطروحة وراء سجن من الجهل والعمى، يموت معها نصف الأمة، ويمرض النصف الآخر، والمرأة المتروكة للغي والهوى تضطرب معها الأمة كلها، ويلعب بزمامهم شيطان... ولا تدري متى نخلص من هذه النقائض، ونهدى إلى الحق!" [392].

ومع الأسف فإننا نجد اليوم ما لا يسر، من سيطرة المتناقضات على الحياة الإسلامية، من ذلك العمل على تجهيل المرأة وحصر نشاطها وعدم تفعيل طاقاتها وشل مواهبها من جهة، وعلى النقيض من ذلك يكون إطلاق العنان لتحررها دون أدنى إحكام أو ضوابط يشكل عبأ ثقيلا على مستوى الأمة، يعود بالفوضى والاضطراب على حياتها.

ومن حق السائل أن يسأل: ما ذنب المرأة إذا كانت تنبت في المجتمع من غير إعداد وعناية؟ هل يمكنها أن تنمو وتنضج من تلقاء نفسها في وسط مليئ بالآفات والأمراض والعلل النفسية؟ يجيب الشيخ "الغزالي" قائلا: "إن التربية لا تسمح بنبت شيطاني، التربية هي زرع أشرف عليه المشرفون ونموه بعين الله، وسقوه حتى نضج, ومنعوا عنه الآفات حتى اكتمل، وأعطى حصاده كاملا موفورا..."[393].

لقد عالج الرجل هذه المسألة معالجة واضحة، وأثبت أن حبس المرأة بين جدران البيت، لا ثقافة ولا تعليم، لا يرجى منه خير عليها ولا على مجتمعها وأمتها. ولذلك فقد رأى أن أفشل ضروب التربية هو ما يعتمد على حبس المرأة داخل نطاق ضيق من العزلة العقلية والأدبية البحتة، وقد غالط كل من يعتقد بأن ذلك ضرب من ضروب التربية[394]. ويجزم الشيخ "محمد الغزالي" في موضع آخر بأن سوء التربية في شتى حقب التاريخ يرجع –في نظره- إلى "جهالة النساء وعجزهن إلا عن

([392]) محمد الغزالي، ليس من الإسلام، ص 244.

([393]) قطب عبد الحميد قطب، خطب الشيخ محمد الغزالي في شؤون الدين والحياة، ج2، ص 248.

([394]) محمد الغزالي، ليس من الإسلام، ص 249.

الوظائف الحيوانية!" [395] , ثم إلى "العرض المكذوب لتعاليم الإسلام، أو بتعبير أدق إلى عرض عادات وأحكام جاهلية على أنها كتاب الله وسنة رسوله"[396].

هذه النظرة النقدية ظلت المنطلق الفكري للشيخ في خصوص تربية المرأة، ففي حين ينتقد الواقع العربي الإسلامي كممارسات اجتماعية وموروثات دينية، يوسع نطاق نقده ليبين ضرر العرض المكذوب للدين وما ينجر عنه من جهالة النساء التي ورثت الأمة العجز والإفلاس.

فحبذا لو سلك المسلمون منهجا وسطا في تربية وتعليم المرأة، فلا هم عمدوا إلى تجهيلها وإقصائها من مناحي الحياة المختلفة فتصبح شؤما في بيوت المسلمين، ولا هم أطلقوا لها العنان فتصير نقمة على المجتمع. والحق الذي لا لجاج فيه، في اعتقاد "الغزالي"، أن التربية الصحيحة الناجعة هي التي تقتضي الإصلاح الشامل بتكثيف الجهود لإعداد المرأة وإنشاء هياكل خاصة لتأهيلها دون الإخلال بوظيفتها في البيت، من أجل تحقيق نهضة

شاملة للأمة الإسلامية. ومما يستحق النظر أن نهضة الأمة لا يمكن بحال تحققها إلى "يوم يكون العلم والتربية قرينين، ويوم تتقرر آداب الإسلام ومثله دون حرج أو دجل"[397]. ومن هنا فالتعليم المنفصل عن التربية من منظور الشيخ "الغزالي" جهد ضائع، بل تافه النتائج، إذ لا يتعدى التعليم "شحن الأذهان بألوان لا حصر لها من المعرفة"[398], أما التربية فهي "الإفادة من هذا التقدم لتزكية الشخصية وتهذيب سلوكها.."[399]، فالمطلوب من التربية أن تتوسل بهذا العلم إلى رفع المستوى النفسي والاجتماعي والديني, من ثم "حض الغزالي المربين على تأهيل المتعلمين بعد رسم الأهداف المطلوبة، وذلك لغرس وممارسة كل المفاهيم التي من شأنها تهذيب النفس سواء داخل الأسرة أو في جنبات المجتمع، إعداد البرامج الدينية المناسبة لترسيخ المفاهيم الاجتماعية العادلة تجعل عملية تمكين المرأة في دائرة التأثير والتقويم والتطوير"[400].

لقد أثبت الرجل حرصه على توثيق الصلة بين برامج التعليم وبرامج التربية كما سعى إلى إيجاد أسس لبرامج التدريب والتأهيل، تجعل الإفادة مرجوة من التعليم والتربية في إطار رسم الوجهة للسلوك المنشود، وتدريب الأفراد عليه.

([395])و(5) محمد الغزالي، سر تأخر العرب والمسلمين، ص 49.

(1) محمد الغزالي , قذائف الحق, ص318.

(2) و(3) المصدر نفسه, ص 316.

(4) انظر موقع :إخوان اون لاين, لطيفة حسين الكندري , بدر محمد ملك, تربية المرأة من منظور الشيخ محمد الغزالي, ص6.

(5) محمد الغزالي, معركة المصحف في العالم الإسلامي, ص265.

(6) محمد الغزالي, قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة, ص124.

المطلب الثاني: المرجعية الفكرية للشيخ محمد الغزالي في تربية وتعليم المرأة.

أولا: القرآن والسنة.

كان الشيخ "محمد الغزالي" يقف مع تعليم المرأة وتربيتها، وفقا لما ارتضاه لها دينها الحنيف وشريعتها السمحة المحققة لإنسانيتها وفعاليتها؛ فحرمانها من التعليم والتربية –من وجهة نظره- لا يمكن أن يكون بحال من الأحوال إرضاء لله ولرسوله، يؤكد الشيخ "الغزالي" ذلك قائلا: "إن حرمان المرأة من التعليم والتربية، والعبادة الشخصية والاجتماعية والسياسية لا يمكن أن يكون إرضاء لله ولرسوله"[401]. ولا شك أن الجهل وسوء التربية هما في الحقيقة وراء كل بلاء ونكبة للمجتمع الإسلامي و"فقدان التربية إيذان بأن الأمة لا مستقبل لها"[402].

يركز الشيخ "الغزالي" في حديثه عن أحوال المرأة المسلمة التي يتجاذبها تياران غريبان عن الإسلام، على تحليل الجانب المرضي المعقد من واقعنا، المخالف للدين في شتى مظاهره فيعرض لذلك بقوله: "لقد كتب عليها باسم الإسلام المفترى عليه ألا ترى أحدا وألا يراها أحد، ومنعت منعا باتا أن تدخل مسجدا أكثر من عشرة قرون! ومنعت منعا باتا أن تدخل مدرسة أو تتلقى علما في معهد خاص أو عام، كأن تجهيلها دين، حتى قيل: لولا الحضارة الحديثة ما فتحت جامعة أمام طالبة، بل ما فتحت مدرسة ابتدائية!! وأحزنني أن يسأل الإسلام عن هذا الهوان!!"[403] وكل هذا في نظر شيخنا من انعكاس التقصير في تربية المرأة وتعليمها. والإشكال- فيما نرى- يكمن في إغفال المسلمين لهذا العنصر الفعال في بناء المجتمع، المسؤول الأول في تعهد أخلاقه ومبادئه.

والمضحك المبكي أن يكون الإسلام هو صاحب السبق في تكريم المرأة بالعلم وإعلاء شأنها بمنحها الحق في طلبه، ثم يعزى الفضل، كل الفضل للحضارة الحديثة؛ هذه الحضارة التي كانت من وراء خططها الخبيثة مكائد ومزالق لطالما أصابت المسلمين في حصنهم الأول، كان لها –حسبما يرى "الغزالي"- هدفان قاتلان:

أحدهما: استبقاء المرأة جاهلة لا تعي شيئا عن نفسها ولا عن العالم من حولها، والآخر: تعليقها –إذا تعلمت- بمحقرات الأمور وأنواع الزينة وأشكال المدنية الحديثة، وإبعادها عن الجوهر واللباب. وسبيل وصولها إلى غايتها المنشودة، أنها اعتمدت على تعليم لا تربية معه[404].

وبديه أن كل مسلم يخاف على دينه وعلى أمته هذه الحضارة التي نسيت الله والوحي، ولما كان خوف "الغزالي" واضحا من سيطرة هذه المدنية واستحكامها في

([403]) محمد الغزالي، مائة سؤال عن الإسلام، ص 369.

([404]) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص 126.

برامج التربية والتعليم، فقد أبان منهج الإسلام الصحيح في معالجة وضع الأمة المسلمة المترامي الأطراف؛ حيث لا مجال لتصديق المقولات الصادرة من "أفواه المجانين"، المنادية بحبس المرأة وتشديد الحصار عليها فلا تخرج من البيت أبدا إلا لزوجها أو قبرها كما يقولون[405]، والملمح الأهم في هذا الشأن أن شيخنا -رحمه الله- يميل إلى ترجيح كافة التعاليم الإسلامية الواضحة في الكتاب والسنة. الأمر الذي يحدده منهجه في التعامل مع المصدرين، واستقاء الأحكام الشرعية الواردة فيها. وفي نظرنا أيضا أن النص القرآني والنبوي معا أتاحا للمرأة التبلور والتألق والتفتح في مختلف المجالات والأنشطة الإنسانية؛ لتنمو وتنضج فكريا واجتماعيا. وما ينجم عن ذلك من ترقية المجتمع وإنهاضه.

وفضلا عن ذلك، فالشيخ "الغزالي" إذ يدعو إلى إنصاف المرأة في ميدان التربية والتعليم يضع عشرة تعاليم جديدة؛ غرضه من هذه التعاليم ترميم الصدوع الكامنة في كيان العالم الإسلامي وإصلاح طرائق فهمه وآليات عمله. وتجدر الإشارة هنا إلى أولى هذه التعاليم؛ فقد كان على رأسها أن: "النساء شقائق الرجال، وطلب العلم فريضة على الجنسين كليهما، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..."[406] وهو في رأينا ما يعكس فهما إسلاميا مستنبطا من القرآن والسنة.

وبذلك يكون الشيخ "الغزالي" قد نحى منحى فذا في تأكيد الحقائق وصقلها وردها إلى أصولها ومنابعها، فكان كل سعيه وراء تنفيذ تعليمات مربي البشرية وسيد الرسل والأنبياء محمد -صلى الله عليه وسلم- في أن النساء شقائق الرجال، وتنفيذ الحقيقة القرآنية الرامية إلى المساواة العامة في الإنسانية بين الذكور والإناث؛ وحسبما يرى أن "الذي يتدبر القرآن الكريم يحس المساواة العامة الإنسانية بين الذكور والإناث، وأنه إذا أعطي الرجل حقا أكثر فلقاء واجب أثقل، لا لتفضيل طائش"[407].

المرأة والمسجد:

ومما يندى له الجبين أن يمتد جهل المسلمين إلى منع المرأة من ارتياد المساجد وحضور الجماعات، وهم يضربون بتصرفهم هذا سنة رسولهم الكريم عرض الحائط، فقد ثبت عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه لم يمنع نساء المسلمين من الذهاب إلى المساجد وحضور الجماعات، بل على العكس من ذلك فقد أمر الرجال بدعوة النساء للمساجد لحضور الصلوات الخمس دون استثناء. وسن لذلك نظاما خاصا ووضع آدابا جمة؛ فجعل أحد أبواب المسجد خاصا بالنساء، وخصهن بالصفوف المؤخرة من المسجد فكانت "خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير

([405]) المصدر نفسه، ص 32.

([406]) محمد الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، ص 35.

([407]) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص 32.

صفوف النساء آخرها وشرها أولها"[408]. كما رغّب -صلى الله عليه وسلم- في حضور النساء مصلى العيد وأزال لهن كل عائق يمكن أن يعترض حضورهن صلاة العيد وسماع الخطبة فقال: "ليخرج العواتق وذوات الخدور وليعتزل الحيض المصلى ويشهدن الخير ودعوة المؤمنين"[409].

وكان النساء على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصلين الجمعة ويشهدن خطبتها، فعن أم هشام بنت حارث قالت: "ما أخذت **[ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ]** -أي ما حفظت السورة- إلا من لسان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرأ بها على المنبر في كل جمعة، وذلك لكثرة ترددها على المسجد في صلاة الجمعة"[410].

لقد تقصى الشيخ "الغزالي" كل الآثار الواردة في علاقة المرأة بالمسجد وارتباطها به، حيث حفلت مؤلفاته -رحمه الله- بالعديد من الأحاديث والأخبار التي يحتج بها مرة، ويدحض بها شبهات أثقلت كاهل الإسلام مرة أخرى، وله في الأمر رأي يمكن القول عنه بأنه وليد صفة الوسطية والاعتدال والواقعية في منظوره الفكري والاجتهادي مفاده أن حضور الجماعات مطلوب من المرأة بعد فراغها من وظائف بيتها، فإذا قامت بما عليها فلا يجوز لزوجها أن يمنعها من الذهاب إلى المسجد[411]. وقد تشكلت رؤيته هذه انطلاقا مما جاء في الحديث: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»[412].

([408]) رواه مسلم, كتاب الصلاة, باب" تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها, والازدحام على الصف الأول والمسابقة إليها, وتقديم أولي الفضل وتقريبهم من الإمام", رقم 984, ج3, ص380.

ورواه النسائي, كتاب المساجد, باب" ذكر خير صفوف النساء وشر صفوف الرجال", رقم 896, ج1, ص433_434.

([409]) رواه البخاري, كتاب الحيض, باب" شهود الحائض العيدين ودعوة المسلمين ويعتزلن المصلى", ج1, ص83_ 84.

ورواه مسلم, كتاب صلاة العيدين, باب" ذكر إباحة خروج النساء في العيدين إلى المصلى وشهود الخطبة مفارقات للرجال", رقم2051, ج6, ص418.

*حديث صحيح.

([410]) رواه أبو داود, كتاب الصلاة, باب" الرجل يخطب على قوس ", رقم1100و1102, مج1, ص302_303.

*حديث صحيح.

([411]) محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص 53.

([412]) رواه مسلم, كتاب الصلاة, باب"خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة, وأنها لا تخرج مطيبة", رقم989, ج3, ص382.

وفي نظرنا أن الواجبات الملقاة على المرأة المسلمة، ونخص بذلك الزوجة والأم والمربية في آن واحد، تكاد تستغرق كل ساعات يومها، فهي تحول دون التحاقها بالمساجد وحضورها الجماعات، أما الجمع فإن حضورها بالنسبة لهذه المرأة أمر مقدور عليه.

والحقيقة التي لا غبار عليها أن الله تعالى سوى بين المرأة والرجل في طلب العلم والعبادة، فلا فرق بينهما، وكلا الجنسين صنو الآخر ونده وتوأمه في التكاليف الشرعية والعبادية، وإعفاء النساء من بعض التكاليف الشرعية -كما يحدث في أرجاء كثيرة من البلاد الإسلامية- لا يمكن بحال أن يكون إرضاء لله وإنفاذا لتعاليم كتابه، وأوامر رسوله وهو القائل: "إنما النساء شقائق الرجال"(413)، تأكيد منه -صلى الله عليه وسلم- للحقيقة القرآنية في تقرير المساواة، يقول تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾ (414). ويعلق الغزالي على هذه الآية قائلا: "إن أي مطالع للقرآن الكريم والسنن الصحاح يرى المرأة جزءا حيا من مجتمع حي فهي تتعلم وتتعبد وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتجاهد -إذا شاءت- في البر والبحر، وتؤخذ منها البيعة على معاقد الإيمان والأخلاق، وتعارض الحكم وتؤيده...الخ"(415).وبالفعل فقد عزا الإسلام للمرأة أدوارا لا تختلف من حيث الجوهر عنها في الرجل كما يتضح من الأحاديث النبوية والآيات القرآنية التي سبق التدليل بها.

ثانيا: التطبيقات في الحياة الإسلامية. (التاريخ والواقع)

لقد كانت المرأة أيام دولة النبوة جد محظوظة؛ ذلك أنها تلقت العلم من ينابيعه الصافية وأصوله الصحيحة في مدرسة النبوة، فكان ارتباطها بالعلم والعبادة ارتباطا

ورواه ابن ماجه, المقدمة , باب "تعظيم حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم-, والتغليظ على من عارضه", رقم16, مج1, ص22.

ورواه الإمام مالك في الموطأ, عن عبد الله ابن عمر أنه قال :قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-:"لا تمنعوا إماء الله مساجد الله", رقم1737, ج2, ص994.

*حديث صحيح.

(413) رواه أبو داود, كتاب الطهارة, باب " في الرجل يجد البلة في منامه", رقم236, مج1, ص71-72.

ورواه الترميذي, كتاب الطهارة, باب" فيمن يستيقظ فيرى بللا ولا يذكر احتلاما", رقم113, ج1, ص189-190.

*حديث صحيح.

(414) سورة الأحزاب: الآية 35.

(415) محمد الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، ص 49.

وثيقا[416]. عن ابن جريج عن عطاء عن جابر بن عبد الله قال:«قام النبي –صلى الله عليه وسلم- يوم الفطر فصلى فبدأ بالصلاة ثم خطب فلما فرغ نزل فأتى النساء فذكرهن وهو يتوكأ على يد بلال، وبلال باسط ثوبه يلقي فيه النساء الصدقة (وفي رواية عن ابن عباس فظن أنه لم يُسمع النساء فوعظهن وأمرهن بالصدقة)... وقال ابن جريج لعطاء: أترى حقا على الإمام ذلك يذكرهن؟ قال: إنه لحق عليهم وما لهم لا يفعلون!»[417].

ولقد علق "عبد الحليم أبو شقة" على الحديث قائلا: "إن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- حين رأى أنه لم يسمع النساء –حيث الجمع كبير وصفوف النساء خلف صفوف الرجال- أتاهن فوعظهن أداء لحقهن في التربية والتعليم. ورحم الله عطاء حيث رأى وجوب تذكير النساء وتعليمهن كما استنكر تخلف أئمة عصره عن أداء هذا الواجب"[418].

فالتكريم والتشريف اللذين أعطاهما الرسول –صلى الله عليه وسلم- للمرأة، هو في حقيقة الأمر تثبيتا لدعائم الأمة المعنوية والقيمية، وتعزيزا لمكانتها دون سائر الأمم.

وعن عائشة –رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: «من يلي من هذه البنات شيئا فأحسن إليهن كن له سترا من النار»[419]، ورسول الله –عليه الصلاة والسلام- إنما يقصد من الإحسان إلى البنات تعليمهن وتأديبهن، وهما أمران لا يضاهيهما أمر ثالث في الأهمية والمكانة. فقد أدرك رسولنا محمد –صلى الله عليه وسلم- أهمية التربية والتأسيس والتأهيل لهذا الجنس وخطورة دوره في مؤسسة البناء الاجتماعي.

فتمخض عن ذلك إقرانه للمحسن إليهن بالستر من النار.

لقد ظلت صلة المرأة بالعلم والعبادة وثيقة أيام دولة الخلافة الراشدة، والشيخ "الغزالي" –رحمه الله- إذ يعتز بتفوق المرأة العلمي والأدبي في عهد السلف الصالحين يقول في أحد مؤلفاته: "لقد كانت على عهد السلف الصالحين إنسانا يقوم بواجباته الدينية والدنيوية قياما حسنا. ما شانها الجهل بالإسلام، ولا الغفلة عن

([416]) عبد الحليم أبو شقة، تحرير المرأة في عصر الرسالة، ج1، ص 117-118.

([417]) رواه البخاري, كتاب العيدين, باب" موعظة الإمام النسائي يوم العيد", ج2, ص9.

ورواه مسلم, كتاب الصلاة, باب"صلاة العيدين", رقم2044, مج3, ج6, ص414.

*حديث صحيح.

([418]) عبد الحليم أبو شقة، تحرير المرأة في عصر الرسالة، ج1، ص 118.

([419]) رواه البخاري ,كتاب الزكاة, باب" إتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم الآية وإلى قوله ومن كل الثمرات", ج2, ص114ـــ115.

ورواه مسلم, كتاب البر والصلة والآداب, باب"فضل الإحسان إلى البنات", رقم6636, مج8, ج16, ص395.

*حديث صحيح.

قضاياه، ولا الإسهام في نصرته... ولا عرفت بالتقصير في صلاة أو صيام أو زكاة... ولا عجزت عن خدمة نفسها، وولدها، ورجلها، إن كانت من أهل الريف، أو أعراب البادية، أو ساكنات المدن..!"[420].

تمتعت المرأة أيام السلف الصالحين والخلافة الراشدة بشخصية قوية؛ نتيجة للمكانة المرموقة التي منحت لها، فقد فتحت لها أبواب العلم والعبادة، كما فتح لها مجال الحوار والاستفسار في أمور دينها ودنياها، فكان لذلك أن تميزت المرأة بجرأة علمية لا نظير لها، وأدب في الحوار لا يضاهيه أدب؛ ونذكر المرأة التي راجعت عمر –رضي الله عنه- في موضوع المهور: "فرد عليها بقوله الشهير: "أصابت امرأة وأخطأ عمر". ففي تفسير ابن كثير: "ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله –صلى الله عليه وسلم-، ثم قال: أيها الناس ما إكثاركم في صداق المرأة، وقد كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم-وأصحابه والصدقات فيما بينهم أربعمائة درهم فما دون ذلك. ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تستبقوهم إليها، فلا أعرفن ما زاد رجل في صداق المرأة على أربعمائة درهم".

قال ثم نزل فاعترضته امرأة من قريش فقالت: "يا أمير المؤمنين نبهت الناس ألا يزيدوا في مهر النساء على أربعمائة درهم. قال: نعم. قالت: أما سمعت ما أنزل الله في القرآن؟ قال: وأيُّ ذلك؟ قالت: أما سمعت الله يقول: ﴿**...وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا...**﴾[421]. قال: اللهم اغفر..كل الناس أفقه من عمر. ثم رجع فركب المنبر وقال: أيها الناس قد نهيتكم أن تزيد النساء من صدقاتهن على أربعمائة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب. قال أبويعلى: وأظنه قال: فمن طابت نفسه فليفعل"[422].

والذي يعنينا في هذه الحادثة أن النساء كن يحضرن مجالس العلم، ولهن الحق الكامل كما للرجال في إبداء الرأي، وتصويب الأمور إذا اقتضى الحال ذلك.

ويشيد الشيخ "الغزالي" –رحمه الله-بنساء حملن راية العلم، فبرعن في علوم لا يتقنها إلا رجال أوتوا ذهنا ناقدا وقلبا حفيظا مستوعبا، وهو بذلك ينبري لكشفهم في أحد كتبه، في سياق حديثه عن علوم السنة، فيلفت الأذهان إلى أن "علوم السنة من أهم علوم الشريعة، والصدارة فيها تحتاج إلى ذهن ناقد مستوعب حفيظ، وقد كنت أظن النساء آخر من يشتغل بهذه العلوم، بل أن يبرزن فيها ويبلغن مرتبة الإمامة، حتى قرأت رسالة "السنة النبوية في القرن السادس الهجري" للدكتور محمد إبراهيم الديك، فوجدت عالمات بالسنة لا يشق لهن

غبار، ولسن نزرا يسيرا، بل عشرات من العالمات الثقات..! والقرن السادس ليس من قرون الازدهار العلمي في تاريخنا، بل هو من أواخر القرن العباسي الثاني،

([420]) محمد الغزالي، الإسلام والطاقات المعطلة، ص 100.

([421]) سورة النساء: الآية 20.

([422]) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم, دار الأندلس (بيروت), ط2(1400هـ-1980م), ج2، ص230.

عندما مالت شمس الدولة للغروب، ثم سقطت تحت براثن التتار في منتصف القرن السابع!..."[423].

وقد سجل الرجل عددا من هؤلاء النسوة الأئمة –كما أطلق عليهن- فأولاهن السيدة المسندة "شهدة بنت الإبري الكاتبة" وكانت ذات دين وورع وعبادة، وكذا "شمس الضحى" هذه السيدة التي كانت معروفة بالزهد والتقوى والإقبال على الله، وكانت تلقي الدروس في مساجد بغداد. ومثلها "ضوء الصباح" بنت المبارك البغدادي، المدعوة بخاصة العلماء، وقد اشتهرت هذه السيدة بكثرة تلاوتها للقرآن الكريم وكانت تعقد مجلس الوعظ في رباطها... ومن المحدثات أيضا: "بلقيس بنت سليمان بن أحمد بن الوزير نظام الملك" كان لهذه المحدثة شيوخ من الرجال والنساء، ...وهناك راويات موثقات دارسات أمثال: "أم الحياء حفصة"، و"أم حبيبة الأصبهانية عائشة بنت الحافظ معمر بن الفاخر القرشية العمبشمية"... وهناك من المحدثات المتقنات لعلوم السنة "عاتكة بنت أبي العلاء"... وأخيرا "فاطمة بنت سعد الخير الأنصاري الأندلسي" التي ولدت بالصين سنة 522هـ وتوفيت بالقاهرة سنة 600هـ[424].

يتأسى "الغزالي" في ذكره للحقيقة المرة قائلا: "والمأساة أن المرأة التي ذرعت الطريق من الصين إلى القاهرة والتي جاء أبوها من بلنسية في الأندلس، إلى الشرق الإسلامي، ليخدم العلم في أرجائه الرحبة، جاء بعدها في هذه السنين العجاف الهابطة من يقول: تخرج المرأة من بيتها لأمرين: إلى الزوج، أو إلى القبر!!" [425].

وفي نظرنا أن مرد هذا التراجع يكمن في أمرين: أولها يظهر في إغفال المسلمين للجانب الإنساني من حياة المرأة، وتمردهم على حقوقها من تربية وتثقيف وتعليم وتنمية للمواهب والقدرات، واعتبار المرأة مجرد آلة معدة لأداء أدوار محدودة.

وثانيهما، شساعة الفجوة بينهم وبين تعاليم دينهم الصحيح، وتوهين صلتهم بماضي أمتهم، وتاريخ سلفهم الصالح الحافل بالأمجاد والبطولات، وغناهم عنه.

إن الرجل بدوره ينسب هذا التراجع إلى القطيعة المحدثة مع حقائق الدين وتجلياته في واقع المسلمين. وإذا كانت حال المرأة المسلمة أيام دولة الخلافة الراشدة والسلف الصالحين بالتي يحسد عليها، فإن الإسلام بحاجة إلى تفسير سلفي (لا إلى تفسير عصري) يدحض به كل منكر لعلو شأن المرأة وارتباطها الوثيق بالعلم والعبادة في تلك الأيام، على ألا يقوم بهذا التفسير مغفل جرئ...[426].

ولا سبيل لصلاح شأنها –في اعتقاد الشيخ- إلا بالعودة إلى تعاليم الإسلام نفسه، كما طبقت أيام السلف الصالحين[427].

المطلب الثالث: تعليم المرأة بين جبهتي (الجمود/التقليد).

([423]) محمد الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، ص 158.

([424]) المصدر نفسه، ص 159-163.

([425]) المصدر نفسه، ص 163.

([426]) المصدر نفسه، ص 49.

([427]) محمد الغزالي، الإسلام والطاقات المعطلة، ص 108.

- موقفان ودافع واحد -

كان العرب في جاهليتهم يكرهون الأنثى، فيؤخرونها ويضيقون لمولدها! بل كانت بعض قبائل العرب تقتل المولود إن كان من الإناث. وإذا رجعنا إلى وصف "الغزالي" لوضع المرأة أيام الجاهلية العربية نجد تلك الحقيقة مبثوثة في صفحات كتبه. إذ يقول: "كان العرب لا يرون المرأة شيئا ولا يقيمون لها وزنا، بل لعلهم حسبوها شرا لا بد منه! وقد لجأ بعضهم إلى قتلها وهي طفلة حسما للمتاعب والمخازي!!" [428]، وقد ظلت هذه المكانة الفعلية للمرأة على حالها إذ لم تكن شيئا يذكر، إلى أن جاء الإسلام فانتشلها من ظلم العادات الجاهلية الهمجية وحررها من نير التقاليد المزدرية لها, فمنحها بذلك المكانة اللائقة بها، وأعطاها حقوقها المادية والمعنوية: "فقد حرم الإسلام وأد البنات، وأعطى المرأة حق الإرث ونظم تعدد الزوجات، وحرم المتعة، وحد من حرية الرجل في الطلاق، وأعطى المرأة إمكانية طلب التطليق عند الضرورة، وأعطاها حق اختيار الزوج أو رفض طلب من يتقدم إلى وليها يطلب يدها إن كانت لا ترغب فيه زوجا، وأعطاها حق اشتراط الكفاءة في الرجل الذي يتقدم لخطبتها، وساوى بينها وبين الرجل في الحقوق والواجبات..." [429].

والجدير بالذكر هنا أن مجمل هذه الحقوق وغيرها حقوق إلهية منحها الله تعالى للمرأة، فلا يجوز لليد البشرية أن تعبث بها فتنتقص منها أو تلغيها. ومن ثم يكون الإسلام المنهج المتكامل الذي يحقق القطيعة مع التصورات الضيقة للوجود والإنسان، والتي زجّت به في متاهة العصبيات والصراعات الدموية التي عكرت صفو حياة الإنسانية ردحا من الزمن. وبذلك يعطي دروسا قيمة، كان لها الأثر البالغ في تحقيق تغييرات جذرية في تاريخ البشرية، أين تعود الريادة للتقوى، لا لشيء آخر. قال تعالى: **﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾** [430].

ومع إقرار الإسلام لقاعدة المساواة بين الرجال والنساء في الحقوق والواجبات؛ فإن جهلة المتدينين -كما يسميهم "الغزالي"- تستكثر على المرأة المسلمة حقوقا وحريات منحها إياها خالقها وكرمها بها، من تكاليف العقائد والعبادات والأخلاق... "وأغلبهم لو أمكنته الفرص كرد المرأة إلى البيت وغلق عليها الأبواب،وحرمها

---

(428) محمد الغزالي، الطريق من هنا، ص 149.

(429) مولاي ملياني بغدادي, حقوق المرأة في الشريعة الإسلامية, قصر الكتاب (الجزائر), ط(1997), ص87-88.

(430) سورة الحجرات:الآية13.

مختلف الحقوق المادية والأدبية، وجعلها القدم العرجاء للإنسانية السائرة أو الجناح المكسور للأمم الصاعدة...!"[431].

لقد وقف الشيخ – رحمه الله- موقف اللائم والمعاتب معا فهو يلوم مواقف بعض المتدينين القاصرين الذين لطالما أساءوا للإسلام وظلموه ظلما شديدا، بتفكيرهم المعوج وعقلياتهم المريضة، فكان أن "أساء به الظن من لم يحط به خيرا ومن لم يحسن له فقها"[432]. والحق الذي لا لجاج فيه، في اعتقاد "الغزالي"، أن الذين أساءوا فهم الإسلام في جانب قضية المرأة خاصة، إنما انجر عنه سوء عرضه، مما أتاح لأعداء الدين والمتربصين به فرص النقد وتناول أحكام الإسلام بالمحو والإثبات، أو الأخذ والرد، فيقبل منها ما يعجبه ويوائم مزاجه، ويرد منها ما يقرفه ويعكر مزاجه اللطيف. وهو في يقيننا الأمر الذي انتهى عليه حال معظم أحكام الدين المرتبطة بالمرأة، فقد أضحت محل أخذ ورد تبعا لأهواء الناس وأمزجتهم، سواء منها ما تعلق بأحوالها الشخصية أو العبادية أو العادية...

أثبت شيخنا "الغزالي" حرصا قل نظيره في العصر الحديث على الدفاع عن حق المرأة الطبيعي الكامل في التعليم والعبادة والتثقيف وتنوير العقول، وظل مستنكرا لوضعها في شتى الأقطار العربية والإسلامية، إذ يشتد ألمه إذا ما نسب تجهيل المرأة إلى الإسلام!! والإسلام بريء منه. لقد كان –رحمه الله- يتابع عن كثب وضع المرأة في شتى البيئات، منطلقا في ذلك من بيئته المصرية، ليجدها إنسانة محكوما عليها بالجهل أوالقصور، مفروضا عليها التفريط في حقوق الله وتعاليم دينه"[433].

والحقيقة تقدير "الغزالي" أن احتيال المسلمين على المرأة ومنعها من طلب العلم الذي طال أمده، إنما كان في سبيل إنفاذ الحديث المكذوب الذي يوصي بتجهيلها وإلزامها الأمية وإسكانها السراديب لا الغرف! [434]، وفي يقيننا أنه لا جدال في أن للغيرة المفرطة والعلل النفسية اليد الطولى في إنفاذ حديث يخالف ثوابت الدين ومقرراته المعلومة. ويمكننا أن نلمح رؤية الشيخ النقدية التصحيحية لهذا اللبس الذي اكتنف الأحاديث والمرويات، في صريح عبارته التي يقول فيها: "وقد أعلنا نحن أسانا من أن هذا الحديث الموضوع يحكم المجتمع الإسلامي من قرون! أما السنن المتواترة والصحيحة والحسنة فقد تم تجميدها بطريقة غريبة، وبذلك أخذ المسلمون يتدحرجون إلى العالم الثالث ويتزاحمون في ذيل القافلة البشرية لفقدان التربية الصحيحة، ولا تربية مع جهالة المرأة وعزلها عن العلم والعبادة، ودعوات الخير، وشؤون المسلمين!!" [435]. إن تعليق "الغزالي" على الحديث الموضوع "لا تنزلوهن الغرف –يعني لا يسكن في الأعالي- ولا تعلموهن الكتابة، وعلموهن الغزل

([431]) محمد الغزالي، حصاد الغرور، ص 194.

([432]) المصدر نفسه، ص 195.

([433]) محمد الغزالي، قذائف الحق، ص 314.

([434]) محمد الغزالي، مستقبل الإسلام خارج أرضه ، ص 67.

([435]) محمد الغزالي، الحق المر، ج1، ص 62.

وسورة النور" يعتمد على إثارة الوعي الكامن في أفئدة المؤمنين بواجبهم نحو أحاديث رسول الله –صلى الله عليه وسلم- الموصية بتعليم المرأة وحسن تربيتها لأنها مصدر التربية الصحيحة، وهو بذلك يدعو إلى وجوب التفريق بين صحيح الأحاديث وسقيمها. من هنا نجد في كتبه حملة قوية على كل من أساء استخدام الأحاديث, وأخذ في ذلك بالأحاديث التي تخدم توجهه الخاص من ذلك الدعوة إلى تجهيل المرأة وعزلها عن الدين والدنيا.

وفي ثنايا حديث "الغزالي"عن التقصير الذي شان مناهج المسلمين التربوية، يتحدث عن آفة أخرى أفسدت تربية المرأة، وأعانت العدو على فرض نموذجه عليها؛ فحينما فتح لها الغرب أبواب المدارس لم تتعلم أصول دينها وتتعرف حقائق تراثها الإسلامي والخصال الحميدة للمرأة القدوة وأخلاقها النبيلة. بل أقبلت على الحضارة المادية المعاصرة تنهل منها ما يضرها ولا ينفعها. ولعله فيما يبدو لنا كان نتيجة مباشرة لفقدان الوعي بذاتها، وبأصول دينها ودنياها. فانطلقت من غير تربية أو تحصين تبحث عما تملأ به فراغها، فلم تجد إلا تعليما مفصولا عن التربية التي هي الأساس الرصين للمرأة.

من هنا كان الشيخ "الغزالي" –رحمه الله- يرى أن المرأة قد ظلمت مرتين: الأولى، حينما فرضت عليها الأمية الطامسة باسم الإسلام، فحرمت من حقها في التعليم والعبادة، والنتيجة أنها ظلت جاهلة لا تعي ما لها وما عليها.

أما الثانية، فحينما فتح لها الأجانب أبواب العلم لا لتعليمها وتنوير عقلها بل لإبعادها عن دينها وملتها، الأمر الذي يكشف لنا "الغزالي" كنهه قائلا: "ولقد كانت قبل الاستعمار الحديث أمية لا تقرأ ولا تكتب، وفرضت عليها هذه الأمية باسم الإسلام المفترى عليه! فلما اجتاحت بلادنا الحضارة المادية المعاصرة، فتحت أبواب المدارس للمرأة، فلم تتعلم فيها حقائق التراث الغالي ومناقب المرأة في عصرها الأول.. كلا لقد غزا عقلها الفكر الأوروبي، ونهجه الشارد، فإذا نحن أمام تقاليد لا تسر ومناهج لا تنفع بل قد تضر!" [436].

ثم يأتي شيخنا "الغزالي" على تقدير السبب في ذلك، وحسبما يرى فإنه لا يتعدى عن كونه قصورا علميا بلغ مرتبة الجهل المركب عند بعض المسلمين المتحدثين عن موقف الإسلام من المرأة، وضيق نظر بعض الذين يزعمون تمسكهم بنصوص الوحي، فيقعون في أخطاء جسيمة حين ينادون بحبس المرأة، فلا هي ترى أحدا ولا يراها أحد، ولا تخرج من بيتها إلا للزوج أو للقبر! [437].

ويعجب الشيخ "الغزالي" من ضعف المقاومة وكذا غباء المدافعين، وهو بذلك يعزوهما لأسباب الهوان الذي أصاب الأمة الإسلامية. ويعزز وجهة النظر هذه موقفه من الأزهريين إزاء قضية إدراج المرأة ضمن صفوف التعليم العالي، وعن خزايا هؤلاء يحكي قائلا: "ويحزنني أن أقول إن الدكتور (طه حسين) انتصر في

([436])و(2) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص 55.

معارك كثيرة لأن خصومه لم يكونوا على شيء! فمن نيف وأربعين أمر الدكتور –وكان عميدا لكلية الآداب

بالقاهرة- بقبول طالبات في الكلية لأول مرة في تاريخ التعليم الجامعي. وانفجرت مراجل الغضب عند الأزهريين، وزلزلت الأرض زلزالها فقد كان إلحاق النساء بالتعليم العالي شيئا إدّا. والواقع أن جماهير المتدينين كانت تستنكر تعليم المرأة في أي مرحلة، وتعد تجهيلها من الإيمان، ولو أنها غضبت لأن التعليم مختلط، وينبغي تخصيص كليات للبنات لكانت على حق."[438].

وأود أن أقول هنا: أن الشيخ "الغزالي" محق في الأمر إلى حد بعيد؛ فالإسلام الذي مجد المرأة، وعزز دورها، وكرامتها، لم يكن لينتقص أبدا من حقها في طلب العلم في مقابل الرجل. وقد اعتبر رسولنا محمد –صلى الله عليه وسلم- طلب العلم أمر مفروض على أن يكون إلى أبعد الحدود. فالدعوة للعلم ليست موقوفة على حد معين ولا جنس معين. وحقيقة الأمر أن حجب العلم عن المرأة –كما يطالب أصحاب العقليات القاصرة- يساوي هدر آدميتها، وضياع حقوقها.

وعلى ضوء التصور السابق للشيخ "الغزالي"، نجده يقرر حقيقة أن "الموقف السلبي لا يهزم العمل الخاطئ، إنما يهزمه بديل منصف نفاع للناس، حام لحقوقهم ومصالحهم."[439]،وهو إذ يتوجس مما هو كائن، يتعجب من التناقض الواقع في تعليم المرأة بين جبهتي الجمود والتقليد. حيث لا وجود لفلسفة التوازن التي قام عليها الدين الحنيف، واتبعها شيخنا في دعوته؛ ولهذا السبب كان موقف الإيمان (موقف المؤمنين) أن ذلك لا يجوز، وموقف الطرف الآخر (الملاحدة) الموقف المناصر لتعليم المرأة إلى أعلى المستويات! ولنا أن نتساءل كما يتساءل "الغزالي": "أي إنصاف للإسلام في هذه المعركة السخيفة؟ الدين مع الجهل، والإلحاد مع العلم؟ إلى متى نسمع لأناس يكذبون على الأرض والسماء باسم الدين؟"[440].

ومن جراء كل ذلك راح "الغزالي" يتذمر مما آلت إليه أحوال المرأة، قائلا بأسلوب المواجهة الصريحة أن: "الجاهلية التي دفعت المرأة الإسلامية بهذا الفكر القاصر، جعلتها دون المرأة في الجاهلية الأولى"[441].

إن هذا الاهتمام الذي حظيت به قضية تربية المرأة وتعليمها من طرف شيخنا "محمد الغزالي" يقابله اهتمام جل المفكرين العرب والمسلمين بالقضية ذاتها، ومن ثمة فإن إطلالة سريعة على آرائهم في القضية تكشف لنا أن الشيخ لم يكن بدعا فيما ذهب إليه بخصوص القضية، إذ سبقه كثيرون في الدعوة إلى تربية المرأة وتعليمها، "فقاسم أمين" المفكر التحرري كان له السبق في الدعوة إلى تعليم البنات وتربية

---

(1) محمد الغزالي, علل وأدوية , ص68ـ69.

([439]) المصدر نفسه، ص 69.

([440]) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص 16.

([441]) محمد الغزالي، حصاد الغرور، ص 194.

المرأة وكان ذلك سنة 1899م[442]، ومن بعده الليبرالي التونسي "الطاهر الحداد" الذي أكد سنة 1829م على ضرورة تعلم المرأة إلى

أقصى حد يمكنها، من ذلك وجوب تعليمها فن التربية على وجه الخصوص، إذ هي أول من يقوم بها للأجيال المقبلة[443]...

وفي مدرسة الإصلاح أسماء لامعة ممن نادت بتعليم المرأة، من أمثال الشيخ "محمد عبده" و"رشيد رضا" وكذا "عبد الحميد بن باديس"...، الذين تواطأت آراؤهم على وجوب تعليم المرأة المسلمة وتنوير عقلها، على أن يظل هذا التعليم في دائرة المثل الدينية والقومية، والأخلاق. بل إن بعضهم كـ "رشيد رضا" أضاف إلى ذلك وجوب تعليمها كل المعارف اللازمة للحياة المنزلية كالحساب وقانون الصحة وبعض الشيء مما يكمل معرفتها بحاجات العصر الذي تعيش فيه مضيفا "على أن بعض النساء قد يحتاج إلى تعليمهن تعليما عاليا مفيدا بل ضروريا كالطب وفن الجراحة لا سيما ما كان متعلقا منه بشؤون الحمل والولادة وتعليم النساء"[444].

وقد وقف "عباس محمود العقاد" إلى جانب تعليم المرأة سنة 1912 حين نادى بتعليمها تعليما عاما لا تعليما نسويا مصعدا بها إلى الأفق الأعلى من الثقافة الإنسانية الرحيبة...[445].

ولكن ما نسجله بهذا الصدد أن الشيخ "الغزالي" كان ينظر إلى الموضوع من زاوية أخرى، وبالتالي اتخذت قضية التربية والتعليم في فكره بعدا أوسع كون الرجل يسعى أولا وأخيرا لإنصاف الدين وتحقيق مصلحة الدعوة الإسلامية. وبهذا المسعى راح يهاجم منذ بواكير نشاطه الفكري الجماعات المتطرفة، وقد سبق أن بينا كيف أنه يجعل الإفراط والتفريط في شتى شؤون المرأة المسلمة، وما يتعلق بالحياة العامة. سواء في تزييف أسلوب الإسلام، وتشويش الأذهان. فالمتمعن في تصريحات الرجل ومواقفه تجاه قضية "تعليم المرأة"، يجدها مشحونة بحسرة يدثرها ألم شفيف، تنم عن إحساسه الدفين بمدى ضياع الخير العميم من بين يدي هذه الأمة -التي هي الأمة الخيرية أصلا –وهذا لا يعني أنه يقف عند حدود الإشفاق العاطفي والإرواء الكلامي، بل يتجاوز هذا إلى تشخيص موضع الداء المتجذر في العقليات الأحادية، التي ترفض بقصد أو بغير قصد- تجاوز أوهامها؛ فهي إما عقلية انغلاقية تزج بالمرأة في سجن البيت –بمعناه الضيق- ولا ترى لها وظيفة أخرى، بناء على متون نصية ما أنزل الله بها من سلطان –وإما عقلية انفتاحية على كل ما أنتجه العقل الغربي؛ من مناهج وتصورات وأنماط حياة، باسم التحرر، وشعارات أخرى تصنع مآسي الأمة أكثر مما تخرجها من أزماتها المتوالية.

---

(442) قاسم أمين، تحرير المرأة، ص 8.

(443) الطاهر الحداد، امرأتنا في الشريعة والمجتمع، ص 233.

(444) محمد صالح المراكشي، تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار (1898-1935)، ص 349.

(445) نعمات أحمد فؤاد، الجمال والحرية والشخصية الإنسانية في أدب العقاد، ص 133.

إنه "الجهل المركب" الذي تعاظم خطره، وجلت آثاره، فالإشكال –إذن- ليس في الدين ولا في المرأة، بل هو كامن في العقل الذي يخطط ويدبر ويرسم معالم المناهج، وفي زوايا النظر التي يستكشف من خلالها النصوص، ويرى عبرها العالم والحياة والإنسان.

المبحث الثاني: قضية اللباس.

المطلب الأول: الآداب القيمية والأخلاقية للباس في الإسلام كما يصورها الشيخ "محمد الغزالي".

أولا: الآداب والخصائص العامة للباس في الإسلام.

يقف الإسلام موقفا حاسما من قضية اللباس لما لها من أبعاد قيمية وأخلاقية في حياة المرأة والرجل على السواء، مقررا ضرورتها للإنسان؛ رجلا كان أم امرأة، ومؤكدا وظيفتها المنوطة بها ودورها في استقرار النفس البشرية: فاللباس كما يرى "مالك بن نبي" ليس من العوامل المادية التي تقر التوازن الأخلاقي في المجتمع فحسب، بل أمر له أبعاده العميقة، وانعكاساته الهامة على منظومتنا القيمية والأخلاقية والروحية والنفسية... بل –على حد قوله– إن له روحه الخاصة به، ومن ثم أمكن القول بأن التوازن الأخلاقي للجماعة متوقف على عدة عوامل أدبية ومادية؛ والملبس هو أحد تلك العوامل[446].

والملابس بعد ذلك تؤدي جملة وظائف؛ منها الوظيفة الصحية، فهي كسوة تتطلبها صحة الإنسان، والوظيفة الأخلاقية؛ فهي غطاء يواري ما لا ينظر إليه، ثم الوظيفة الجمالية لما تتضمنه من إضفاء الزينة والجمال على المرء واستحبابهما من الفطر السوية. وفي هذا يقول سبحانه: ﴿**يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**﴾[447]، والريش فيما فسره "الغزالي" –هو ما يكسب صاحبه جمالا وبهاء.

فمن رحمة الله عزوجل وحكمته أن: "شرع لنا في التنزيل لباسا يستر العورات المكشوفة ثم يكون زينة –بهذا الستر- وجمالا"[448]. مما يجعله يستوفي غرضه حين يستجيب لشرطي: الستر والجمال. وهذا هو البعد الجوهري للتشريع الإسلامي فيما يخص مسألة الزي.

([446]) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 132-133.

([447]) سورة الأعراف: الآية 26.

([448]) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق (القاهرة), ط16, (1410هـ -1990م), مج3,ج8, ص1278.

وفي هذا السياق يتساءل الشيخ "الغزالي" قائلا: "ولكن ما قيمة ثوب وسيم على خلق دميم؟ وما معنى أن يكون المرء قبيح الباطن جميل الظاهر؟"[449]، ولهذا السبب أوصى القرآن الكريم بلباس التقوى لكلا الجنسين، ونبه إلى خيريته لأنه أشرف وأزكى.

يؤكد الرجل على هذا المعنى، وكأنى به يريد جدلية المخبر والمظهر والسعي الدؤوب إلى صياغة التفاعل الدائم بينهما. والمسألة لا يمكن أن تناقش ببساطة، فهي على درجة من التعقيد؛ لأنها تتعلق بحياة الإنسان الداخلية وقناعاته ورؤيته لذاته ضمن الوجود، إنه سؤال القيمة أو قل معيار التفضيل والتمييز كما يرسمه القرآن الكريم من خلال قوله تعالى: **﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾**[450]، وهذا إن دل فإنما يدل على أن اللباس

الإسلامي يتأسس في أصله وجوهره على التقوى؛ "ذلك أن لباس المرأة المسلمة تقوى لأنوثتها وعفتها التي ينبغي أن تستشعرها، فهو جزء وماهية شخصيتها، وهو بذلك رمز على حال التقوى العامة التي جعلها الله عز وجل في كل شيء، وفي خير الإنسان"[451].

ويعزز وجهة النظر هذه ما عناه "الغزالي" في قوله "... إن هناك ثوبا آخر يكسو باطنه، ويبرز حقيقته، هو ما سماه القرآن الكريم بلباس التقوى .وما قصده الشاعر بقوله:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل!

وقال شاعر آخر:

لأن أُزَجِّيَ عند العرى بالخلَق وأكتفي من يسير الزاد بالعُلَق.

خير و أكرم لي من أن أرى مننًا معقودة للئام الناس في عنقي.

يعني أفضل لباس خرقات بالية وأكل لقيمات تافهة على أن أمد يدي إلى أحد لألبس الغالي"[452]. فالرجل حينما يحدثنا بهذه الصيغة، نستشف ضمنيا البعد القيمي الذي يحتل الصدارة في تحريك شخصية الإنسان العربي، إنه تاريخ العزة والإباء وتاريخ الكرم ومكارم الأخلاق التي جاء القرآن الكريم ليتممها، لا ليلغيها. ويصحح المفاهيم التي توجه الإنسان في حياته، وتحدد الأولويات التي تحكم مسيرة الإنسان في الحياة.

واستطرادا نؤكد ما أشار إليه "محمد الغزالي"، منبها لحديث صحيح أهمله الناس وربما طبقوا نقيضه وهو قوله -صلى الله عليه وسلم-: «كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان سرفٌ ومخيلة»[453]. فما تحضر الحرية في الإسلام, إلا

---

(449) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص 183.

(450) سورة الأعراف: الآية 26.

(451) برهان زريق، المرأة في الإسلام (قراءة معاصرة)، ص 338.

(452) محمد الغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، دار بغدادي (الجزائر), ط(2000), ص 114.

(453) رواه البخاري, كتاب اللباس, باب" قول الله تعالى قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده", ج7, ص33.

وتحضر معها ضمنيا المسؤولية. فمسألة اللباس بالرغم أنها تبدو مسألة شخصية، إلا أنها محكومة بنظام كوني إنساني لا يتجاوز حدود النفسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي. فهي -إذن- تنم عن مدى أهلية الإنسان على المستوى الحضاري، فلذلك نجد الشيخ "الغزالي" لا يناقش قضية اللباس كجزئية يتصرف فيها بتلقائية، بل يناقشها من منظور المنظومة القيمية الإسلامية؛ كمنظومة شمولية متكاملة تسعى إلى تحقيق التوازن بين كافة مستويات الحياة الاجتماعية وترفع بالإنسان إلى مستوى الوعي الجمالي الذي هو مرحلة راقية جدا من مراحل الوعي.

من هنا كان لزاما على المرء رجلا كان أم امرأة أن يلتزم الاعتدال والتواضع لأن "الإسراف والاختيال يفترسان نفقات هائلة وأموالا طائلة ويختفيان وراء طائفة من الأخلاق الكريهة والمسالك الشائعة"[454] .فمناقشة مسألة اللباس عند المرأة – بالخصوص- لا يمكن أن تكون بمعزل عن معطيات كثيرة وملابسات جمة يطرحها القرآن الكريم بعمق، ويحسس بالآثار التي تترتب عنها, فهي قضية قيم ومواقف قبل كل شيء تقرأ في ضوء شبكة العلاقات الإنسانية بل أكثر من هذا ضمن علاقة الإنسان بالكون.

ثانيا: ملابس النساء.

اهتم الشيخ "الغزالي" منذ بواكير نشاطه الفكري والدعوي بمسألة اللباس، فكان يعدها مشكلة قائمة تطالب بالحل، أو قضية مهملة تستحق الملاحظة والإرشاد.

وقد صنفها –في موضع آخر- في جملة الحقائق الإسلامية الضائعة، التي ظل طيلة رحلته الدعوية يطالب بعودة المجتمع إليها. ومما كان –رحمه الله- يدعو إليه ويطالب به: توحيد الزي للرجال، وتوحيد كذلك للنساء خصوصا الطالبات، ويضع لذلك مواصفات سهلة بسيطة وهادفة، من بينها: أن يكون رخيص السعر، وأن يكون من الإنتاج الوطني، وأن يلبسه الرئيس والوزراء، ويعد اللباس الرسمي في كل ديوان أو حفل، مضيفا لذلك شرطا خاصا بالنساء، وهو أن يكون ساترا للجسم كله ما عدا الوجه والكفين[455].

ولا شك أن لهذا الاقتراح أبعادا اجتماعية واقتصادية جمة، فعباراته وإشاراته تنطق دائما عن أغراضه ومراميه، وقد أعطانا في أحد مؤلفاته تعليلا لقوله الأول؛ إذ يرى أنه "من الواجب خلق لباس يرتديه الرجال عامة، ويكون التفاوت في ثمنه وشكله ضيقا جدا، بحيث لا تكون سعة الثروة سببا في الانتفاخ وقلتها سببا في

ورواه أحمد في مسنده. مج2, ص181.

ورواه ابن ماجه, كتاب اللباس, باب" البس ما شئت , ما أخطأك سرف أو مخيلة", رقم3605, مج4, ص162.

([454]) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص 183.

([455]) محمد الغزالي, "مقتطفات من مذكرات الشيخ"،ص 206.

الانكماش، وبحيث لا تكون ملابس دينية وأخرى مدنية... أما ملابس النساء فمن الواجب ابتكار أزياء تجمع بين الفضيلة والجمال، وتمنع التبرج والفساد!!"[456].

فالجمال -بهذا المعنى- مطلوب بعد توفر قدر من الفضيلة والأخلاق والحشمة الكاملة، والحشمة المطلوبة هي ستر الجسد كله ما عدا الوجه والكفين.

إن الشيخ "محمد الغزالي" من منطلق كون حياته نموذجا تطبيقيا لأحكام القرآن والسنة يستمد بكل بساطة شكل ومواصفات الزي الإسلامي للمرأة، ويلتزم في ذلك مبدأ الوسطية و الاعتدال وينأى عن التضييق والانحلال. ومن ثمة فإنه يسعى جاهدا إلى إزاحة الأوهام التي علقت بأذهان البشر، وشوهت وجه الإسلام الجميل، فاتخذت من حجاب المرأة ذريعة لحبسها بين جدران البيت الأربعة لا ترى أحدا ولا يراها أحد. يقول مصورا هذه الحقيقة: "وباسم الحجاب قامت تقاليد تزدري المرأة وتؤخرها وترفض منحها الحقوق المادية

والأدبية التي أقرها لها الإسلام فماتت إنسانيتها على مر القرون، وتولى كبر ذلك كله متدينون جهلة يحسبون التقوى تجهيل المرأة وإذلالها..."[457].

ظل الرجل طيلة حياته يدعو ويوصي بسد الثغرات والمنافذ التي يتصيدها أعداء الإسلام والمتربصين به. ولا شك أن لبعض المتدينين الجهلة اليد الطولى في ذلك، فلا يمكن بحال تجاوز الكثير من مواقفهم إزاء قضايا المرأة، من ذلك قضية اللباس، فهم, -كما ينعتهم الإمام "الغزالي"-: "يعرضون دينهم مزورا دميم الوجه ثم يذمون الناس لأنهم رفضوه"[458].

وفي نظرنا أن أصحاب الاتجاه الانغلاقي أو المتشدد في إطلاق الأحكام لا سيما منها المتعلقة بالمرأة, لا ينطلقون من مبدأ خدمة مصالح الدعوة، وعلى هذا الأساس تأتي وجهات نظرهم قاصرة عن إدراك حقيقة وجوهر شرعنا الحنيف، والتي هي الاستمرارية والصلاحية لكل زمان ومكان.

وعلى هذا يطالب شيخنا بتقديم صورة حسنة للمرأة المسلمة وبالتالي للإسلام وتعاليمه قصد خدمة الدعوة الإسلامية، وهذه الصورة المكتملة والجميلة تؤخذ -في نظره- من الكتاب أولا ثم من السنة بعد ذلك. والسنة أساسها ما تواتر ثم ما صح، أما المرويات الضعيفة, وما أكثرها, فلها شأن آخر يعرفه الراسخون في العلم[459]. ويستند بعد ذلك إلى تطبيقات الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في حياتهم.

إن الشيخ "الغزالي" يرفض أن تكون المرأة جسدا يلف في أثوابه ويواري خلف الأبواب بعيدا عن الأنظار. ويستنكر هذا الوضع المنسوب للإسلام، الذي هو منه براء. وهو الوضع الذي عبر عنه البعض بـ: "الاحتجاب المنزلي" وعلى رأس

([456]) محمد الغزالي، معركة المصحف في العالم الإسلامي، ص 264.

([457]) محمد الغزالي، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص 195.

([458]) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص 12.

([459]) محمد الغزالي، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، ص 143.

هؤلاء "قاسم أمين" الذي اهتم بطرح قضية الحجاب منذ بداية عهده بالكتابة، فانطلق يهاجم هذا المعنى للحجاب، والمقصود منه حجب المرأة عن الأنظار فلا هي ترى أحدا ولا يراها أحد. ونلمس هذا المفهوم من قوله "إن الحجاب يحبس المرأة في دائرة ضيقة، فلا ترى ولا تسمع ولا تعرف إلا ما يقع فيها من سفاسف الحوادث، ويحول بينها وبين العالم الحي، وهو عالم الفكر والحركة والعمل فلا يصل إليها منه شيء..."[460] هذا، وإن كان "قاسم أمين" فيما بعد خط لنفسه مسارا قلد فيه خطى الغربيين في تحرير المرأة، وتفتحها على العالم الخارجي دون أدنى ضوابط تحكمها، فانتقل بالمرأة من النقيض إلى النقيض. لذلك ثار ضده أصحاب التوجهات السلفية التي تؤيد حجاب المرأة بمعنييه، وعلى رأس هؤلاء "طلعت حرب"" و"محمد فريد وجدي"، فيذهب الأول إلى القول بأن "الشريعة نصوصا تقضي بالحجاب الشرعي ونعني به ستر

البدن بأكمله وملازمة المرأة خدرها إلا لضرورة"[461]، في حين يرى الثاني من أنه لا مناص من التسليم بأن الحجاب يقتضي ستر المرأة جميع بدنها بما فيه وجهها ويديها، وعزلها عن الرجل لذلك يقرر بأن: "وظيفة المرأة منزلية محضة، وأن اشتغالها خارج بيتها خلل اجتماعي خطير بخلاف الرجل"[462].

لقد ظهرت آثار هذا التطرف على الشيخ –رحمه الله- في معالجته للعادات الراكدة والوافدة، وفي تصحيحه النظر وفق ما جاء به الشرع الحكيم لاستجلاء الوسطية الإسلامية. فهو لا يحكم على المرأة بالسجن المؤبد كما يتصوره مرضى القلوب, في حين يستثني خروج المرأة من بيتها في حالات؛ إذ "لا يجوز أن يكون مع تبرج الجاهلية القديمة أو الحديثة، إن مكثها فيه أولى من هذا الخروج السيئ"[463].

من هنا يتساءل الغزالي عن خروج المرأة: كيف يكون؟، وما هو لباسها الذي يجب أن تخرج به؟, ثم يقدم صورة دقيقة عن هيئتها التي يجب لزاما أن تكون عليها قائلا: "وعندما تخرج –وهذا حقها يقينا- فإن آية أخرى أرشدتها إلى الهيأة التي تخرج بها! إن للاستعفاف ملابس سابغة تلف الجسد وتنفي الريبة وتنطق بأن هذه المرأة تقية أما الملابس الخليعة المتبرجة التي تستفز الشهوات فهي تغري السفلة، وتشم منها الذئاب

---

(460) قاسم أمين، تحرير المرأة، ص 81.

(461) محمد طلعت حرب، تربية المرأة والحجاب (وهو رد على دعاة محرري المرأة)، أضواء السلف (الرياض)، ط1(1419هـ-1999م)، ص 63.

(462) محمد فريد وجدي، المرأة المسلمة (دراسة نقدية لدعاة تحرير المرأة)، أضواء السلف (الرياض)، ط1(1419هـ-1999م)، ص 107-108.

(463) و(4) محمد الغزالي، مائة سؤال عن الإسلام، ص 365.

رائحة معينة، وعلى المسلمة الشريفة أن لا تؤذي نفسها بهذه الملابس فإنها بثياب الفضيلة تحمي عرضها، وتحصن نفسها"[464].

إن "محمد الغزالي" يقرر أحكاما مبنية على أصول دينية صحيحة صريحة، وصلة وثيقة بالقرآن الكريم والسنة المطهرة ويستدل على آرائه بما جاء في الآية الكريمة: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾[465].

وحقيقة الأمر أن في ارتداء الجلباب "كمال الهيأة عند الخروج، وفي كمال الهيئة كمال الصيانة والتكريم، وهذا ما يعني الحرص على المستوى الرفيع من السلوك من جانب صاحبة الجلباب، فالثياب في ماهيتها ولونها مظهر، لكنها في حقيقتها تنم عن جوهر هو الأصل وهو المراد... كما أنه ثوب معروف قبل الإسلام، وقد اتخذه الإسلام بعد إضافات كمية عليه"[466].

والجلباب في اللغة "ثوب أوسع من الخمار، دون الرداء، تغطي به المرأة رأسها وصدرها؛ وقيل: هو ثوب واسع، دون الملحفة، تلبسه المرأة؛ وقيل: هو الملحفة، وقيل: هو ما تغطي به المرأة الثياب من فوق كالملحفة؛

وقيل: جلباب المرأة ملاءتها التي تشتمل بها...والجلباب أيضا: الرداء؛ وقيل: هو كالمقنعة تغطي به المرأة رأسها وظهرها وصدرها... وهو الثوب السابغ الذي يشتمل به النائم، فيغطي جسده كله"[467].

ولعلنا لا نعدم مكانة اللغة ودورها عند الإنسان العربي؛ فهي مستودع آماله وآلامه، وهي جراب قيمه الذي يختزن تجربته في الحياة. ولذلك حين نناقش قضية الجلباب؛ من حيث مواصفاته وخصائصه وشروطه –كما حددها الشرع- فلا يجب أن نغض الطرف أو نقفز عن تاريخ هذا اللباس واقترانه بقيم عصره. فالإسلام لم يلغ ما قبله، وإنما أضاف إليه وهذبه.

فكما هذب اللغة الاجتماعية والأدبية، فكذلك أعاد النظر في اللباس وعلاقته بالقيم الإنسانية ضمن منظومة الإسلام المتكاملة الشمولية.

وعلى غرار هذا يشير "الغزالي" إلى التكامل الموجود بين الآية (59) من "سورة الأحزاب" والآية (31) من سورة "النور"، التي يقول فيها المولى عز وجل: ﴿**وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ**

---

(5)سورة الأحزاب: الآية59.

(6) برهان زريق, المرأة في الإسلام (قراءة معاصرة), ص338.

(7) ابن منظور, لسان العرب, مادة (جلب), ج3, ص170.

الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ, وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(468)، فالآية الكريمة هنا تضبط معالم حراك المرأة ضمن سياقها الاجتماعي، على المستوى القيمي النفسي الذي يصنع العلاقات الحساسة بين الرجل والمرأة ويؤطرها بدقة. والاستثناء الأول الوارد في الآية "يستثني الزينة في الوجه واليدين من عموم ما يجب إخفاؤه من زينة المرأة"(469).

إن الآية (31) من سورة "النور" جددت سمة أخرى للباس المرأة المسلمة مكملة ومتممة للسمة الأولى الواردة في الآية (59) من "سورة الأحزاب"، وهو ما يتضح في قوله تعالى: ﴿**وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ**﴾.

والخمار في لغة العرب "ما تغطي به المرأة رأسها"(470). وضرب الخمار على الجيب معناه "إسدال غطاء الرأس حتى يواري أعلى الصدر"(471).

فالشيخ "الغزالي" من منطلق استيعابه الأمثل للقرآن الكريم ومعايشته له نراه يُعرض عن التلاعب بالألفاظ القرآنية المستيقنة، ويدع القضايا التي يكثر فيها اللجاج. كما لا يرى حرجا في الرد العنيف الساخر على بعض المتحدثين الجهال(*) -كما يسميهم وتشخيص عللهم؛ إذ يرى أن "آفة بعض المتحدثين في الإسلام أنهم يستقبلون المرويات التافهة وأذهانهم خالية أو فقيرة من الوعي بتوجيهات القرآن الكريم وهو دستور الإسلام الأول"(472).

ولقد كان الرجل يتساءل بعمق عن الأخطاء المنهجية القابعة في عقول هؤلاء؛ فكيف يجوز لفقيه أن يتناول السنن الصحاح وهو جاهل بالمنهجية المعرفية للقرآن الكريم؟ فما بالك بما هو دون الصحيح من تلك المرويات"؟!

والمتمعن في كتابات الشيخ، يدرك أنه يكرس قلمه لتوضيح مسألة شمولية المنهج الإسلامي ونظاميته ومرونته في التعامل مع القضايا الإنسانية الكبرى. والأحكام "التي توجد في الأحاديث الصحيحة مأخوذة ومستنبطة من القرآن الكريم، استنبطها النبي -صلى الله عليه وسلم- من القرآن بتأييد إلهي، وبيان رباني"(473). وهذا أمر وارد بيانه في القرآن الكريم، إذ قال تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ**

---

(468) سورة النور: الآية 31.

(469) محمد الغزالي، علل وأدوية، ص 99.

(470) ابن منظور ، لسان العرب، مادة (خمر), ج 5 , ص 154 .

(471) محمد الغزالي، هذا ديننا، ص 158.

(*) المتحدثين الجهال يقصد بهم: أولئك الذين يستدلون لآرائهم بأحاديث، وليس لهم بعلوم الحديث أدنى علم.

(472) محمد الغزالي، الدعوى الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، ص 143.

(473) محمد الغزالي، هذا ديننا، ص 227.

لَهُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[474]. وقال أيضا: **﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾**[475]، فأساس السنة –كما يرى الشيخ- هو ما تواتر منها، ثم بعد ذلك ما صح.

ومن نافلة القول، أن نؤكد أن للشيخ "الغزالي" قاعدة لا يحيد عنها وهي: تدعيمه لآرائه من آيات الكتاب العزيز، ثم النظر بعد ذلك فيما تواتر أو صح من أحاديث وسنن، واستئناسه فيما بعد بآراء الفقهاء والمجتهدين حرصا منه واحتراما لما أجمعت عليه الأمة الإسلامية. وبناء على هذا جاءت نظرته المعتدلة والمنصفة للباس المرأة المسلمة أو حجابها.

وكما يستدل "الغزالي" على مشروعية الحجاب في الإسلام بالآيات القرآنية، يستدل كذلك بالأحاديث النبوية والسنن الصحاح التي هي مبينة وشارحة لما تضمنه القرآن الكريم ففي الحديث: "دخلت أسماء بنت أبي بكر على رسول الله –صلى الله عليه وسلم- وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها –مستنكرا- وقال: «يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا وأشار إلى وجهه وكفيه»[476].

إن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- بين مواصفات اللباس الإسلامي للمرأة المسلمة وشروطه، فهو بالإضافة إلى كونه سابغا لجسدها وساترا له، "غير مجسد ولا مجسم، وهذا ما يتفق مع قوله –صلى الله عليه وسلم- ألا يصف أو يشف"[477].

ولا جدال من أن الشريعة الإسلامية السمحة لم تفرض على المرأة ارتداء طراز محدد، ولون معين، لكنها حددت وقررت شروطا يجب حضوها وتوفرها في كل طراز وهذا تماشيا مع الأعراف التي تقر أحكام وآداب الإسلام ولا تتصادم معها. وترمي كلها إلى التستر والاحتشام، ومن ثم فلا يجوز بحال التعلق بهيئة واحدة، والزعم أنها الهيئة الوحيدة الواجبة، وهو ما لم تشر إليه مصادر التاريخ أبدا[478].

هذا، ومن يبن شروط اللباس الشرعي للمرأة –وفق ما حددته السنة الشريفة- أن يكون اللباس في مجمله مخالفا للباس الرجال؛ فقد صح عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- قوله: «لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال»[479].

([474]) سورة النحل: الآية 44.

([475]) سورة النساء: الآية 105.

([476]) رواه أبو داود, كتاب اللباس, باب" فيما تبدي المرأة من زينتها", رقم4104, مج2, ص520.

*حديث صحيح.

([477])و(2) برهان زريق، المرأة في الإسلام (قراءة معاصرة)، ص 341.

([479]) رواه البخاري,كتاب اللباس, باب"المتشبهين بالنساء والمتشبهات بالرجال", ج7, ص55.

ورواه أحمد في مسنده, مج1, ص339.

ورواه ابن ماجه, كتاب النكاح, باب"في المخنثين", رقم1557, مج2, ص137.

لقد حظر رسول الله –صلى الله عليه وسلم- هذا التشبه وأنكره على نساء الأمة ورجالها، لما يكتنفه من هدر لأنوثة المرأة، والعكس بالنسبة للرجل. و"الغزالي" إذ يعلق على هذا يقول: "وظاهر أن هذا عوج في السلوك، ولعله مرض نفسي يستحق العلاج"(480).

وجدير بالذكر أن ننقل هنا المعادلة الفذة التي وضعها المفكر الإسلامي الجزائري "مالك بن نبي": "مبدأ أخلاقي + ذوق جمالي"(481). ولعل معادلة "ابن نبي" تتداخل مع ما يقرره الشيخ ويدعو إليه إذ يرى أنه "من الواجب ابتكار أزياء تجمع بين الفضيلة والجمال وتمنع التبرج والفساد!!" (482).

وبهذا يكون الإدراك الواعي والفهم الشمولي لمسألة الحجاب عند المرأة التي لا تقف –مثلما ذكرنا- عند حدود شكلياتها، بل تتعدى إلى تحقيق نوع راق من التفاعل بين الجلالي والجمالي. بين الأوامر الإلهية والقوانين الكونية.

ثالثا: موقف الشيخ "محمد الغزالي" من الزينة والتبرج.

من نافلة الكلام أن نقول إن المرأة بطبيعة فطرتها ميالة للزينة والتجمل، فكل أنثى بلا شك مولعة بأن تكون جميلة، وهذا من حقها شرعا "فالإسلام لا يقاوم هذه الرغبة الفطرية، ولكنه ينظمها ويضبطها، ويجعلها تتبلور في الاتجاه بها إلى رجل واحد – وهو شريك الحياة- يطلع منها ما لا يطلع أحد سواه ويشترك معه في الإطلاع على بعضها المحارم والمذكورون في سورة النور الآية (31)، ممن لا يثير شهواتهم ذلك الإطلاع"(483).

وللشيخ "الغزالي" في حديثه عن زينة المرأة كلام مجمل مفصل؛ إذ يرى أن من حق المرأة أن تكون جميلة المظهر، فهو يأبى تحريم زينة الله التي أخرج لعباده، لكن هذا الحق يبقى مقيدا بشرط: أن تكون تامة العقل كريمة الشمائل. فضلا عن أنه يرى أن لها الحق كاملا في أن تتجمل، وليس لها الحق أبدا في أن تتبرج(484).

فما نراه اليوم من مظاهر العري والسفور الخليعة المصاحبة للحضارة الحديثة لا يكفل أدنى جمالا للمرأة، بل إنه فوق ذلك يذهب بكرامتها وأخلاقها. وقصد المدنية الحديثة لهذا الغرض واضح وضوح الشمس، فـ"الملابس هناك تفصل للإثارة لا للستر، والتزيين للشارع لا للبيت"(485). و"الغزالي" في وصفه لهذا الاتجاه الطائش الكفور –كما يطلق عليه- يقول: "...فإن المدنية الحديثة تعمل بدأب غريب على إثارة

---

*حديث حسن صحيح.

(480) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص 186.

(481) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 108.

(482) محمد الغزالي، معركة المصحف في العالم الإسلامي، ص 264.

(483) سيد قطب، في ظلال القرآن، مج4، ج18، ص 2512.

(484) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص 184.

(485) محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه و الحديث، ص 42.

الشهية الجنسية بالليل والنهار، في البر والبحر... وتستفز الغرائز الساكنة لتدفعها دفعا إلى الاستمتاع الميسور، محظورا كان أو غير محظور... إنها مدنية تنشد اللذة وتطوع لها كل شيء... وإن زبانية النشاط الجنسي يكدون قرائحهم لخلق أزياء وأوضاع جديدة تلهب الذئاب الجائعة لتنطلق في كل فج وهي تصيح، هل من مزيد؟"[486].

وهذه الحضارة، نتيجة لفساد تدينها وابتعادها عن طريق الصواب، اهتمت أكثر بزخرف الحياة وأهملت اللباب، فكان شغلها الشاغل السعي وراء شهواتها؛ فهي تتفنن في ابتكار ألوان وأشكال من الملابس المختلفة التي تستهوي بها النساء وتغريهن وهي بذلك تصب في مصب واحد, وتلتقي عند غاية واحدة هي إبراز مفاتن المرأة وجرها لسبل الغواية والحرام والرذيلة.

وإذا كان الإسلام يدعو إلى التجمل وحسن السمت، ولا يأبى على المرأة المسلمة أن تتجمل وتبدو بمظهر يجمع بين الجمال والوقار يليق بها وبدينها، فإنه يرفض سلوكها وميلها نحو التبرج. وهذا ما تبناه "الغزالي" ودعا إليه المرأة المسلمة أينما كانت. وفي عدد من مؤلفاته يميز بين أمرين متباعدين هما التبرج والتجمل، وتناول ذلك بشيء من التفصيل؛ فبين أن التبرج شيء والتجمل شيء آخر غير التبرج.

فالتجمل "صون الجسد واستبقاء محاسنه الطبيعية واستبعاد ما يشينها أو يشوهها، وذاك لا حرج فيه، بل هو مطلوب"[487].

أما التبرج فهو "الإثارة المتعمدة بإضافات مفتعلة للفت الأنظار واستفزاز الرغبات، وهذا مرفوض"[488]. ويستطرد الشيخ "الغزالي" قائلا: "ويزداد الرفض عندما تكون المرأة خارجة للصلاة فإنها بذلك التبرج تفسد جو العبادة، وما ينبغي له من طهر وتجرد، إن المساجد ليست معارض للفتنة ولا ميدان سباق بين الجميلات،..."[489].

وحينما يؤكد "الغزالي" على التجمل المشروع للمرأة المسلمة، والمشروط في حدود الصون والاحتشام، ويحث عليه، إنما هو إصرار منه لأن تكون المرأة المسلمة صاحبة الدور الثمين والحضور الإيجابي والمتميز على مسرح الحياة. وقد يقف التبرج حائلا بينها وبين حضورها الإيجابي والفعال في الحياة؛ لاستيلائه على إنسانيتها واختزاله لوجودها. وفضلا عن ذلك فإن موقف الإسلام من ذلك واضح، يبينه قول "الغزالي": "إن الإسلام يأبى أن تكون المرأة متبرجة مثيرة، ويأبى كذلك أن تكون منفرة دميمة"[490]، فليس معنى نهي المرأة عن التبرج إهمال هيئتها،

([486]) محمد الغزالي، ركائز الإيمان بين العقل والقلب، ص 300-301.

([487])و(2)و(3) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص 114.

(4) محمد الغزالي, مستقبل الإسلام خارج أرضه, ص57.

(5) سيد قطب, في ظلال القرآن, مج4, ج18, ص2513.

(6) محمد الغزالي، من هنا نعلم, ص149.

وطرح الاهتمام بها جانبا، كلا فلتكن حسنة الهيأة مع الاحتشام، ولتكن طيبة الرائحة دون تعطر صارخ مثير...!، وهو الأمر الذي لم يغفل عنه قلم شيخنا، إذ أعطى الفهم المناسب لكلا الأمرين، فحث على وضع الأمور في نصابها من غير إفراط ولا تفريط.

إن الإسلام يضع للمرأة آدابا جمة في هيئتها وملبسها وتجملها وتسترها ويريد بذلك أن يسمو بذوق المجتمع الإسلامي. وفي ذلك يقول سيد قطب –رحمه الله-: "لقد رفع الإسلام ذوق المجتمع الإسلامي، وطهر إحساسه بالجمال، فلم يعد الطابع الحيواني هو المستحب، بل الطابع الإنساني المهذب.. وجمال الكشف الجسدي جمال حيواني يهفو إليه الإنسان بحس الحيوان؛ مهما يكن من التناسق والاكتمال. فأما جمال الحشمة فهو الجمال النظيف، الذي يرفع الذوق الجمالي، ويجعله لائقا بالإنسان، ويحيطه بالنظافة والطهارة في الحس والخيال"(491).

والشيخ "الغزالي" بنظرته المعتدلة للواقع، وإدراكه لمتغيرات العصر، ومدى مرونة المنهج القرآني، يقترح أن تصمم للمرأة "أزياء تجمع بين الفضيلة والجمال وتمنع التبرج والفساد"(492)، ويرى أن ذلك من واجب المسلمين نحوها.

ثم إنه يعيب على علماء الأزهر وغيرهم من أعضاء الجماعات الإسلامية موقفهم الجامد العقيم، واكتفائهم بالاستنكار السلبي والصياح المجرد ضد الفساد والعري والتحلل، وعدم القيام بأي عمل إيجابي لحل مشكلة المرأة على أساس إسلامي صحيح، بما في ذلك مشكلة الزي "وأشدهم حماسا يكتب مقالا أو يلقي خطبة ثم يذهب إلى بيته فتستقبله فيه تقاليد الغرب المنتصرة وكأنها تخرج لسانها لوقاره المكذوب.. ثم يقول: لم يبن أحدهم معهدا نموذجيا ليعلم المرأة، ولم يصنع فستانا محتشما، ولم يتقدم بشيء يشغل به وقت المرأة في جدها ولهوها... إنه صياح الاحتجاج فقط"(493).

فمشكلة لباس المرأة، هي مشكلة الإنسان المسلم؛ إذ لا يمكن أن تعالج هذه القضية الحرجة دون أن يهيئ المجتمع الظروف اللازمة لها؛ النفسية والاقتصادية وغيرها. وكلما اضطرب منهج الرجل في الحياة اضطرب منهج المرأة، وكلما كانت مؤسسات الدولة لا تمتلك مشاريع أصيلة تعبر بعمق عن هوية الأمة، كلما أثر هذا سلبا على الأس القاعدي للأسرة، وأدى إلى تميع مسائل كثيرة، مثلما حدث لمسألة الحجاب، الذي طغى زخرفه على مضمونه الأخلاقي الراقي. لذلك حين يناقش علماء الأمة الأجلاء هذه القضايا، يضعونها في ضوء السياق الأخلاقي الذي يتوج بالمبدأ الجمالي، وهي المعادلة التي يشكلها الشيخ "الغزالي":

---

(493) محمد الغزالي، معركة المصحف في العالم الإسلامي، ص 264.

الفضيلة والأخلاق + الستر والجمال. وما ذهب إليه "مالك بن نبي" كذلك: مبدأ أخلاقي + ذوق جمالي.

المطلب الثاني: شبهات وفتاوى باطلة رد عليها الشيخ الغزالي في قضية لباس المرأة.

أولا: حرمة كشف الوجه (معركة النقاب).

إن الشيخ "الغزالي" في دعوته لإنصاف المرأة وإحياء إنسانيتها يجنح إلى تيار الاعتدال والوسطية الإسلامية وينأى عن تيار التطرف؛ إذ يرى أن من مصلحة الإسلام والدعوة الإسلامية ترك وتجنب ما يجلب لها الضرر والمفسدة ترجيحا لمصلحة أهم. ومن ذلك "قضية النقاب".

فقد كرس حياته وقلمه داعيا إلى "إعطاء صورة عملية للإسلام تعجب الرائين وتمحو الشبهات القديمة وتنصف الوحي الإلهي.."[494].فإن متدينين جهلة اتخذوا من الحجاب ذريعة لسجن المرأة وحبسها بين جدران البيت فلا ترى أحدا ولا يراها أحد، وإذا خرجت كانت مثل شبح يمشي في الطريق، وحجتهم في زعمهم الباطل هذا فتاوى مكذوبة على الإسلام نجحت في إخافة الناس منه ومكنت خصومه من بسط ألسنتهم فيه[495].

إنه يسعى إلى دحض شبهات علقت بالإسلام؛ إذ كان يتناول آراء ومقولات –ضل أصحابها وأضلوا بها كثيرا- بالرفض والرد العنيف من ذلك ما جاء في كتابه (سر تأخر العرب والمسلمين): "قدم إلي شاب متدين كتيبا ألفه عالم يدعو إلى النقاب، ويحكم بالفسق على السوافر من النساء، ومددت بصري إلى السطور الأولى فوجدت الرجل يقول: إن الإسلام حرم الزنا فوجب ستر الوجه سدا للذريعة! قلت: استدلال ساقط، فقد طلب الإسلام كشف الوجه في الحج والصلوات، فهل كان بذلك يحرض على الفاحشة؟ وروت كتب الصحاح نحو عشرة أحاديث تفيد أن الرسول عليه الصلاة والسلام رأى الوجوه مكشوفة فما أنكر ذلك؛ فهل كان يقر المنكر؟ واستثنى القرآن الكريم الزينة الظاهرة مما ينبغي ستره، فأين تكون هذه الزينة يا ترى؟"[496].

إن الشيخ "الغزالي" يستهين باستدلال يغض الطرف عن نصوص وشواهد الكتاب والسنة.. ثم يسرد الأدلة والحجج الدامغة الواحدة تلو الأخرى لدحض هذه المفتريات والشبهات الضالة والباطلة، ورد التأويلات التي لا تتناسب ونصوص الوحي من ذلك تأويلات بعض الفقهاء والمفسرين لقوله تعالى: ﴿**وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا**﴾. فهو يفسر الزينة الظاهرة –الواردة في الآية-: بالوجه والكفين[497]، ولا يرى في الآية نفسها أي دليل على النقاب، بل يؤكد بأن النقاب لم يثبت بخصوصه دليل، لا من كتاب ولا من سنة، إذ يقول: "فليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله ـ صلى الله

([494])و(2) محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص 36.

([3]) محمد الغزالي، سر تأخر العرب والمسلمين، ص 43ــ44.

([4]) ينظر:محمد الغزالي، هذا ديننا، ص157.

([5]) محمد الغزالي، الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية ، ص 14.

عليه وسلم ـ أن وجه المرأة عورة يجب أن تستر"[498]، ولا من وقائع تاريخية. وهو بذلك يعاتب كل من يتلاعب بألفاظ القرآن –على حد تعبيره- قائلا: "وقد رأيت الشيخ

الشنقيطي كلاما يشبه التلاعب بالألفاظ في تفسير الآية، يريد أن يقول إن الوجه ذات، والذات لا تستثنى من العرض –الذي هو الزينة- أي أن الآية لا تفيد كشف الوجه واليدين. وهذا هو اللعب بالألفاظ فإن الزينة المستثناة لا تنفك عن مواضعها من الوجه واليدين، وإظهار هذه الزينات إظهار لمواضعها يقينا، وعلى هذا جمهور الأئمة"[499].

يتألم الرجل كثيرا من غلف بعض المتدينين وظلمهم للدين، ونراه ينتقل من النقد إلى تشخيص الداء معتقدا أن مصيبة هذا الدين تكمن في "أناس يحرفون الكلم عن مواضعه، ويطيرون بحديث موضوع أو معلول ليلغوا به الآيات البينات، والسنن الثابتات البينات..."[500].

وتوضيحا لمقولة الشيخ هاته نسوق وما ذكره في أحد مؤلفاته مما اعتبره كلاما مردودا من ناحيتي السند والمتن كليهما؛ فقد نقل "عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن لحاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدين عينا واحدة"[501]. ونجد من سار على ضوء هذا الحديث كثر ممن اختلت معرفتهم بعلوم الحديث فاندرجوا ضمن من يحرفون الكلم عن مواضعه أمثال "محمد طلعت حرب" الذي يعتقد بأن النقاب الشرعي يشترط فيه أن لا تبدو منه إلا العين الواحدة[502].

هكذا يظهر لنا أن "الغزالي" الفقيه يتناول المسألة من المسائل الفقهية بردها إلى أصولها: الكتاب والسنة ثم حياطتها بسياج يدفع ويطرد كل ما ليس له صلة بها وبأصولها الصحيحة الصافية، أو يشوبها من مرويات واهية أو مكذوبة تغبش بنور الوحي الإلهي، وتملأ آفاق الحياة الإسلامية بالغيوم. والشيخ في هذه القضية (قضية النقاب)، وفي غيرها، وبعد إسناده لنصوص الكتاب والسنة، وإعمال النظر فيهما، لا يعطل رأي الجماعة ولا يهمله حرصا على وحدة الأمة الإسلامية وتماسكها، بل ينزل أحيانا عن وجهة نظره التي يقتنع بها أو الفكرة التي يعتنقها للغرض نفسه، ثم إنه كثيرا ما يقوي مذهبه ووجهات نظره واجتهاداته بآراء الفقهاء والمجتهدين وغيرهم من أئمة المسلمين. وفي هذا السياق نجده يقول عن نفسه: "ويعلم الله أني –مع اعتدادي برأيي- أكره الخلاف والشذوذ. وأحب السير مع الجماعة، وأنزل عن وجهة

([499]) محمد الغزالي، علل وأدوية، ص 99-100.

([500]) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقليد الراكدة والوافدة، ص 32.

([501]) محمد الغزالي، علل وأدوية، ص 98.

ويقول "الغزالي" بخصوص الحكم على الحديث أن: الحديث واهي السند مخالف لما صح، وهو الذي يطلق عليه علماء المصطلح: حديث منكر، مضيفا أن القرآن الكريم لا يفسر بحديث منكر.

([502]) محمد طلعت حرب، تربية المرأة والحجاب، ص 87.

نظري التي أقتنع بها بغية الإبقاء على وحدة الأمة.."[503]. فمن منهجه –رحمه الله- احترام جميع المذاهب الفقهية، دون تعصب لمذهب معين كما يفعل الشاغبون على سفور وجه المرأة. ولعله حين يسوق مبررات وجهته ورأيه في آراء علماء المذاهب الفقهية،

ويثبت نقولا لكبار مفسري القرآن من أتباع هذه المذاهب، يزيد منهجه هذا تأكيدا؛ إذ يرى أن من علماء المذاهب الأربعة من يرى أن وجه المرأة ليس بعورة، وحجته في ذلك ما قاله أتباع هذه المذاهب: "قال أبو بكر الجصاص –وهو حنفي- في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا...**﴾[504]. قال أصحابنا: المراد: الوجه والكفان؛ لأن الكحل زينة الوجه، والخضاب والخاتم زينة الكف. فإذا أبيح النظر إلى زينة الوجه والكف فقد اقتضى ذلك لا محالة إباحة النظر إلى الوجه والكفين. ويقول القرطبي –وهو مالكي- لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما عادة وعبادة، وذلك في الصلاة والحج، فيصلح أن يكون الاستثناء راجعا إليهما... .ويقول الخازن –وهو شافعي- مفسرا الاستثناء في الآية: قال سعيد بن جبير والضحاك والأوزاعي: الوجه والوكفان....؛ وقال ابن قدامة في "المغني" –وهو مرجع حنبلي-: المرأة كلها عورة إلا الوجه، وفي الكفين روايتان!!... والمذهب الحنفي يضم ظهور القدمين إلى الوجه والكفين، منعا للحرج..."[505].

انطلاقا من هذه الحجج والأدلة التي يستعرضها "الغزالي" ليدعم بها رأيه وموقفه في قضية النقاب، نخلص إلى القول بأن الرجل قد صاغ موقفه استنادا لأدلة وآراء كبار علماء الأمة، ناشدا بذلك خير الأمة.

وبذلك نفهم لماذا رد الشيخ على أولئك الشاغبين على سفور الوجه والصادين عن الآراء الراجحة لدى معظم المذاهب الفقهية، ردا عنيفا مستنكرا، مبنيا على مصلحة الإسلام داخل أرضه وخارجها، وبالتالي خدمة الدعوة الإسلامية وإزاحة العراقيل والعقبات المبعثرة في طريقها. وهو ما عبر عنه الشيخ "القرضاوي" تحت عنوان مرتكزات فقه الغزالي "الفقه في خدمة الدعوة", يقول في هذا الجانب: "إن الفقه ينبغي أن يكون في خدمة الدعوة إلى الإسلام، وألا تستخدم الفتاوى الجزئية للتنفير من قبول الإسلام من غير المسلمين، أو من التوبة والهداية للعصاة والشاردين من المسلمين"[506]. إن الشيخ "الغزالي" لا يرى بأسا في تفاوت علماء الأمة في تقرير الأحكام الجزئية والأمور الفرعية، فذلك لا يعدو أن يكون لتفاوت تفكير البشر، وكذا

([503]) محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص 119.

([504]) سورة النور: الآية 31.

([505]) محمد الغزالي, السنة النبوية بين أهل الفقه والحديث، ص 41-42.

([506]) يوسف القرضاوي، الشيخ الغزالي كما عرفته، ص 222.

لاختلاف الأزمان والبيئات. فالأهم عنده هو التوافق في كليات الشرع وإبداء الاحترام لمذاهب علماء الأمة.

وفي ثنايا حديثه عن التعصب والتقليد يورد أدلة تنفي مفتريات باطلة تصد عن سبيل الله، وتحرف بعض ما ذهب إليه أئمة المذاهب، من ذلك ادعاؤهم تقليد مذهب "أحمد بن حنبل أن "وجه المرأة عورة" وهو بريء من هذا المسلك، إذ لا يقول به، وهذا ما ذكره المغني لابن قدامة، وكذا رأي أئمة المذاهب. "قال ابن قدامة": قال مالك والأوزاعي و الشافعي: جميع المرأة عورة إلا وجهها وكفيها، وما سوى ذلك يجب ستره في الصلاة لأن ابن عباس قال في قوله تعالى: ﴿**وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا**﴾ قال: الوجه والكفين،

ولأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نهى المرأة المحرمة عن لبس القفازين والنقاب، ولو كان الوجه والكفان عورة لما حرم سترهما، ولأن الحاجة تدعو إلى كشف الوجه للبيع والشراء، والكفين للأخذ والعطاء، وقال بعض أصحابنا: المرأة كلها عورة لأنه قد روي في حديث عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: "المرأة عورة" ولكن رخص لها في كشف وجهها وكفيها لما في تغطيته من المشقة...الخ"[507]، ويضيف الشيخ أن من الأدلة أيضا لدى الحنابلة جواز نظر الخاطب إلى وجه المرأة لأنه لا خلاف بين العلماء في إباحة النظر إلى وجهها؛ فإنه ليس بعورة[508]. وما نستشفه من هذا أن حجاب المرأة المسلمة لا يشمل الوجه، حيث لا دليلا ولا نصا قاطعا للقائلين بعورة وجه المرأة، وحرمة كشفه. ولما في الانتقاب من تضييق الخناق على المرأة، ثم ما فيه من مشقة وحرج كبيرين في مجالات المعاملات بشتى أنواعها، كالشهادة والمتاجرة، والخطبة والزواج...الخ.

لاقى الشيخ "الغزالي" في حياته الدعوية ألوانا من التحامل والشتم؛ بسبب مجاهدته لإزالة وطرد شبهات أساءت للإسلام، وأخافت منه كل راغب في اعتناقه. ولا أدل على هذا ما وقع له مع أحد المتشائمين –كما يصفهم-، يقول –رحمه الله-: "القيني رجل فوق الأربعين يتحدث وكأنه يافع غر! قال لي بصوت مهتاج: أنت الذي تفتي بأن وجه المرأة وصوتها ليسا بعورة؟ قلت بهدوء: نعم! أما تتقي الله؟ قلت: أوصيك ونفسي بتقوى الله، قال: إنك مخطئ فيما تذكره للناس، يجب أن تتوب! قلت: لست وحدي الملزم، فإن كبار المفسرين سبقوني إلى هذا الخطأ كما سبقني إليه مرويات عشرة من الأحاديث الصحاح، وشاركني في خطئي أيضا أئمة المذاهب الأربعة، وعدد من المذاهب الفقهية الأخرى.

أولئك جميعا هم الذين استقيت منهم قولي أو تابعتهم في غلطهم، ولا أشعر بغضاضة إذا كنا جميعا أصحاب تهمة واحدة.

قال الرجل وهو دهش: ماذا تقول: أهؤلاء جميعا يفتون بأن وجه المرأة وصوتها ليسا بعورة. قلت: نعم! ولكنكم تؤثرون التقاليد السائدة وتتشبثون بآراء مرجوحة...

([507])و(2) محمد الغزالي، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، ص 145.

(3) محمد الغزالي، الحق المر, ج3, ص 61.

ولنفرض جدلا أن في المسألة قولين اخترت أنا أحدهما فلما الغضب، ولم التعامل والشتم؟"[509].

وفي نظرنا أن احتكام الناس إلى الآراء الشاذة التي لا يدعمها نص صحيح صريح؛ مرده إلى قصورهم الفقهي في كتاب الله تعالى، وفي سنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فضلا عن جهلهم التام بالتراث الفقهي المتشعب. وقد ساندهم في موقفهم من كشف الوجه طباعهم المريضة التي تغلو في تحريمه، فتصفه بأنه فجور، بل باب من أبواب الكبائر.

إن المتقصي لنقاشات الرجل مع معارضيه يلمس فيه خلق الرزانة وتحكيم العقل، وهو ما يقوده لعرض الأدلة وفق تسلسل منطقي لا تناقض فيه ولا تعارض بين منطلقاته ونتائجه, بل يرى كل دليل يعضد غيره

ويقويه. ولا أدل على هذا ما يراه الشيخ "القرضاوي" ويحكم به على منطق الشيخ إذ يقول: "... ولكن الذي يتأمل هذه القضايا الخلافية ببصيرة وإنصاف، يرى أن منطق الشيخ أرشد من منطق مخالفيه، وأن أدلته أقوى من أدلتهم, وأن رأيه أدنى إل تحقيق مقاصد الشرع، ومصالح الخلق، ومراعاة طبيعة العصر"[510].

وننوه استطرادا بأن القول بفرضية النقاب، فضلا عن كونه يحول دون فعالية المرأة، فإنه يقدمها لغير المسلمين نموذجا منفرا حائلا دون تحقيق أبرز خصائص هذه الرسالة الخاتمة؛ وهي الديمومة والاستمرارية. والأمر الذي يتألم له الرجل كثيرا أن هناك من المتدينين من يقاتل لأجل إثبات أن وجه المرأة عورة ,ويمضي وقته وجهده فيما لا نفع فيه ولا غنى لهذا الدين، دونما وعي منه بأنه يضاعف من حجم العوائق أمام الإسلام حينما يعرضه للراغبين فيه في هيئة تقاليد ليس لها سناد قائم واضح، إذ أغلبها وليد عصور الإنحراف والتخلف.

إن الشيخ الغزالي –رحمه الله- حين يدافع عن الإسلام من خطر الجهال والقاصرين لا يخاف على حاضره وحسب، لا.. بل يضع نصب عينيه حسابات دقيقة لضمان مستقبل ناجح له وللدعوة الإسلامية وتدعيم صفوفها، وعلى هذه الأرضية نفهم مواقفه وآراءه التي لا تخلو غالبا من السماحة والتيسير والإتزان، إذ لا نفهم مقاربته بين أزياء الراهبات المسيحيات وملابس المسلمات إلا من هذا المبدأ. وهذا أمر يغفل عنه كثيرون؛ إذ أن مقتضى الرسالة الخاتمة إتمام ما نقص من الشرائع الأخرى. ففي نظره أن "الأوروبيين يعرفون ملابس الفضيلة في أزياء الراهبات عندهم وهذه الأزياء أقرب ما يكون إلى الحجاب الشرعي عندنا. وإذا نحن التزمنا هذا الحجاب أنصفنا ديننا وأغرينا عشاق الفضيلة بالدخول فيه"[511].

وفي نظرنا أن في هذا التقريب يعود لامتلاك "الغزالي" الداعية لمؤهلات رفيعة؛ من ذلك العقل الحر المتفتح على مختلف المذاهب والديانات. ويعزز وجهة النظر هذه

([4]) يوسف القرضاوي, الشيخ الغزالي كما عرفته, ص198.

([511]) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص 7.

ما يراه "القرضاوي" من أن الشيخ "الغزالي" قد حاز قدحا معلى من خصائص الداعية الناجح، وعلى رأسه العقل الواعي المبصر، الذي يستطيع أن يدعو بالحكمة. هذا العقل الذي يمكنه من توظيف ما يقرؤه في خدمة الدعوة التي يؤمن بها، سواء أكانت قراءة في الدين، أم في الأدب، أم...، بل يمكنه من توظيف التاريخ، والواقع، والثقافة كلها، في سبيل الدعوة للإسلام[512].

وفي المضمار نفسه يسوق شيخنا القصة المخزية التي وقعت في المؤتمر المسيحي الإسلامي المنعقد في استراليا عام 1399هـ(في أواخر السبعينيات)، حيث دخلت امرأة في سمت عفريت قاعة المؤتمر؛ فقد كانت مغطاة من أعلاها إلى أدناها مستخفية الوجه واليدين تطل على الحاضرين من وراء ثقبين في نقاب الوجه عليهما غطاء من زجاج.. إنها سيدة نصرانية جاءت تحتج على ظلم الإسلام للمرأة –كما وصلها- فلبست اللباس الشرعي للمرأة المسلمة (!) لتري النساء في أستراليا ما يعده لهن إذا ما انتشر في بلادهم!!...

و"الغزالي" -كعادته- لا تفوته فرصة التعليق لإحقاق الحق وإبطال الباطل فيرد قائلا: "إن الحجاب الإسلامي يحفظ للمرأة شرفها، ويرد عنها عيون الذئاب.. وليس كما يتصور القاصرون أنهن في سمة عفريت.. لماذا تحترم الراهبات ولا تحترم المحجبات وزيهما واحد؟!"[513].يستوقفنا هذا التساؤل لنسأل بدورنا عن أسباب هذا الهوان الذي لحق بالمرأة المسلمة، ولا جدال بأن مرده: وجود ثغرات مشوهة ومشوشة على هذا الدين، فكان أن أحدثت "حساسية بالغة ضد كل ما يقترب من الإسلام أو يقترب من معالمه وشعائره.."[514]. وعلى هذا فنحن لا نوافق كل ما يقول بإلزامية النقاب ووجوبه، نظرا لآثاره التي تنعكس سلبا على فعالية وحيوية الإسلام.

وعلى ضوء ما تقدم نفهم من تلك الرؤية الغزالية هدفا يتجلى في: السعي الحثيث والحرص الدؤوب على رفع مستوى السلوك الإسلامي. ولعل من وراء هذا خدمة أفضل للدعوة الإسلامية.

إن الشيخ "الغزالي" من باب اعتزازه بدينه يحرص على مستقبل الإسلام كما يحرص على خدمة الدعوة الإسلامية التي تحتل الصدارة في فكره الأصيل المؤيد بمرجعية لا يأتيها البطل من بين أيديها ولا من خلفها، إنه يدعو المجتمعات الإسلامية إلى أن تحصن نفسها وتسد المنافذ والثغرات التي قد يتخذها أعداؤها ذريعة لإقامة الحجة عليها وتخويف الناس منها.

---

(512) يوسف القرضاوي, الشيخ الغزالي كما عرفته، ص 103.

(513) محمد الغزالي، الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية، ص 13-14.

(514) محمد الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، ص 119.

والرجل من منطلق وعيه التام بالقرآن الكريم ومقاصده السامية، والفقه الإسلامي ومصادره الرفيعة يرى أن "التفتح العقلي ضرورة ملحة لكل من يتحدث في الفقه الإسلامي"[515].

فيطرح البدائل الإسلامية أمام المرأة الغربية، ويسعى في الوقت نفسه لاسترجاع المكانة الأصلية للمرأة المسلمة. ويحاول جاهدا أن يرسم صورة بهية المنظر للإسلام، مذللا كل العوائق والحواجز أمام الراغبين في الدخول فيه. وهذا ليس من منطلق عاطفي اندفاعي، وإنما هو خلاصة تجربة عميقة بالدعوة، ودراية بطبيعة النفس الإنسانية، ويتجلى هذا مثلا في قوله: "إن للإسلام نظامه الاجتماعي الفطري السليم، وتقاليده الطبيعية السهلة ، ويستحيل أن يفهمه ويطبقه من يقاتل لإثبات أن وجه المرأة وصوتها عورة..."[516]. من هنا كان يعطي صورة مبسطة عن الحجاب الإسلامي للمرأة الغربية حتى لا تصدم بما ينفرها من الإسلام. وهو في ذلك يخضع الأمر لصفة المرونة المحققة للمراد فيقول: ".. لقد تأملت مرة بعد أخرى فيما يطلب من الأوربيات والأمريكيات لكي يسلمن! إنهن يعرفن جيدا ملابس الراهبات، هي بلا ريب ملابس سابغة، وإذا كلفن بصنع ملابس أقل كلفة منها، مع بقاء شعورهن دون حلق كما يفعل الراهبات، يكفي أن تغطى بأي ساتر فماذا في ذلك مما يضيق به الإسلام أو تكرهه النساء الطبيعيات؟؟ هذا هو الحجاب الإسلامي. ومن قال لامرأة سافرة

الوجه: غطي وجهك يا عاهرة! يجب دينا أن يقاد إلى مخفر الشرطة ليجلد ثمانين جلدة، وتهدر كرامته الأدبية فلا تقبل شهادته أبدا..."[517].

وليس بوسعنا إلا أن نعتبر تجاوز الرجل في تشديد العقوبة تجاوزا في محله، فمن من الفقهاء، والمحدثين حكم بضرورة النقاب لاعتناق المرأة الإسلام.. وعلى ذلك فكشف الوجه ليس محظورا –إستنادا إلى أدلة سيأتي ذكرها لاحقا- ولا يجوز بأي حال التعلل بحرمته للوصول إلى منع المرأة من مزاولة النشاطات والمعاملات اليومية. وعلى ضوء ما تقدم يكون الوجه مستثنى من عموم النهي عن إبداء مواضع الزينة.

والخلاصة أن الرجل في هذه المسألة "النقاب"يطلب للمرأة التزاما إسلاميا صحيحا، لا علاقة له بتبرج الغربيات، ولا بهوان الشرقيات المسلمات وإهدار آدميتهن... ولعلنا من باب الموضوعية، لا يحسن بنا أن نتجاوز الظروف التي غذت تلك المناوءات التي واجهت الشيخ، ثم بعد ذلك نحتاج إلى الإشارة إلى مسألة مهمة تمثل البنية العميقة للأفكار التي يصدر عنها أولئك الجهلة بالدين –كما يسميهم- والتي توجه بقوة لا شعورية فهمهم لقواعد الدين، إنها ليست مسألة عدم الفهم الجيد للدين،

---

(515) المصدرنفسه، ص 11.

(516) محمد الغزالي، المحاور الخمسة للقرآن الكريم، ص 107.

(517) محمد الغزالي، مستقبل الإسلام خارج أرضه، ص 56.

بقدر ما هي تحكم العادات والتقاليد الأولى التي لا يستطيع إنسان تلك المنطقة أو أخرى أن يتخلى عنها ببساطة. وفي ظل هذه التعقيدات الإجتماعية والنفسية عانى الشيخ –رحمه الله- في سبيل الوصول إلى منهج الفهم الصحيح للدين، وكيفية التعامل مع النصوص ومع القضايا الحرجة التي تخص المرأة مثل قضية النقاب.

*** أدلة النفي من خلال القرآن والسنة: (أدلة كشف الوجه)**

إن الشيخ "محمد الغزالي" حين يستجلي أطراف الموضوع يحتكم إلى رأيه المعروف الذي لا يكاد يخلو مؤلف منه؛ إذ يقول: "إنني في هذه القضية وفي غيرها –والقضية المقصودة هنا هي قضية النقاب- أرفض الأحاديث الموضوعة والواهية، ولا أحترم التقاليد التي تبنى عليها.. إن العرف السائد يحكم عليه ولا يحتكم إليه، والأساس المرعي هو كتاب الله وسنة رسوله.. وإنني أعوذ بالله أ أكون قد خرجت عليهما، إن المتواتر يحكمني والصحيح يلزمني.. أما المرويات الأخرى فلا اكتراث." [518].

انطلاقا من هذا الرأي، ومن الأدلة التي سنذكرها يتبين أن استدلاله على كشف الوجه يخرج عن الأدلة الثابتة والصحيحة، ويخضع لشواهد علمية لا لدوافع نفسية –كما يفعل البعض- .وحسبنا في ذلك الأدلة التي يثبت من خلالها عدم مشروعية النقاب في الإسلام، وهي أدلة مستقاة من القرآن الكريم والسنة النبوية وشواهد التاريخ الإسلامي. وقد أحصاها في أحد مؤلفاته كما يلي[519]:

1

1- إذا كانت الوجوه مغطاة فمم يغض المؤمنون أبصارهم؟ كما جاء في الآية الشريفة: ﴿**قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**﴾[520]. أيغضونها عن القفا والظهر؟.. الغض يكون عند مطالعة الوجوه بداهة، وبما رأى الرجل يستحسنه من المرأة فعليه ألا يعاود النظر عندئذ كما جاء في الحديث: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعلي -رضي الله عنه -: «يا علي لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة!»[521].

2- وقد رأى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من تستثار رغبته عند النظر المفاجئ، وعندئذ فالواجب على المتزوج أن يستغني بما عنده كما روى جابر عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «إذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله –أي ليذهب إلى زوجته-

---

([518]) محمد الغزالي، مائة سؤال عن الإسلام، ص 427.

([519]) محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص 37 ...41.

([520]) سورة النور: الآية 30.

([521]) رواه أبو داود, كتاب النكاح, باب "ما يؤمر به من غض البصر", رقم 2149,مج1 , ص598.

ورواه أحمد في مسنده, مج5, ص351 ــ353 ــ357.

ورواه الدارمي , كتاب الرقاق, باب "في حفظ السمع" ,ج2 ,ص298.*حديث حسن.

فإن ذلك يرد ما في نفسه»[522]. فإن لم تكن له زوجة فليع قوله تعالى: ﴿**وَلْيَسْتَعْفِفْ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾[523].

حكى القاضي عياض عن علماء عصره –كما روى الشوكاني- أن المرأة لا يلزمها ستر وجهها وهي تسير في الطريق، وعلى الرجال غض البصر كما أمرهم الله...

3- في أحد الأعياد خطب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ -للنساء- ومصلى العيد يجمع الرجال والنساء بأمر من رسول الله- فقال لهن: «تصدقن فإن أكثركن حطب جهنم» فقالت امرأة سفعات الخدين جالسة في وسط النساء: لم نحن كما وصفت؟ قال: «لأنكن تكثرن الشكاة وتكفرن العشير»[524]. يعني –عليه الصلاة والسلام- أن نساء كثيرات يجحدن حق الزوج، وينكرن ما يبذل في البيت ولا تسمع منهن إلا الشكاوى!..

قال الراوي: فجعلن يتصدقن من حليهن، يلقين في ثوب بلال من أقراطهن وخواتمهن...! والسؤال: من أين عرف الراوي أن المرأة سفعاء الخدين؟ والخد الأسفع هو الجامع بين الحمرة والسمرة –ما ذلك إلا لأنها مكشوفة الوجه.

وفي رواية أخرى: كنت أرى النساء وأيديهن تلقي الحلي في ثوب بلال.. فلا الوجه عورة ولا اليد عورة.

4- قال بعض الناس: إن الأمر بكشف الوجه في الحج، أو في الصلاة، يعطى أن الوجه يجب ستره فيما وراء ذلك، وأن على المرأة إرتداء النقاب والقفازين!.

ونقول: هل إذا أمر الله الحجاج بتعرية رؤوسهم في الإحرام كان ذلك يفيد أن الرؤوس تغطى وجوبا في غير الإحرام؟ من قال ذلك؟ من شاء غطى رأسه ومن شاء كشفه..

5- عن سهل بن سعد -رضي الله عنه ـ أن امرأة جاءت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت: يا رسول الله، جئت لأهب لك نفسي، فنظر إليها رسول الله فصعد

([522]) رواه البخاري, كتاب النكاح, باب "النظر إلى المرأة ,ج 6 ,ص 131.

ورواه أبو داود, كتاب النكاح, باب "ما يؤمر به من غض البصر", رقم 2151, مج 1, ص598.

ورواه الترمذي, كتاب الرضاع, باب "ما جاء في الرجل يرى المرأة تعجبه", رقم 1158, ج3, ص464.

*حديث صحيح.

([523]) سورة النور: الآية 33.

([524]) رواه مسلم, كتاب الصلاة, باب "صلاة العيدين, رقم 2045, مج 3, ج6, ص415.

ورواه البيهقي, كتاب صلاة العيدين, باب "يبدأ بالصلاة قبل الخطبة", ج3, ص296.

*حديث صحيح.

النظر إليها وصوبه ثم طأطأ رأسه –لم يجبها بشيء- فلما رأت أنه لم يقض فيها بشيء جلست..."[525].
وفي رواية أخرى: أن أحد الصحابة خطبها، ولم يكن معه مهر فقال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «التمس ولو خاتما من حديد»[526]. وانتهت القصة بزواجه منها، والسؤال: فيما صعد النظر وصوبه إن كانت منقبة؟.
6- عن ابن عباس: كان الفضل رديف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجاءت امرأة من خثعم –تسأله- فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه وجعل رسول الله يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر... فقالت يا رسول الله إن فريضة الله على عباده الحج، وقد أدركت أبي شيخا كبيرا لا يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: «نعم»[527].. وكان ذلك في حجة الوداع –أي لم يأت بعده حديث ناسخ-.

7- وحدثت عائشة قالت: كان نساء مؤمنات يشهدن مع النبي صلاة الفجر، متلفعات بمروطهن –مستورات الأجساد بما يشبه الملاءة- ثم ينقلبن إلى بيوتهن حين يقضين الصلاة، لا يعرفن من الغلس[528] –تعني أنه لولا غبش الفجر لعرفن لانكشاف وجوههن-.

([525]) رواه البخاري, كتاب الوكالة, باب "وكالة الإمرأة الإمام في النكاح",ج3, ص63.

ورواه النسائي, كتاب النكاح, باب "هبة المرأة نفسها لرجل بغير صداق", رقم3359, مج2, ص455.

ورواه ابن ماجه, كتاب النكاح, باب"التي وهبت نفسها للنبي ـــصلى الله عليه وسلم ـــ", رقم 2001 , مج2, ص491.

*حديث صحيح.

([526])رواه البخاري, كتاب النكاح, باب"عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح", ج6, ص129.

ورواه مسلم, كتاب النكاح, باب"الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حديد وغير ذلك من قليل وكثير.واستحباب

كونه خمسمائة درهم لمن لا يجحف به", رقم 3472, مج5, ج9, ص 215ــ216ــ217.

*حديث صحيح.

([527]) رواه البخاري, كتاب الحج, باب" الحج عمن لا يستطيع الثبوت على الراحلة", ج3, ص45.

ورواه النسائي, كتاب مناسك الحج, باب "حج المرأة عن الرجل", رقم2640ــ2641, مج2, ص242ــ243.

ورواه أبو داود, كتاب المناسك, باب" الرجل يحج عن غيره", رقم1809, مج1,ص508.

*حديث صحيح.

([528]) رواه البخاري,كتاب المواقيت,باب "وقت الفجر ", ج1, ص144.

رواه مسلم, كتاب المساجد, باب "استحباب التكبير بالصبح في أول وقتها, وهو التغليس.وبيان قدر القراءة فيها",رقم1455ــ1456ــ1457,مج3,ج5,ص145ــ146.

*حديث صحيح.

8- على أن قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾[529] يحتاج إلى تأمل، إذ لو كان المراد إسدال الخمار على الوجه لقال: ليضربن بخمرهن على وجوههن، ما دامت تغطية الوجه هي شعار المجتمع الإسلامي، وما دامت للنقاب هذه المنزلة الهائلة التي تنسب إليه... وعند التطبيق العملي لهذا الفهم اضطرت النساء لاصطناع البراقع أو حجب أخرى على النصف الأدنى للوجه كي يستطعن السير، فإن إسدال الخمار من فوق يعشى العيون، ويعسر الرؤية.. ومن ثم فنحن نرى الآية لا نص فيها على تغطية الوجوه!.

ولا شك أن بعض النساء في الجاهلية ، وعلى عهد الإسلام كن يغطين أحيانا وجوههن مع بقاء العيون دون غطاء، وهذا العمل كان من العادات لا من العبادات، فلا عبادة إلا بنص.

9- ويدل على ما ذكرنا: أن امرأة جاءت إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقال لها "أم خلاد" وهي متنقبة تسأل عن ابنها الذي قتل في إحدى الغزوات فقال لها بعض أصحاب النبي: جئت تسألين عن ابنك وأنت متنقبة؟ فقالت المرأة الصالحة: إن أرزأ ابني فلم أرزأ حياتي..!!.

واستغراب الأصحاب لتنقب المرأة دليل على أن النقاب لم يكن عبادة!

10- قد يقال: إن ما روي عن عائشة يؤكد أن النقاب تقليد إسلامي، فقد قالت: «كان الركبان يمرون بنا ونحن محرمات، فإذا جازوا بنا سدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها، فإذا جاوزونا كشفناه»[530]. ونجيب بأن هذا الحديث ضعيف من ناحية السند, شاذ من ناحية المتن، فلا احتجاج به.. والغريب أن هذا الحديث المردود يروج له دعاة النقاب مع أنهم يردون حديثا خيرا منه حالا وهو حديث عائشة أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها وقال: «يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا وأشار إلى وجهه وكفيه»[531].

ونحن نعرف أن الحديث مرسل، ولكن الحديث قوته روايات أخرى وهو أقوى من الحديث الذي سبقه.

---

(529) سورة النور: الآية 31.

(530) رواه أبو داود, كتاب المناسك, باب"في المحرمة تغطي وجهها", رقم1833, ص144ـــ145.

ورواه ابن ماجه, كتاب المناسك, باب" المحرمة تسدل الثوب على وجهها", رقم2935, مج3,ص429.

ورواه أحمد في مسنده, ج6, ص30.

*حديث

(531) الحديث سبق تخريجه, ص173.

11- وأدل على ذلك السفور المباح: ما رواه لنا مسلم أن سبيعة بنت الحارث ترملت من زوجها وكانت حاملا، فما لبثت أياما حتى وضعت، فأصلحت نفسها، وتجملت للخطاب! فدخل عليها أبو السنابل أحد الصحابة- وقال لها: ما لي أراك متجملة؟ لعلك تريدين الزواج، إنك والله ما تتزوجين إلا بعد أربعة أشهر وعشرة أيام..
قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعت علي ثيابي حين أمسيت فأتيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وسألته عن ذلك فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي! وأمرني بالتزوج إن بدا لي...
كانت المرأة مكحولة العين مخضوبة الكف، وأبو السنابل ليس من محارمها الذين يطلعون بحكم القرابة على زينتها، والملابسات كلها تشير إلى بيئة يشيع فيها السفور! (أي كشف الوجه واليدين). وقد وقع ذلك بعد حجة الوداع، فلا مكان لنسخ حكم أو إلغاء تشريع..
هكذا يمكن القول بأن الأدلة التي بلورها الشيخ في إثبات مشروعية كشف الوجه –وكذا اليدين- لا تقبع عند حدود النقل والإستئناس فحسب,وإنما تخضع للفحص الذي قد يؤهلها أولا لأن تكون دليلا، ولعله يتبع في ذلك الخطوات المرحلية الآتية:
- إيراد النص (آية أو حديث)
- التعرف على أوجه الدلالة فيه
- ثم الإجابة عن الإعتراض إن وجد
دون إغفال منه –في كل ذلك- لما توطأ عليه جمهور الفقهاء وعلماء الأمة. إذ لم يعهد عنه أي شذوذ على رأيها، أو شرود عن نهجها.

*ثانيا: حرمة كشف اليد

إن بعض الناس يبالغ في إطلاق الأحكام الخاصة بالتحريم، وإصدار الفتاوى المتعسفة، لا سيما تلك التي تضيق على النساء المؤمنات، وتزيد من حجم القيود المفتعلة عليهن، والتي تضاعف من العراقيل التي تعيق انتشار الإسلام وسيرورته. ولقد أتعب "الغزالي" أناس على شاكلة هؤلاء الذين يرى فيهم الرغبة المجنونة –كما يسميها- في الحكم بالتحريم على أي شيء، ومن شدة ضيقه بهم يرى أنهم: "... لو استطاعوا تحريم الهواء لأصدروا بذلك فتوى، ولو ماتوا مع الناس مختنقين!" [(532)]. فالإشكال هنا يكمن في ضيق زاوية الرؤية، وتعطيل العقل في فهم النصوص ضمن سياقاتها التاريخية، وعدم البت في القضايا بهذه الكيفيات البسيطة. وفي استئناف

للرأي السالف الذكر نلمس غيرته على هذا الدين، وخوفه من وقوع الحقائق الإسلامية في قفص الإتهام، إذ يقول: "وهم يتصورون الإسلام رسالة تسكن من العالم الرحب حارة ضيقة لها تقاليدها ولها مراسمها، فما يصلها بالعالم ممنوع مهما كانت طبيعته، والمهم بقاء الحارة منطوية على أصحابها وحسب.." [(533)]. ولا أدل على هذا التصور من تحريم كشف اليدين.

([532])محمد الغزالي، الحق المر، ج5، ص 39.

(1) محمد الغزالي, الحق المر, ج5, ص39.

إن أصحاب هذا التوجه إنما يسيئون إلى الإسلام من حيث ينشدون خدمته ونصرته؛ إذ يذهبون إلى جملة من المرويات الشاذة أو المنكرة ليحكموا بعورة وجه المرأة ويديها. وليتهم وقفوا عند قولهم بفرضية النقاب ولم يلزموها بتخبئة يديها داخل القفاز.

لقد رد الشيخ الرأي الذي يزعم أن اليدين عورة وهو بذلك يحتاط للمرأة مما يمكن أن يلحقه بها هذا الرأي وغيره من ضرر وتضييق وهضم للحقوق... ويمكن القول بأن الرؤية التي يدافع عنها "الغزالي" في هذه المسألة –وفي غيرها- تستجيب لمقصد أسمى ألا وهو تحقيق مصالح الدعوة الإسلامية.

ويظهر جليا أن الرجل يتناول المسألة من زاوية أبعد أثرا، حين يرى أن التطرف يولد التطرف. فهؤلاء المتنطعين عندما يقولون بفرضية النقاب ووجوبه فسوف تتبرج النساء وتسقط الخُمُر عن الرؤوس، وعندما يصدرون فتوى تحرم كشف الأيدي وتوجب تخبئتها داخل قفاز فإنه سوف تتعدى السواعد والأيدي حتما، فمن ثم كان الغلو يستتبع الغلو، والنتيجة الحتمية أن الكل يكذب على الإسلام، والإسلام برئ ومظلوم بكذبهم وادعائهم عليه ما ليس منه[534].

إن أصحاب هذا "الفكر العقيم" يستحيل أن يكونوا دعاة لدين عالمي، يفتح صدره لكل عصر ومصر، ويتجاوب مع ملابساته وظروفه، ويساير فطرة الله في الأنفس فيتفاهم مع كل الأجناس... وإنهم قد يصلحون –في تقدير "الغزالي"- بوابين على خرابة[535].

وقريب من رأيه هذا ما أكده "البوطي" من أن هذا "الفكر المتطرف" يجر التخلف فعلا، إذ أنه مجانف لميزان الشرع وحكمه. ومن الظلم الشنيع تحميل الإسلام جريرته ونتائجه...[536]

وفي هذا الشأن يذكر الشيخ "الغزالي" موقفا تعرض له مع أحد المنتسبين إلى هذا الفكر، فيقول: "رأيت أحدهم ينظر إلى الشارع مكفهر الوجه، فقلت له مازحا: ما أغضبك؟ فقال: رؤوس الرجال عارية وكذلك وجوه النساء وأيديهن، والواجب تغطية هذا كله، قفاز في يد المرأة، ونقاب على وجهها، وقلنسوة أو عمامة على رأس الرجل، وبذلك يصير المجتمع إسلاميا، واسترسل يقول: إنه في الإحرام بالحج والعمرة لا غطاء على الرأس، ولا نقاب على الوجه، ولا قفاز في اليد، فإذا انتهت المناسك تغيرت الأوضاع..

ولم أر أن أجادل هذا المسكين، وحسبته يعبر عن فكر عامي؛ يلتزمه بعض المتطرفين، يحسبونه دينا وما هو بدين، حتى قرأت لعالم كبير فتوى بأن ستر اليد داخل قفاز من تمام الحجاب!..." [537]. ويسترسل قائلا: "وبذلك زاد قيدا آخر على حراك المرأة وعلى دائرة المباح الذي كفله الشارع لها.. وراجعت معلوماتي من

([534]) محمد الغزالي، الطريق من هنا، ص 85.

([535]) محمد الغزالي، الحق المر، ج5، ص 39.

([536]) محمد سعيد رمضان البوطي، المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني، ص 164.

([537])و(2) محمد الغزالي، الحق المر، ج5، ص 39.

كتاب الله وسنة رسوله؛ فوجدت الكلام رأيا خاصا لصاحبه، ولا يجوز أن يسمى دينا ولا شبه دين!!" [538].

ولعل التفسير الصائب الذي يجب اعتماده في هذا المقام، هو التفسير الذي ينبني على تعطيل العقل وتحجيم سفاسف الأمور؛ إذ كيف يقاس إسلام المجتمع بمقدار تشدد أفراده. ويبدو غيظ الشيخ واضحا جليا من خلال هذا الموقف وما جرى فيه مع واحد من الذين يمتلكون تصورا قاصرا عن الدين، بيد أن ما ينبغي التأكيد عليه أن تفكير "الغزالي" في هذه المسألة –وفي غيرها- يأبى تعطيل النصوص الصحيحة الصريحة الواردة في الكتاب والسنة، فيقف موقف المدافع عن المرأة باسم الدين والمنتصر –كعادته في كل مرة- لأدلة وحجج القرآن الكريم والسنة المطهرة, المنصفين للمرأة والرجل على السواء.

إن تكليف النساء بلبس القفازين واعتبار ذلك من الدين فيه كثير من المشقة والعنت لهن، فضلا عن كونها تحول دون فعاليتهن وتزيد القيود على حراكهن وأداء وظيفتهن.

هذا بالإضافة إلى تقديم المرأة بهذه الهيئة وهذا الشكل نموذجا منفرا غير مرغوب فيه –بالنسبة لغير المسلمين-، والغزالي يعتقد أن "لو كلفنا النساء المسلمات بلبس القفازين لعجز أكثر من نصفهن عن ذلك ووجدن في لبسهن العتب..."[539]. ولعله بهذا الاعتقاد يتشوق إلى استمرارية هذا الدين، وسيرورة أحكامه على أرض الواقع.

وجدير بالذكر أن نقول أن الشيخ "الغزالي" –رحمه الله- لا يطيل الكلام في هذه المسألة بالذات –مسألة لبس القفازين- إنه يرى في الخوض فيها ثرثرة ومبالغة في التضييق، معتمدا في ذلك كله على قانون سنه لنفسه في صياغة الأحكام وإطلاقها، أو في الحكم على الأمور كيفما كانت منبها فيه أن: "تقاليد المسلمين التي تستحق الاحترام والحفاظ ما اعتمد على المعروف المستيقن من الكتاب والسنة، أما الشائعات الرائجة بين الأغمار فلا وزن لها"[540].

***أدلة النفي من خلال القرآن والسنة:**

لقد ثبت من خلال الوحي المعصوم أن اليدين من المرأة ليسا بعورة يحرم كشفها، ومن ذلك –ما سبق ذكره- قوله تعالى: ﴿**...وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا... وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ...**﴾[541].

ففي الآية نص على إباحة كشف الوجه واليدين، وما عدا ذلك لا يجوز أصلا وهذا الاستثناء جاء استنادا على ما ورد في السنة الشريفة من أحاديث مفسرة للآية السابقة الذكر " دخلت أسماء بنت أبي بكر على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعليها

([539]) المصدر نفسه، ص 41.

([540]) محمد الغزالي، علل وأدوية، ص 100.

([541]) سورة النور: الآية 31.

ثياب رقاق فأعرض عنها –مستنكرا- وقال: «يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا وأشار إلى وجهه وكفيه»[(542)].

بالإضافة إلى ما ثبت في مشروعية رؤية الدين، ما ثبت عن "ابن عباس", ونقله الشيخ "الغزالي": "حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد بسنده عن ابن عباس يذكر « أنه شهد العيد مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وأنه عليه السلام خطب بعد أن صلى، ثم أتى النساء فوعظهن وذكرهن وأمرهن أن يتصدقن، فرأيتهن يهوين بأيديهن يقذفنه في ثوب بلال –أي المال»[(543)].

فهذا ابن عباس في حضرة رسول الله رأى أيديهن، فصح أن اليد من المرأة والوجه ليسا عورة وما عداها ففرض عليها ستره"[(544)].

إن الشيخ "الغزالي" لا يطلق حكما إلا ويدعمه بأدلة قاطعة في الثبوت والصحة، وفي هذه المسألة –كغيرها- يستجمع كل ما ورد فيها من أحاديث تنفي فتاوى باطلة متعسفة ومجحفة ما كانت عليها المرأة في عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكل ذلك ليثبت حقائق شريعتنا السمحة. "فقد كانت المرأة تلقى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وفي أصابعها خاتمها؛ فما ينكر ذلك عليها، وإنما يتساءل فقط، هل أخرجت ما عليه من زكاة؟. فما معنى زيادة القيود المفتعلة على المرأة وإيهام المؤمنات بأن اليد عورة يجب سترها؟، هل المقصود زيادة العقبات أمام انتشار الإسلام؟، أم المقصود جعل المؤمنات يكرهن الإسلام ويضقن به؟"[(545)].

ولعل الداعي من وراء هذا الإلحاح في التساؤل من شيخنا هو السعي المكثف لرفع الشبهة عن هذا الدين، ونصره حقائقه وإنصافها.

ومن الأدلة أيضا: ما رواه أبو داود وغيره عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، "أن امرأة أتت النبي –صلى الله عليه وسلم ـ، ومعها ابنتها، وفي يد ابنتها اسورتان غليظتان من الذهب، فقال لها: «أتعطين زكاة هذا؟» قالت: لا! قال:« أيسرك أن يسورك الله بهما يوم القيامة سوارين من نار؟» فخلعتهما فألقتهما إلى النبي وقالت: هما لله ورسوله"[(546)].

يضيف الشيخ شرحا للحديث وتعليقا عليه فيقول: "وفي رواية ثوبان، في قصة هند بنت هبيرة أنه كانت في يدها خواتيم ضخام، فجعل رسول الله –صلى الله عليه وسلم ـ

([542]) الحديث سبق تخريجه, ص 173.

([543]) الحديث سبق تخريجه, ص159.

([544]) محمد الغزالي، من هنا نعلم، ص 160.

([545]) محمد الغزالي، الحق المر، ج5، ص 39-40.

([546]) رواه النسائي, كتاب الزينة, باب"الكراهية للنساء في إظهار الحلي والذهب", رقم5155, مج3, ص375.

ورواه أحمد في مسنده, مج2, ص178ـــ204ـــ208ـــ440.

*حديث صحيح.

يضرب يدها... وتمام القصة يشير إلى رفض رسول الله هذا المظهر الدال على الخيلاء والاستعلاء، ولم يشر من قريب أو بعيد إلى أن اليد عورة"[547].

على أن "الغزالي" يعطي تفسيرا آخر لفعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا، مبينا أن ذلك إنما وقع لعدم إخراج الزكواة على هذه الحلي، فلو أخرجتها ما غضب منهن، وهذا بالطبع أخذا منه برأي علماء الدين، ودليلهم في ذلك: ما رواه جابر بن عبد الله قال:" شهدت العيد مع رسول الله عليه الصلاة والسلام، فبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة ثم قام متوكئا على بلال، فأمر بتقوى الله، وحث على طاعته، ووعظ الناس وذكرهم، ثم مضى حتى أتى النساء فوعظهن وذكرهن، فقال: تصدقن فإن أكثركن حطب جهنم!، فقامت امرأة من وسط النساء سفعاء الخدين فقالت: لم يا رسول الله؟، قال: لأنكن تكثرن الشكاة، وتكفرن العشير. قال جابر: فجعلن يتصدقن من حليهن، يلقين في ثوب بلال من أقرطتهن وخواتيمهن"[548].

وظاهر من الحديث بأن الوجه ليس بعورة؛ إذ وصفه الراوي دون حرج، كما أن اليد ليست عورة، لما في رواية البخاري: "كنت أرى أيدي النساء تهوى بحليهن في حجر بلال"[549].

ومما ترجح عند الشيخ "الغزالي"، دليلا يعتبر سيد الأدلة، لأنه يعكس الحقيقة والصواب. يقول فيه أن "رسولنا بعث بالحنيفية السمحة، وقد أنذر بالويل من يأتون من عند أنفسهم بالمشكلات والمتاعب فقال: هلك المتنطعون..."[550].

([547]) محمد الغزالي، الحق المر، ج5، ص 40.

([548]) الحديث سبق تخريجه, ص 159.

([549]) رواية البخاري, كتاب العيدين, باب" المشي والركوب إلى العيد قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة", ج2, ص 5.

([550]) محمد الغزالي، الحق المر، ج5، ص 41.

المبحث الثالث: قضية العمل

المطلب الأول: الثابت والمتغير في قضية عمل المرأة من منظور الشيخ "الغزالي".

أولا: دور المرأة داخل بيتها وفي أسرتها (الثابت).

لقد ظل الشيخ "محمد الغزالي"، يدعو إلى ضرورة إشراك المرأة في بناء المجتمع وحمايته وإيجاد مساحة مناسبة لجهودها وعدم تعطيل طاقاتها. كما دافع عنها ضد أولئك الذين يضنون عليها بشتى الحقوق الطبيعية باسم الإسلام؛ بيد أنه يقف موقفا حازما عندما يتعلق الأمر بوظيفتها العضوية التي خلقت لأجلها وكلفت بها.

والمتتبع لفكره في هذه القضية يظهر له أن موقفه بخصوص الوظيفة الأولى (في سلم الأولويات) والمثلى للمرأة ثابت لا يخضع لمتغيرات الزمان أو المكان... إذ هي الأصل وما عداها فهو ثانوي، والأمر سيان في مؤلفاته المبكرة والمتوسطة والمتأخرة.

وكان الرجل كثير التأكيد على أن "الإسلام سوى بين الجنسين في أعمال البر كلها، فأرجحهما عند الله ميزانا أخلصهما نية، وأكثرهما سعيا...!! إلا أن العمل الأول للمرأة، حسن تبعُّل الزوج، أو بتعبير العصر الحاضر حسن القيام على شؤون البيت، وأحوال الأسرة، ورعاية الرجل والأولاد... وإجادة المرأة لهذا الواجب يغنيها عن سائر الواجبات العامة من اجتماعية وسياسية. إن الجهد المبذول في هذه الأنحاء ثانوي بالنسبة إلى الوظيفة الأولى للمرأة، وهي الإشراف على الأحوال الداخلية للأمة..."[551].

من هنا تتحدد الرؤيا المركزية لهذه المسألة؛ فالرجل تمثل فقه الأولويات، وتقسيم المهام، ليؤكد على خطورة وظيفة المرأة؛ فهي التي تهيئ الأساس القاعدي للبيت. فإعطاء العناية الكافية للشؤون الداخلية هو الجوهر، وهو الذي يفيض خيره العميم إلى الخارج – ثم بعد ذلك تتحدد وظائفها الأخرى بناء على احتياجات الأمة.

وفي مقابل رأي الشيخ "الغزالي" الملح على تفهم مسؤولية ربة البيت بكل جوانبها وتفاصيلها، نقف عند وجهة نظر "ابن نبي" تجاه المسؤولية ذاتها، إذ يعتقد أن المرأة تتمتع بكثير من الحقوق، مقابل بعض الواجبات، بدليل أن "الفقه الإسلامي لم يفرض عليها إلا واجب الزوجية، أما الواجبات المنزلية، كالغسيل والطبخ فإنها ليست مطلوبة منها، وحتى الرضاعة ليست فرض عليها، بل على الزوج أن يأتي بمرضعة لولده"[552]. إن هذه الوجهة تعد المسؤولية أحادية الجانب حين تقصرها على واجب الزوجية فقط، وهو رأي –في حدود رأيي- تعوزه الدقة والتركيز، بل والواقعية

([551]) محمد الغزالي، الإسلام والطاقات المعطلة، ص 103-104.

([552]) مالك بن نبي، في مهب المعركة– إرهاصات الثورة–، ص 99.

أيضا؛ إذ يعد مناقضا للفطرة بعكس رأي "الغزالي" الأقرب إلى تحقيق الفطرة، وإن عد تقليد المذهب "ابن حزم الظاهري" في الفقه الإسلامي.

ولا يقف دور المرأة في فكر الشيخ "الغزالي" عند حدود الزوجية، وتحمل لمسؤوليات والأعباء الناجمة عنها فحسب، بل يتعداه إلى أبعد من ذلك، ولهذا السبب نجده يقول مؤكدا: "إن البيت هو المستقبل الطبيعي

للمرأة، والمجال المهيأ لها كي تنشئ الحياة وتعد الأجيال. وعمل المرأة فيه بعيد المدى، فإن أنوثتها هي وحدها التي تشيع فيه السكينة والرضا، وهذا الجو الصافي هو الذي يستعمل فيه الطفل نماءه النفسي والبدني"[553]. وقريب من رأيه هذا ما يذهب إليه "العقاد" إذ يقول أن: "المجال الطبيعي للمرأة هو بيتها، تحقق فيه إرادتها..."[554].

من هنا ندرك مدى ارتباط هذا الدور وانسجامه مع الطبيعة الأنثوية وخصائصها. وللشيخ قناعاته الراسخة في أن الإسلام يجعل وظيفة المرأة أغلبها في البيت، وأقلها في ميدان الحياة الصاخبة... مبينا أنه بهذا الإجراء إنما يقصد صرفها إلى غاية خلقها أنثى، وما يتناسب وخصائصها العتيدة، من أمومة ومقتضياتها بما في ذلك رعايتها لجانب خطير في المجتمع الإنساني، وهو الجانب الذي لا يصلح له غيرها[555].

إن الإسلام أثناء توزيعه الأعباء والمسؤوليات يتعامل بعبقرية فذة، كونه النظام الوحيد الذي أعطى كلا الجنسين نصيبه دون تعسف. هذه إذن هي فلسفة المقسط التي أرسى دعائمها الدين الحنيف، واتبعها شيخنا في دعوته. ويدعم هذا الرأي "يوسف القرضاوي"، فهو يقرر أن: "طبيعة الإسلام هي التوازن المقسط، في كل ما يشرعه ويدعو إليه من أحكام وآداب، فهو لا يعطي شيئا ليحرم آخر، ولا يضخم ناحية على حساب أخرى، ولا يسرف في إعطاء الحقوق، ولا في طلب الواجبات (...) إنه يعتبر البيت مملكة المرأة العظيمة، هي ربته ومديرته وقطب رحاه... وهو يعد عمل المرأة في تدبير البيت، ورعاية شؤون الزوج، وحسن تربية الأولاد، عبادة وجهادا"[556].

ومن المعروف عن الشيخ "الغزالي" أنه لم يهش يوما لتوظيف المرأة وحشرها – حسب قوله- في كل عمل، أو تسويتها بالرجل في كل ميدان. بل المستيقن من فكره أنه يعتقد أن "وظيفة ربة البيت هي أليق شيء لها"[557]، بيد أن صيغة المبالغة (أليق) تتضمن الأولوية؛ أولوية عمل المرأة داخل بيتها، ويبدو أن الشيخ صاغ هذه المقولة

([553]) محمد الغزالي، حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، دار المعرفة (الجزائر), ط(2001), ص 98.

([554]) أحمد ماهر البقري، العقاد؛ الرجل والقلم، ص 265.

([555]) محمد الغزالي، هذا ديننا، ص 56.

([556]) يوسف القرضاوي، مركز المرأة في الحياة الإسلامية، ص 134-135.

([557]) محمد الغزالي، معركة المصحف في العالم الإسلامي، ص 266.

في فترة مبكرة من حياته، حيث كانت كتاباته الأولى متحفظة على مشاركة المرأة في المجتمع. ولعله بهذا الفقه يتطلع إلى استدامة الروابط الأسرية وعدم الإخلال بها.

وهو يقرر في مكان آخر أن "الوظيفة العتيدة للمرأة أن تكون ربة بيت. واحترافها في الحياة يجب أن يكون عملا موقوتا ما بقيت ظروفه الملجئة ثم تنصرف بعده بأكثر وقتها وفكرها وجهدها إلى رجلها وأولادها (...)

والإسلام يوزع اختصاصات العمل على الأحياء فيجعل حصن المرأة بيتها..."[558].

ويفهم من كلام الرجل أنه يريد أن يضبط أكثر مسؤوليات المرأة داخل البيت ودورها فيه.

إن سذاجة عقول بعض الناس يدفعهم إلى تهوين واحتقار وظيفة ربة البيت، والتقليل من شأنها، وحقيقة الأمر أن لكل إنسان في هذه الحياة دور مهم ورسالة مقدسة مكلف بها دون غيره، فهناك أمور منوطة بالرجال وحدهم وأخرى منوطة بالنساء وحدهن. ولا تداخل بين الأمرين إلا ما اقتضته ضرورة أو كان أحد الجنسين أصلح له، أو أقدر عليه.

ولعل مما أسهم في النظرة الدونية لعمل المرأة بالبيت، عدم تعلق هذا الأخير بالجانب المادي، وفي ظل هذا النظام يحكم على المرأة الماكثة بالبيت بأنها عاطلة عن العمل، وغير منتجة؛ مع أن رسول الله ـصلى الله عليه وسلم ـ يقول: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، والأمير راع، والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، فكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته»[559]. فلا يمكن تنظيم أسرة من غير ربة بيت راعية.

وهذه أسماء بنت يزيد بن السَّكَن –رضي الله عنها- أتت النبي ـصلى الله عليه وسلم ـ وهو في أصحابه فقالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أنا وافدة النساء إليك، إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة، فآمنا بك وبإلهك، وإنا –معشر النساء- محصورات مقصورات قواعد بيوتكم، مقضى شهواتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم – معشر الرجال- فضلتم علينا في الجُمع والجماعات، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والحج، وأفضل من ذلك، الجهاد في سبيل الله عز وجل، وإن الرجل منكم إذا خرج حاجا أو مجاهدا حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا أثوابكم، وربينا لكم أولادكم، أفلا نشارككم في هذا الأجر؟

([558]) محمد الغزالي، ظلام من الغرب، ص 180.

([559]) رواه البخاري, كتاب الجمعة, باب "الجمعة في القرى والمدن", ج1, ص215.

ورواه مسلم, كتاب الإمارة, باب "فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر, والحث على الرفق بالرعية, والنهي عن إدخال المشقة عليهم",رقم 4701, ج12, ص417.

*حديث صحيح.

فالتفت النبي ـصلى الله عليه وسلم ـ إلى أصحابه بوجهه كله، ثم قال: هل سمعتم بمقالة امرأة قط أحسن من مسائلها في أمر دينها في هذه؟ فقالوا: يا رسول الله؛ ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا. فالتفت النبي ـصلى الله عليه وسلم ـ إليها فقال: «افهمي أيتها المرأة واعلمي من خلفك من النساء أن حسن تبعل المرأة لزوجها، وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته يعدل ذلك كله»[560]. فانصرفت وهي تهلل وكل ما نفهمه مـن قـول

الرسول ـصلى الله عليه وسلم ـ في "حسن تبعل المرأة لزوجها" أن هذا التبعل مسؤولية مقدسة، ويعتبر الواجب الأول للمرأة المسلمة الذي لا يضاهيه واجب غيره. لذلك قيل "لا يزاحم مباح المرأة واجبها"[561] على اعتبار أن العمل في حق المرأة مباح، لا يرقى إلى مستوى الواجب الذي هو عملها داخل بيتها وفي أسرتها. وبهذا يتبلور الموقف الإنساني للمرأة الذي "يرقى في الإسلام إلى مستوى الحقوق الدستورية في لغتنا الوضعية المعاصرة، ومن ثم فإذا ما أدت هذا الواجب تكون قد قدمت أرقى ما يوصف من الواجبات العامة، واستحقت بالتالي أعظم الحقوق الأساسية، وهذا يعني أن على الرجل المسلم أن يعي، ويفهم أن هذا التبعل لا يعني فقط واجبا ملقى على المرأة، بل هو مركز قانوني يتناغم فيه الواجب مع أعظم حق يقع على عاتق الرجل وزانا لمنظومة الحق والواجب وعدم الإخلال بعنصر على حساب الآخر"[562].

وبناء على هذا الكلام فإنه يتعين على الرجل إدراك الدور الفعال للمرأة، وألا يتساهل في التفريط في دوره بكل ما تتضمنه قوامته على المرأة من معاني الرعاية والحماية وتأمين ضروريات الحياة.

ولا شك أن أعباء ومسؤوليات المرأة داخل البيت تكافئ أعمال الرجال ومتاعبهم خارجه، من هنا كان البيت شبيها بمؤسسة تربوية أو شركة اقتصادية يسيرها مسؤولان (الزوجان) ويترأسها الرجل أو الزوج الذي توكل إليه مسؤولية قوامة البيت، والنفقة على أفراده، وقد وجهت الشريعة كلا الجنسين إلى ما يليق به ويناسبه، وبالتالي ما يتفوق فيه[563].

([560]) ابن عساكر, تهذيب تاريخ دمشق الكبير, دار إحياء التراث العربي (بيروت), ط3 (1407هـ - 1987م) ج2, ص338.

(قال ابن منده رواه أبو حاتم الرازي عن العباس بن الوليد بن يزيد, وفرق ابن منده بين أسماء هذه وبين أسماء بنت يزيد بن السكن. وهو حديث غريب لم نكتبه إلا من حديث العباس وقد روى حبان بن علي الغنوي عن رشد بن كريب عن أبيه عن ابن عباس مرفوعا شيئا من هذا) .

([561]) عبد الكريم زيدان، المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم في الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة (بيروت)، ط2(1415هـ-1994م)، ص 266.

([562]) برهان زريق، المرأة في الإسلام –قراءة معاصرة–، ص 427.

([563]) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص 109-147.

نقف هنا بصدد حقيقة مؤداها أن الإسلام حينما أعطى للرجل حق القوامة وأوجب عليه نفقة البيت، إنما كان بهذا الإجراء يعطي للمرأة قيمتها ومكانتها في مقابل تفرغها لحسن تبعله، وتربية أولاده وتنشئتهم، واهتمامها الكامل لأداء رسالتها الأولى في الحياة. ولكن قصور النظر، وغلبة الطابع المادي على حياة المسلمين، وانسياقهم وراء الأنماط المعيشية الغربية المعاصرة، وخلق التبريرات العديدة باسم تغير طبيعة الحياة، نجدهم يهمشون وظيفة ربة البيت. ولعل هذا ما دفع الشيخ "الغزالي" للقول: "إن وظيفة "ربة بيت" من أشرف الوظائف في الوجود، وما يحسنها إلا من استكمل لها أزكى الأخلاق وأنقى الأفكار. أليست هي حضانة الأجيال الجديدة وشق الطريق أمامها حتى تنبت نباتا حسنا؟"[564].

وعلى ضوء هذه الحقيقة، فإن منصب "ربة بيت" يحتاج إلى مؤهلات وقدرات عقلية ونفسية وعلمية رفيعة، لإدارة وتسيير شؤونه، ومعرفة أحواله ومقتضياته.

إن الشيخ "الغزالي"، من واقع نظرته لوظيفة "ربة بيت"، يعيب على كل من يتصور أن المرأة في البيت إنسان قاعد لا شغل له قصوره العقلي ويعتبره جهلا شنيعا بمعنى الأسرة، وهو –في نظره- ضرب في السلوك الحيواني عرفته الأمم إبان انهيار حضارتها وسقوط مستواها العام[565].

والرجل في تأكيده على الدور الأساسي والرسالي المنوط بالمرأة يسعى إلى رد الاعتبار الحق للوظيفة الأصلية "إدارة البيت ومسؤولية الزوج والأولاد" للمرأة المسلمة.

إن براعة الشيخ "الغزالي" في الموازنة والترجيح والاستدلال العقلي والمنطقي تضفي على آرائه واعتقاداته وقناعاته قوة وصلابة أكثر، وقابلية للانتشار والتقبل من شتى الأطراف؛ فبقدر ما عني –رحمه الله- بتصحيح الرؤية لوظيفة "ربة بيت"، وقف على الموازنة بينها وبين الوظائف العامة للمرأة والتي تعد الدور الثانوي بالنسبة لها. ورأى أنه "من الصعب أن تكون المرأة ربة بيت متقنة، وصاحبة منصب منتجة..."[566] في آن واحد، إن ذلك –في نظرنا- لا يقع إلا نادرا، فالتقصير حاصل لا محالة في أحد الوظيفتين، فضلا على أن عملها خارج بيتها –في حال كونها زوجة وأم- ستنعكس آثاره على داخله وفقا لاعتبارات نفسية أكثر أهمها[567]:

1- أن أنفاس الأم عميقة الآثار في إنضاج الفضائل وحماية النشء.

2- أن ربة البيت روح ينفث الهناءة والمودة في جنباته ويعين على تكوين إنسان سوي طيب.

وهذه الاعتبارات في الحقيقة، إنما تنم عن تقديس الشيخ وتقديره لوظيفة المرأة الأساسية في الحياة. ومن الطبيعي أن يكون إدراكه لهذه الآثار الإيجابية ناجم عن

([564]) محمد الغزالي، ركائز الإيمان بين العقل والقلب، ص 290.

([565]) المصدر السابق، ص 290.

([566]) محمد الغزالي، مائة سؤال عن الإسلام، ص 420.

([567]) محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص 44-45.

نضجه الفكري والمعرفي. ونلمس ذلك في تأكيده على قيمة الغذاء الروحي الذي تقدمه الأم لأولادها ودوره الفعال في تربية أجسامهم وتنميتها. إذ يقول: "لقد أثبتت التجارب العلمية التي أجريت لاختيار نمو الأطفال الذين ينشأون في الملاجئ أو دور الحضانة، والأطفال الذين يتربون بين آبائهم وأمهاتهم أنه بعد تجاوز السنة الأولى من أعمارهم يكون نمو الطفل بين أبويه أوضح وأكثر لأنه يحتاج بعد السنة الأولى إلى غذاء من العواطف كما يحتاج إلى غذاء من المادة. بل ثبت أن غذاء العاطفة ينميه ولو لم تكن الرعاية الصحية كاملة من كل الوجوه أما النمو النفسي والعقلي والتهذيبي والسيطرة على الغرائز فإنه يكون كاملا في الطفل بين أبويه، بينما يكون دون ذلك بكثير في الملجأ أو دار الحضانة"[568].

وإذا كان "الغزالي" يعتقد بأن الأسرة هي حصن الدين وسياجه المتين, فإن المرأة أساسها وعمادها، لما ينطوي عليه دورها من أهمية وخطورة في الوقت ذاته؛ إذ تسهم بقسط وافر في التنشئة السوية لأفراد الأسرة، وتلطيف

جوها، وتوفير السعادة والاستقرار. في حين أن دورها فيها وأجرها كدور الرجل وأجره سواء بسواء. لا ينقص من أجره شيء، لذا فقد ذهبت رؤية الغزالي إلى تأكيد أن "البيت الذي تكون قاعدته امرأة تنفح هذه المعاني، بيت رفيع القدر، بل هو بيت يحتوي على أثمن الكنوز"[569].

إن ما يمكن استنتاجه أن تفكير "الغزالي" في هذه المسألة يأبى الإخلال بمسؤولية الزوج والأولاد، والبيت ككل على حساب وظائف تجور على هذا الواجب. ومن ثمة فقد طلب بدراسة ومراجعة كل ما يشغل المرأة عن واجبها الأول، وهنا أمر متوقف على فهم الدين على وجهه الصحيح، وترك الانحراف والغلو[570].

ولعلنا بهذا ندرك مدى تركيز الشيخ على ثوابت الأسرة كما يقرها ديننا الحنيف، بناء على التركيبة الوظيفية للمجتمع، بل للأمة كلها. ومجرد التساهل في إسناد الوظائف لغير أهلها، أو تخلي المرأة –التي هي مدار حديثنا- عن وظيفتها المحورية يؤدي إلى إرباك علائق كثيرة في المجتمع وفقدان الأمة لتوازنها. ولكن بالرغم من هذا، نحتاج إلى تناول بعض المتغيرات التي تطرأ على هذا الثابت وتحيط به.

ثانيا: مشاركة المرأة في المجتمع (المتغير)

لا أراني مجانبة الصواب إذا قلت: إن الشيخ "الغزالي" يضع قضية عمل المرأة تحت المجهر؛ ليتناول بالدراسة والتمحيص كل دقائقها وحيثياتها. والجدير بالتنويه أنه فيما ذهب إليه في قضية عمل المرأة لم يسبقه أحد من المفكرين. وصدق الشيخ "القرضاوي" إذ يقول: "ولم أر من المفكرين الإسلاميين من اهتم بأمر المرأة وإنصافها مثل الشيخ الغزالي"[571]، فهو لا يحب نشر فتاوى جزئية في غياب الوضع

([568]) محمد الغزالي، حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، ص 96.

([569]) محمد الغزالي، مائة سؤال عن الإسلام، ص 418.

([570]) محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص 44-45.

([571]) يوسف القرضاوي، الشيخ الغزالي كما عرفته، ص 259.

الإسلامي الكبير عن هذه الحياة الصاخبة، ولا التعصب لإحدى هذه الفتاوى[572]. في حين يخشى على أخلاق المرأة المسلمة –إن هي خرجت للعمل- من ضغط الرؤى والأفكار الغربية الوافدة وتأثيراتها الداعية إلى مساواتها بالرجل في كل الأعمال (المناسبة وغير المناسبة).

فكان يميل في كتاباته الأولى إلى أولوية عملها في بيتها سدا للذرائع، وصونا للأخلاق، وحماية للأسرة ثم للمجتمع مما قد يترتب عليه خروجها للعمل.

وسعيا منه –رحمه الله- لإيجاد منهج وسط يتفق مع تعاليم الدين الصحيح، ولا يصادم الفطرة السليمة، ظل طيلة حياته يعيد النظر والمراجعة لآرائه بخصوص عملها ومشاركتها في بناء المجتمع، فقد تباينت آراؤه إزاء عمل المرأة المسلمة؛ فهو إذ يشيد بدور المرأة في المراحل الذهبية في التاريخ الإسلامي والمهام التي نهضت بها الصحابيات الأوائل وغيرهن، ويستنكر وضع المرأة في القرون الأخيرة وجهلها بالإسلام وغفلتها عن قضاياه،

يعود للتحفظ خوفا عليها من أن تجرفها تيارات الغرب الرامية إلى إخراجها من أسرتها وإشراكها في العمل من غير أدنى ضوابط.

إنه يعتقد في هذه الحال أن المرأة العاطلة (في الشرق) أفضل من المرأة الفاسدة (في الغرب)، فالتعطل عن العمل شر، ولكن هناك ما هو شر منه، إنه الاشتغال بالأعمال الدنيئة التي تنتقص كرامة المرأة وتخدش عرضها، وما على المرأة المسلمة إلا أن تختار آداب الإسلام، وتتحلى بشمائله وليس لأحد أن يخيرها بين شرين[573].

إن الرؤيا التي يدافع عنها "الغزالي" في هذه القضية تعد رؤية بديلة لما ينبغي أن تكون عليه صورة المرأة المسلمة، انطلاقا من تحقيق مطالب الإسلام، وإقامة مجتمع يطير بجناحي جل وامرأة ينهضان بعبئه معا.

وعمل المرأة –من منظور "الغزالي"- [من الناحية الشرعية والاجتماعية] لا يكون أصليا بل يكون استثنائيا، معنى هذا أن الشيخ لا يرفض مشاركة المرأة مطلقا، بل يرحب بها ويقبلها لكن تبقى متعلقة بحدود الضرورة والحاجة المادية أو المعنوية، وهي كما يعلن عنها في أحد مؤلفاته[574]:

الأولى: أن تكون المرأة ذات نبوغ خاص يندر في الرجال والنساء معا، والمصلحة الاجتماعية توجب في هذه الحالة أن تعمل ليعود ذلك النبوغ على المجتمع بنفع عام، ولا تخمده بإخمالها، فتذهب قوة عاملة هي من القوى النادرة، والمرأة في هذه الحالة تترك جزءا من أمومتها في سبيل المصلحة العامة.

الحالة الثانية: أن تتولى المرأة عملا هو أليق بالنساء، كتربية الأطفال في سنينهم الأولى وتعليمهم، وذلك إلى سن التاسعة أو الحادية عشر وهي السن التي قررتها

---

(572) محمد الغزالي، معركة المصحف في العالم الإسلامي، ص 266.

(573) محمد الغزالي، الإسلام والطاقات المعطلة، ص 100-101.

(574) محمد الغزالي، حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، ص 96-97.

الشريعة لحضانة الأطفال، فيكون الطفل في حضانة أمه داخل البيت, وفي عطف المرأة ورعايتها بالمدرسة.
ومثل تعليم الأطفال تطبيب النساء، ولقد قرر الفقهاء أن بعض هذه الأعمال فرض كفاية كالقابلات، فإن عملهن من فروض الكفاية.
الحالة الثالثة: أن تعين زوجها في ذات عمله، وهذا كثير في الريف، فالمرأة الريفية إن كان زوجها عاملا زراعيا، أو مالكا صغيرا، أو مستأجرا لمساحة ضئيلة تعاونه امرأته في عمله معاونة كاملة،... ويستطرد قائلا: ولو كان للمرأة صورة مثالية في مجتمعنا لكانت صورة تلك المرأة الكادحة العاملة العاطفة لا هؤلاء النساء اللاتي يغشين الأندية والملاهي ودور الغناء... ويلغطن في مجالسهن بالحلال والحرام!!
الحالة الرابعة: أن تكون في حاجة إلى العمل لقوتها وقت عيالها، إذا فقدت العائل هي وهم، فكان لا بد أن تعمل لهذه الضرورة، أو تلك الحاجة الملحة.
ظلت هذه المحددات والضوابط الأربع التي وضعها الشيخ "الغزالي"، أحوالا خاصة تعمل فيها المرأة، تحكم رؤيته لعمل المرأة في مؤلفاته المبكرة والمتوسطة (خاصة), وترسم بذلك خطا مستمرا في المنحنى الممثل لتغيير

فكره واتجاهه في قضية عمل المرأة في تلك الفترة. ما يدفعنا للاعتقاد بأنه يقف وقفة المتشدد من عملها في مؤلفاته الأولى: "الإسلام والطاقات المعطلة"، "هذا ديننا"، "معركة المصحف في العالم الإسلامي"، "حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة"، "ركائز الإيمان بين العقل والقلب"،...
وهو إذ يجيز لها أن تعمل ويقبل هذه المشاركة يطالب بجدة توفر الشروط والضمانات أخذا منه بالأحوط والأسلم. وكأن به يقول لها: لك أن تعملي وتكسبي، لكن على أساس تحقق شروط خاصة تمليها ظروفك وظروف عملك.
وإذا تجاوزنا ما كتبه الرجل في الفترة بين الخمسينيات والسبعينيات نلحظ أنه بدأ يطور نظرته وينبو عن مساره الذي رسمه في بداية مسيرته في الدعوة والتأليف. ففي مطلع الثمانينيات أخذ يضفي بعض التعديلات والتهذيبات على نهجه الأول، إذ وضع مقررات عشرة هي بمثابة إضافات للتعاليم العشرين لـ "حسن البنا" والتي يرى حاجة المجتمع الإسلامي إليها، وقد كان على رأسها ــكما سبق وأن ذكرت-: "النساء شقائق الرجال، وطلب العلم فريضة على الجنسين كليهما، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وللنساء ــفي حدود الآداب الإسلامية- حق المشاركة في بناء المجتمع وحمايته"[575]. بمعنى أن الرجل والمرأة سواء في أعمال الخير كلها، فضلا عن التكاليف والعبادات، مما يتطلب إعداد المرأة إعدادا يؤهلها لممارسة دورها ورسالتها في الحياة. وحول أمر المرأة بالمعروف ونهيها عن المنكر يعتقد "محمد رشيد رضا" أنه فرض من الله تعالى على النساء كالرجال، ولا أدل على هذا القول من تفسيرات نقرأها له حول بعض الآيات المرتبطة بالإشكال؛ حيث يرى أن مشاركة النساء للرجال في الشعائر الدينية والأعمال الاجتماعية وكذا السياسية، أمر

(575) محمد الغزالي، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص 268.

تضمنته النصوص القطعية من القرآن والسنة، كقوله تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[576] فالله تعالى أثبت الولاية المطلقة للمؤمنات على المؤمنين بما فيها ولاية الأخوة والمودة والتعاون المالي والاجتماعي، وولاية النصرة الحربية والسياسية...[577].

من هذا المنطلق، انتقد الغزالي الواقع العربي، وما تمليه بعض العقليات المتحكمة في زمامه، وأنكر ما شاع في أذهان نفر من علماء الدين من أن النساء خلق أدنى من الرجال، وينبغي إمساكهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت، وحرمانهن من أي نشاط عام... فكان يرى بأن مظالم كثيرة تقع على المرأة كنتاج لهذه "العقليات المختلة" التي فرضت نفسها طويلا على دين الله، ولا يزال دأبها في إحراج المرأة وتعكير مستقبلها مستميتا[578]،

ولا عجب، فذلك ما نقرأه ونسمعه من فتاوى مكذوبة على الإسلام إزاء عدد من القضايا الحساسة التي تمس حركة المرأة وملبسها وتعلمها...

وفي ثنايا حديث "الغزالي" عن أولئك القاصري النظر –أو كما ينعتهم أنصاف المتعلمين- يبدو غيضه واضحا جليا، ما نلمسه من قوله: "وأعتقد أن هؤلاء العلماء القاصرين لو كانوا على عهد رسول الله ـصلى الله عليه وسلم ـ لطالبوه بطرد السيدتين اللتين حضرتا بيعة العقبة الكبرى وقالوا له: ما للنساء وهذه الشؤون.. ولو كانوا موجودين عند فتح مكة لقالوا له: حسبك بيعة الرجال، وهم يعلمون نساءهم! أما استخراج النساء للبيعة فقد يكون سببا في غرورهن وجرأتهن!" [579].

لقد أدرك الرجل الدور الإيجابي والبناء الذي كانت تلعبه المرأة على عهد رسول الله ـصلى الله عليه وسلم- فانعكس ذلك الإدراك نحو توجيهه لأفكاره توجيها مغايرا للسابق. لكن على أساس نظرة معتدلة ومتزنة تؤسس لبناء فكر يحكمه الاعتدال والوسطية، كل ذلك من منطق استنارته بوقائع وأحداث التاريخ الإنساني والإسلامي، ليتسنى له الإفادة منه في صياغة أفكاره. فحين يصف قتال النساء في معركة حنين وشجاعتهن وتضحياتهن الجسام مثلا، نجده يعلق الأمر على حدود الحاجة والضرورة، إذ يقول: "لست بهذا النقل أدعو إلى تجنيد النساء ليشاركن في القتال،

([576]) سورة التوبة: الآية 71.

([577]) محمد رشيد رضا، حقوق النساء في الإسلام، ص 13-14/ نقلا عن: زكي الميلاد، تجديد التفكير الديني في مسألة المرأة، ص 59-60.

([578]) محمد الغزالي، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص 196.

([579])المصدر السابق، ص 196.

كلا، فلدينا ألوف وألوف من ذوي اللحى والشوارب يجب أن ينهضوا بواجبهم، فإذا فنوا خلفهم النساء...!!"[580].

وقد سانده في هذا المسلك الرشيد علماء مفكرون من أمثال: "عبد الحميد بن باديس" الذي طالب بتعليم النساء ما يحتجن إليه في الحروب من ذلك التدريب على حمل السلاح والدفاع عن النفس[581]. وكذا الشيخ "القرضاوي" الذي لم ير حرجا في خروج المرأة مع الجيش، وقيامها بأعمال تلائم فطرتها وقدرتها...[582].

إن قضية عمل المرأة من منظور الشيخ "الغزالي" تقتضي إطلاعا متجددا لمنهج الإسلام وفكره، واستيعاب ظروف الحياة العامة لا سيما الاقتصادية منها والاجتماعية، وعودة واعية إلى بطولات النسوة أو الصحابيات الأوائل، لمواجهة تحديات تعترضها، فهو يرى أن "للمجتمع العام حظا من حياة المرأة، فهي تتعلم وتعلم وتداوي وتأمر وتنهى وتبايع، وقد تشارك الجيش في بعض الخدمات الطبية، وقد تقاتل إن اقتضى الأمر الدفاع، وينبغي أن تكون خبيرة بشؤون أمتها الدينية والمدنية"[583].

وأيا كان تفسير هذا الرأي، فإن للانفتاح الفكري والاستنارة العقلية أثرهما البارز في تشكيل رؤية الشيخ في القضية. فإفادة فكره من نتاج التاريخ البشري بشقيه (التاريخ الإنساني عموما، والإسلامي خصوصا) واضح، نستشفه من استقراء النصوص المتراكمة في كتبه بهذا الخصوص.

وبهذا الصدد، فقد تناول جهود المرأة الغربية بالدراسة والمقارنة مع المرأة المسلمة، فوجد ما لا يسر حيث "المرأة في بلاد الإسلام من عوامل الاستهلاك، وأنها عند غيرنا من عوامل الإنتاج، هي عبء هنا وعون هناك. وهذا منكر من الخلق والسلوك!!" [584]، فنكون هنا بصدد حقيقة لا مفر منها هي في الأساس نتيجة مباشرة لممارسة بعض أنماط الظلم الاجتماعي؛ فمما لا شك فيه أن هناك من يأبى على المرأة ما أباحه لها الشرع كأن تتعلم وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتشارك في نهضة أمتها... في الوقت الذي أسرفت فيه المرأة الغربية إسرافا شائنا في الذوبان والانطلاق خارج بيتها، والصد عن رسالتها ووظيفتها الأولى في الحياة.

وبناء على هذا، يقودنا فكر "الغزالي" إلى التزام خط وسط بعيد عن الإفراط والتفريط تمارس فيه المرأة وظيفتها المقررة في الحياة، وتعين المجتمع في أعمال

---

(580) المصدر نفسه، ص 199-200.

(581) ابن باديس، الآثار، ج4، ص 114/ نقلا عن: سعيدة درويش، مشكلة المرأة في الفكر الجزائري الإسلامي المعاصر، ص 242.

(582) يوسف القرضاوي، مركز المرأة في الحياة الإسلامية، ص 132.

(583) محمد الغزالي، مائة سؤال عن الإسلام، ص 101.

(584) محمد الغزالي، ليس من الإسلام، ص 251.

تجيدها وتجدي فيها فيكون ذلك أرضى لله وأسعد للأمة وأزكى للجنسين الذكر والأنثى[585].

وعند التأمل نجد أن نظرة الشيخ في قضية العمل ارتبطت بالواقع وتراوحت بين النقد والتصحيح، وعلى ضوء ذلك راح ينكر على مجتمعات مسلمة –حكمت على المرأة بالإعدام الأدبي- تطرفها الشائن، ويؤكد بفعل وعيه لنصوص ومقررات القرآن والسنة، أن هؤلاء تجاوزوا القرآن والسنة، وأخذوا يصدون أحكاما وفتاوى يحكمها أو يغلب عليها الهوى أو التقاليد إعتادها مجتمعهم وربما وفدت عليهم بفعل الغزو الثقافي... وعلاوة على ذلك فإن هؤلاء يختلقون الأحاديث، أو يقوون الضعيف، أو يهملون الصحيح لتغير الزمان[586].

ظل الرجل ينشد منهجا وسطا في قضية دور المرأة ورسالتها في الحياة، وهو إذ يستنير بالنصوص لفهم الواقع، لا يهمل الفكر التقليدي الجامد بل يتصدى له بالنقد والمواجهة تماما كما يصد عن الفكر التغريبي، فكان بذلك صاحب رؤية متميزة في هذا المضمار –كما يبدو لي-. فقد تركزت جهوده أساسا على نصرة الإسلام والانتصار له ومن ثم تحقيق التمكين له. والدارس لفكره في القضية والمتتبع له يلحظ ذلك. وهذا ما يحيلنا إلى أنه لا يبت في الأمور بتسرع أو تهور بقدر ما ينظر للقضية في وجوه متعددة، مستقرئا في المتغيرات من خلال علائقها المعقدة بالثوابت. كل ذلك رغبة منه –رحمه الله- في نشدان الحق والوصول إليه عبر عقلانية تبتغي تحسين صورة الإسلام، وتمثل مرتكزاته، وهذا –من دون شك- يعود إلى تجربته الطويلة في ساحات الدعوة لله. ولعل ذلك الذي دفع به إلى نقد ومراجعة آرائه ومواقفه الأولى، ومن ثم تحول مساره الفكري وانعطافه باتجاه ضرورة دمج وإشراك المرأة في المجتمع وإسهامها في تنميته وعدم تعطيل طاقاتها، أو قتل مواهبها ومهاراتها،

بإيجاد مجالات ملائمة لنشاطها خاصة وأن المصلحة العامة والخاصة أصبحت تفرض حضورا معتبرا للطابع الأنثوي، كما هو الأمر في المجالات الاجتماعية والتربوية والثقافية والاقتصادية.

وقد ساقته تلك القناعات إلى الإيمان الجازم بأن "الإسلام نسق آخر في الفكر والسلوك... أساسه أن النساء شقائق الرجال، وأن بينهن وبين الرجال حقوقا متبادلة وكرامات متساوية..."[587]. إن هذا ما يجره إلى الاعتقاد بأن بعض المتدينين دون مستوى الفهم لطبيعة المجتمع الإنساني، ولوظيفة المجتمع الإسلامي؛ لأنهم يرون أنه لا عمل للمرأة إلا أن تضع الأولاد...[588]. ومن دون شك أن هذا النمط من التفكير يعد قاصرا عن إدراك الأبعاد الوظيفية للمرأة، وتلخيصها في وظيفة لا تختلف فيها

([585]) محمد الغزالي، مائة سؤال عن الإسلام، ص 102.

([586]) المصدر نفسه، ص 361.

([587])و(2)و(3)و(4) محمد الغزالي، صيحة تحذير من دعاة التنصير، ص 121.

(5)ابن الهاشمي, الداعية زينب الغزالي ــ مسيرة جهاد وحديث من الذكريات من خلال كتاباتها ــ, ص78.

عن سائر الكائنات، لهذا يعلق "الغزالي" على هذا الادعاء الباطل بأسلوب السخرية والتهكم قائلا: "وعندما تكون المرأة بقرة للإنجاب فقط فلا بد أن يكون رجلها ثورا؛ ولا بد أن تنحدر الأمة كلها إلى أن تكون حديقة حيوانات (...) إننا نرفض المجتمع المنحل، ونرفض كذلك المجتمع المختل؛ نرفض أن تكون المرأة دابة للنسل، وتنتهي رسالتها في الدنيا إلى هذه الغاية المهينة... المرأة تتعلم وتتعبد وتجاهد، ولها الحق في أن تدرس، وتطبب، وتتاجر، وتقوم بأعمال شتى تتناسب بداهة مع طبيعتها الأنثوية، وعملها الأول والأهم هو أن تكون ربة بيت وحاضنة أسرة. وهذا العمل يتطلب ثروة من الأدب والعلم لا حصر لها، وإلا فإن المرأة الجهول لن تنشئ إلا ذرية أسوأ..."[589].

إن هذا القول يحمل في طياته فكرا ناضجا، مؤمنا بإنسانية المرأة، مدركا جوانب رسالتها المتعددة. فرسالة المرأة في الحياة ليست أحادية الجانب كما قد يظن البعض، لذا يكتب الشيخ هذا اعتراضا على كلمة وكيل جبهة الإنقاذ في الجزائر، عندما جاء بتصريح تضمن أن عمل المرأة في الإسلام ولادة الرجال؛ مدللا على اعتراضه بوضع المرأة في صدر الإسلام ودورها الفعال في الإسهام بكل ما تملك من قوى مادية وأدبية في نصرة دينها وإعلاء رايته... بدءا من عقر دارها إلى طلبها الجهاد في البر والبحر في نطاق محكم من آداب وتعاليم الإسلام[590].

ويقف إلى جانب الشيخ في هذا الاعتقاد دعاة ومربون كثر، من أمثال "زينب الغزالي" التي ترى في تلك الوظيفة قليلا من كثير يجب أن تعد المرأة نفسها من أجل القيام به على خير وجه، منوهة في ذلك بالدور الرسالي الملقى على عاتق المرأة[591].

ومع نهاية الثمانينات يصدر الشيخ "الغزالي" كتابه الشهير " السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث" الذي يمحص فيه القضية تمحيصا دقيقا، فيعرضها في شكل معادلة حساسة ذات أطراف ثلاثة تتطلب الحل تحت عنوان "المرأة والأسرة والوظائف العامة" يطرحها مؤكدا مكانة ووظيفة المرأة في الأسرة، لكن مبرزا أيضا مكانة ووظيفة المرأة في المجتمع أو الوظائف العامة. فيقول: "أكره البيوت الخالية من رباتها! إن ربة البيت روح ينفث الهناء والمودة في جنباته ويعني على تكوين إنسان سوي طيب... وكل ما يشغل المرأة عن هذه الوظيفة يحتاج إلى دراسة ومراجعة...

وإلى جانب هذه الحقيقة فإنني أكره وأد البنت طفلة، ووأدها وهي ناضجة المواهب مرجوة الخير لأمتها وأهلها... فكيف نوفق بين الأمرين؟"[592].

---

(1) محمد الغزالي, السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث, ص44

إن هذا النص يكشف بعمق عن النظرة الشمولية المتكاملة التي يمتلكها الشيخ في قراءته للواقع وطلب الحلول لمعضلاته؛ ولا ريب فهذه إحدى منطلقاته الفكرية التي تجلي منهجه في التعامل مع القضايا.

وما يفهم من كلام الرجل أن دور المرأة ورسالتها في البيت وكذا المجتمع دور خطير لا ينبغي غض الطرف عنه، ومن ثم فقد سيطرها جس البيت أو العمل وصعوبة التوفيق بينهما على فكره؛ لأنه يأبى التخيير ويتوق إلى التوفيق والموازنة بين الأمرين. وهذا شأن الدين الصحيح الذي أعطى كل شيء حقه دونما تقصير.

وعلى إثر ذلك فقد ذهبت رؤيته المنهجية إلى القول بجواز عملها وقبوله بتوفر الشروط والضمانات "يمكن أن تعمل المرأة داخل البيت وخارجه بيد أن الضمانات مطلوبة لحفظ مستقبل الأسرة ومطلوب أيضا توفير جو من التقى والعفاف تؤدي فيه المرأة ما قد تكلف من عمل (...) على أن الأساس الذي ينبغي أن نرتبط به أو نظل قريبين منه هو البيت..."[593].

إن هذه الأفكار البناءة لم تأت من الفراغ، وإنما قالها "الغزالي" -رحمه الله- لإيمانه القوي الراسخ بمكانة المرأة في عملية البناء الاجتماعي، ودورها في غرس الأخلاق والقيم الإسلامية في الناشئة، وكذا دور الأسرة المسلمة الصالحة والمتماسكة الأطراف في تثبيت قواعد المجتمع. وهو إذ يجيز للمرأة أن تعمل، لا يكاد يبتعد في كل مؤلفاته عن الضوابط والمحددات الشرعية لخروجها وعملها تطبيقا لتعاليم القرآن والسنة, وسعيا وراء الحفاظ على بقاء الأسرة واستمرارية تماسكها. ويرى أن من هذه الشروط والضوابط ما يتعلق بالمرأة نفسها، وما يتعلق بالعمل (طبيعته، وجوه أو ظروفه).

يشير "الغزالي" إلى هذه الشروط جملة وبإيجاز بليغ في مؤلفه "ركائز الإيمان بين العقل والقلب" مبينا أن "للمرأة أن تعمل في وظائف مناسبة وفي ظروف خاصة، لكن على أساس أن عملها الجليل العتيد أن تكون ربة بيت وسيدة أسرة، وأن يكون جو العمل غير ما تألف المدنية الحديثة، فلا يليق حشر المرأة عارية الأذرع

والسيقان في صفوف الرجال، ولا يليق توظيفها لتعرض أوراقا على مدير يختلي بها إذا شاء..."[594]. ويضيف قائلا: "إن المرأة قد تعمل إذا احتاجت لعمل أو احتاج إليها المجتمع... وما يصدها عن ذلك أحد... أما الزعم أنها والرجل سواء في القدرات المادية والمعنوية فذاك ما ننكره، كيف، وهي تلد وترضع؟ وحملها لولدها وحضانتها له يأخذان منها جهدا مضنيا. ثم هي -من غير العمل ونتائجه- تراح من العبادات المفروضة في دورات شهرية منتظمة. فكيف تكلف بالأعمال العادية وينتظر منها أن تساوي الرجل في الإنتاج؟"[595]. يبرز من هذين النصين، إدراك "الغزالي" لحاجة

([593]) المصدر نفسه، ص 44-45.

([594]) محمد الغزالي، ركائز الإيمان بين العقل والقلب، ص 306-307.

([595]) المصدر نفسه، ص 313-314.

البيت للمرأة، ثم تقديره لحاجتها للعمل وحاجة المجتمع لطاقاتها ومواهبها. وهذا الأخير هو ما لم يغفله غيره مثل "محمد سعيد رمضان البوطي" الذي اعتبر أن اندفاع المرأة للعمل خارج بيتها قد يكون أحد ثلاثة ظروف، ذكر منها: حاجتها هي نفسها للعمل، واضطرار المجتمع لعملها، بسبب أن هنالك مرافق لا تشغلها إلا المرأة ولا يصلح لها إلا هي، كمهنة التمريض في المشافي، والتعليم للفتيات[596]...الخ.وكذا الشيخ "يوسف القرضاوي" الذي يرى جواز عملها عند اقتضاء مصلحتها أو مصلحة أسرتها، أو مصلحة مجتمعها[597]. وغيرهم ممن يرى ذلك.

وجدير بالذكر أن هذه الرؤية ظلت مضبوطة بعامل الوسط أو الجو الذي تعمل فيه المرأة ومرتكزة أساسا على مراعاة الأحكام المعلومة من الدين بالضرورة، وقد أعطانا الشيخ "الغزالي" الوجه الصحيح لمشكلة عمل المرأة والمتمثل في "جو ذلك العمل" حيث إنه من الواضح جدا أن "المشكلة ليست في عمل المرأة أيا كان نوعه! المشكلة في جو ذلك العمل ولون المجتمع العام الذي يتم فيه!" [598]. ولعله بهذا الفقه يتطلع إلى مجتمع نظيف لا تسوده مظاهر الكفر والفجور مثل التكشف والاختلاط، وحرية التنقل والتلاقي والاختلاء. وهي مظاهر يأباها الإسلام –من دون شك- وتحبذها المدنية الحديثة.

إن منهج الإسلام مغاير تماما لما تعهده الحياة الغربية؛ المرأة هناك تستقل بنفسها – منذ البلوغ- وتصبح مسؤولة عن نفسها، وتكلف بما لا تطيق من مشاق الحياة لتأمين عيشها، لذا نراها تزاحم الرجل في كل الميادين!... أما وضعها في الإسلام فبعيد كل البعد؛ إنه يرفض هذا الفكر العليل وكل آثاره. والمرأة تحت مظلة الإسلام "لها يقينا أن تعمل وتكسب في أوضاع متغيرة مضبوطة! لها وليس عليها!"[599].

لقد استوعب الشيخ الأعمدة التي تقوم عليها العلاقات بين الرجال والنساء من قراءته لنصوص الوحي، فكان يتمسك بها ويعمد إلى إيرادها كلما تعلق الأمر بمشاركة المرأة في خدمة المجتمع، والتي تبرز في قوله تعالى: ﴿**لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ**﴾ [600]، وقوله: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ**

([596]) محمد سعيد رمضان البوطي، من الفكر والقلب (فصول من النقد في العلوم والاجتماع والآداب)، دار الهدى (الجزائر)، ط (1990)، ص 125-126.

([597]) يوسف القرضاوي، مركز المرأة في الحياة الإسلامية، ص 148.

([598]) محمد الغزالي، ركائز الإيمان بين العقل والقلب، ص 313.

([599]) محمد الغزالي، مائة سؤال عن الإسلام، ص 193.

([600]) سورة آل عمران: الآية 195.

ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[601]، وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : "النساء شقائق الرجال"[602].

وهذه كلها نصوص صحيحة الثبوت، صريحة الدلالة في أنه لا فرق بين رجل وامرأة في السعي والكدح في الأرض، وعلى هذا الأساس يمكننا القول بأن الإسلام قد سوى بين كلا الجنسين في حق العمل. فأباح للمرأة

الاضطلاع بأعمال تليق بها ولا تتنافر مع أنوثتها، ووظائف مشروعة قد يكون مطلوبا عليها القيام بها إذا اقتضت الضرورة المادية أو الأدبية ذلك؛ أي بتعبير آخر، إذا احتاجت هي العمل أو احتاج إليها العمل.

فقد تكون هناك ضرورة نفسية "لتحقيق الاتزان النفسي" تدفع المرأة إلى العمل، كأن تكون أرملة أو مطلقة، أو لم تتزوج أصلا، أو متزوجة ولكن لم تنجب أولادا فتسد فراغها بالعمل، أو تكون الضرورة مادية مالية لاحتياج الأسرة إلى عائل ومنفق عليها، كما أن للمجتمع نصيب الحاجة إلى عمل المرأة، وتدخلها كعضو في بنائه، فتكون الضرورة أدبية معنوية، كما في طب النساء (التمريض، الجراحة، التوليد)، وتعليمهن وإرشادهن،...

في حين قد تكون حاجة المرأة لأن تبقى في بيتها تتولى مسؤولية الزوج والأبناء والبيت ككل أمس من خروجها للعمل؛ فلمسؤولية إدارة البيت الأولوية التامة لأنها قد تحول دون اضطلاعها بأعمال أخرى، وإسهامها في بناء وتنمية المجتمع.

كل ما ذكرنا يجعل عمل المرأة إما واجبا أو مباحا أو مكروها أو حراما. ومن ثمة لم يقيد الإسلام حق المرأة في العمل إلا بما:

"- يحفظ للمرأة علىكرامتها الإنسانية.

- ويصونها عن التبذل.

- ينأى بها عن كل ما يتنافى مع الأخلاق الفاضلة.

- ولا يخالف أحكام الشريعة الإسلامية في شيء.

- وأن يؤدي وظيفتها الأساسية التي هي الإنجاب وتربية الأطفال تربية إسلامية، والاهتمام بزوجها وبيتها"[603].

إن فقه الشيخ "الغزالي" في قضية عمل المرأة طرأ عليه تحول ملموس مس سائر محطاته الدعوية ومؤلفاته الفكرية طيلة حياته، ولعل من أواخر اجتهاداته في القضية ما ضمنه في كتابه "قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة" في أوائل التسعينيات.

(601) سورة النحل: الآية 97.

(602) الحديث سبق تخريجه, ص 158.

(603) مولاي ملياني بغدادي، حقوق المرأة في الشريعة الإسلامية، ص 155.

وهذا المؤلف يجسد رشاحة جهوده ونظراته في شؤون المرأة؛ فقد انصب إصلاحه لأوضاعها فيه على تحريرها من سلطة التقاليد الموروثة الراكدة التي كرستها العقليات القاصرة. وكذا تحريرها من ربقة التقاليد الدخيلة الوافدة التي فرضها الاستعمار المستكبر.

يطرق الشيخ في كتابه عدة أبواب، أولها باب "لنفهم الإسلام أولا" مستعرضا فيه المبادئ الأولية لفهم مكانة المرأة ووظيفتها في الحياة تحت عناوين مثل: حسنوا صورة المرأة، الدور الغائب للمرأة،... وفي الباب الثاني يذكر الشيخ بتاريخ مشاركة المرأة ومهمات نهضت بها صحابيات فضليات تحت عنوان "صفحات مطوية".

وقد ضمنه عدة عناوين منها: امرأة بألف رجل! امرأتان نادرتان، زوجات الرسول... أما في الباب الثالث، فيبدأ أو ينطلق من البيت لينوه بأن الزواج عبادة، وأنه وسيلة لا غاية، ثم إن البيوت تبنى على الحب، كما يتحدث عن وظيفة المرأة في الأسرة... وفي الباب الرابع يسعى إلى تصحيح مفاهيم أخطأ الناس في فهمها، وأساءوا تصويرها مثل: القوامة، حرمة صوت المرأة ووجهها، وفي ضرب الزوجات، وبيت الطاعة، والتشدد في إيقاع الطلاق...[604].

ولعلنا في هذه العناوين التي حرصت على إيرادها نلمس بعمق طبيعة النزعة التوجيهية التي تروم تصحيح المفاهيم والتصورات؛ تصريحا وتلميحا. كما يبتغي الشيخ من روائها إعادة النظر في المنظومة الفكرية الإسلامية، بل وحتى في المنظومة العملية، التي حققت إفلاسها نتيجة عدم إعمال العقل وفتح قنوات اتصال جديدة مع ما يستجد من أحداث وتطورات في العالم.

لقد تزايد اهتمام الرجل بقضية عمل المرأة في هذا الكتاب، وقد جاء ذلك بعد طول خبرة وإطلاع على أحوال المرأة الغربية وإسهاماتها في نهضة أمتها ونصرة عقيدتها الضالة المنحرفة، في الوقت الذي تختفي المرأة المسلمة وراء جدران البيت، فلا هي تنفع نفسها ولا أمتها بجهلها، فتجر الخيبة والهزيمة للإسلام، لا هي جسدت صورة المرأة المسلمة المطلوبة منها وقامت ولو بجزء من المهمات التي نهضت بها الصحابيات الأوائل... وتولى كبر ذلك كله –في اعتقاد الشيخ-: "متدينون جهلة يحسبون التقوى تجهيل المرأة وإذلالها.."[605].

ويمكن أن نلمح رؤية الشيخ النقدية للصورة النمطية السائدة في مجتمعات المسلمين التي كرستها التقاليد والأعراف المتوارثة في صريح عبارته التي يقول فيها: "المرأة عندنا ليس لها دور ثقافي ولا سياسي، لا دخل لها في برامج التربية ولا نظم المجتمع، لا مكان لها في صحون المساجد ولا ميادين الجهاد.

([604]) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، فهرس المحتويات، ص 209..212.

([605]) محمد الغزالي، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص 195.

ذكر اسمها عيب، ورؤية وجهها حرام، وصوتها عورة، وظيفتها الأولى والأخيرة إعداد الطعام والفراش!.

المرأة اليهودية تشارك مدنيا وعسكريا في قيام إسرائيل، وهاهي توشك أن تكون ملكة في البيت الأبيض تضع اللمسات الأخيرة في الإجهاز علينا، ولا يزال نفر من أدعياء الدين يجادلون في حق المرأة في أن تذهب إلى المسجد وتحضر الجماعات، إننا نموت قبل أن يحكم علينا غيرنا بالموت! فهل نعي ونرشد؟"[606].

إن في هذا النص ما ينم عن حزن دفين على حال الأمة الإسلامية وما آلت إليه، خاصة حينما يعقد مقارنة بين المرأة المسلمة والمرأة اليهودية، ليتضح البون الشاسع بين الحضارتين، والهوة السحيقة بين الإنسانين، بين امرأة هدرت إمكاناتها الكامنة، وامرأة تصنع العالم. إنها مسألة مشروع ثقافي حضاري يصنعه الكل، ولا يصنعه رجل أسطوري لوحده.

وفي نظرنا أنه إذا ثبتت سلبية وخطورة الحضارة الغربية بسبب ما تؤدي إليه من ترسيخ للتبعية والتقليد الأعمى من طرف المرأة المسلمة المستضعفة، واتباعها خطى المرأة الكافرة في كل شيء، فإن موقف المجتمعات الإسلامية بين المرأة أشد خطرا على سمعتها وكيانها؛ لأنه يكسب أعداء الأمة مبررات كافية للتشكيك في الإسلام والخوض في سمعته.

من أجل هذا وذاك يستبعد "الغزالي" هذين الموقفين، وهو ما يعكس وسطية منهجه, وحسن تفهمه وإدراكه لتوجيهات الإسلام. معتقدا بأن الإسلام وحده "هو الذي صان شخصية المرأة ورد كل عدوان عليها وفق قاعدته: ﴿**لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ**﴾[607]"[608].

على حين يأسى لحال المسلمين وسوء فهمهم للإسلام وابتعادهم عن نهجه الصحيح؛ فهم إما مفرطين فيه مقلدين بذلك سبل غيرهم ومتبعين خطاهم أو مفرطين ومتنطعين في تطبيقه، ومعاملة المرأة على أساس مغلوط لا يمت للإسلام بصلة.. ولذلك نجده كثيرا ما يردد: "ونحن نرفض الأمرين معا، حبس المرأة في سجن الجهل والقصور وذوبان الشخصية وضياع المكانة... وإطلاق المرأة فتنة عاتية تنشر الإثم وتبيح الحرام..."[609]. وهو يقف هنا وقفه تجلي واحدة من منطلقاته الفكرية التي ألزم نفسه بها في هذا الشأن. وهي وسطيته في المطالبة بخروج المرأة وعملها.

وعلى الرغم من أخذ نفسه بهذا المنهج، إلا أنه يقول: "بين الإفراط والتفريط خط وسط نريد التعرف عليه والتزامه، وهو خط لا يتطابق مع وضع المرأة المسلمة في

([606]) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص 30.

([607]) سورة آل عمران: الآية 195.

([608]) المصدر نفسه، ص 59.

([609]) محمد الغزالي، ركائز الإيمان بين العقل والقلب، ص 315.

أغلب المجتمعات، وكذلك لا يتطابق مع تقاليد الفرنجة التي تستمد من وثنية الرومان ومن فلسفة الإغريق.

إن أفلاطون في مدنيته "الفاضلة" يجعل المرأة مشاعا بين الآخرين، فما تكون إذن المدنية الدنسة؟.

على أن عقلية السجان هي الأخرى لا تقيم أمة راقية الفكر زاكية القلب.

..وتعاليم الإسلام الصحيحة هي الأمل في بناء عالم متراحم مصون"[610].

من خلال تتبعنا لمسارات موقف الشيخ "الغزالي"، ومدى ما لحق بها من تغيرات، أو بالأحرى تطورات مست الثوابت؛ إذ كان لا بد أن تحدث بطريقة أو بأخرى. يمكن أن نقول إن الرجل أسهم بعمق في تكوين العقلية الإسلامية التي تستوعب متغيرات العصر وتكيفها وفقا لثوابتها وطبيعة أصالتها، ضمن نسق وظائفي إنساني، لا يمكن للمرأة ولا للرجل أن يحيدا عنه -كما أسهب في ذلك "مالك بن نبي في معظم كتاباته[*]-.

ويُعمل الشيخ جهاده في سبيل تحسيس الأمة وتنبيهها إلى مكانة البيت كمحضن مركزي للأسرة، وإعطائه المكانة الأساسية، حتى لا تضعضع عُمد المجتمع.

ولا شك أن العَالَم يتحول بشكل متسارع، ويفرض على الإنسان المسلم قيما جديدة بطريقة قسرية أحيانا. ولذلك حينما عالج الشيخ "الغزالي" قضية عمل المرأة حاول إخضاعها لهذه المتغيرات، ولكن يبقى تحليله للإشكاليات، ومحاولة التماس الحلول لها حبيس النظرة الإسلامية المثالية، وكان من الممكن أن تنفتح القضية على إشكاليات كبرى جد معقدة، التبست فيها قيم دخيلة على الإسلام وأصبحت وكأنها جزء منه. فهناك مد رهيب لاختلاط المرأة بالرجل، بل هناك اتجاه نحو تأنيث العالم.. مما يؤدي إلى غياب الرجل في بعض الأحيان عن مراكز الصدارة وصناعة القرار.

---

(610) عبد الحميد حسانين حسن، من مقالات الشيخ محمد الغزالي، ج1، ص 101.

(*) أنظر مؤلفاته: تأملات/ شروط النهضة/ مجالس دمشق... وغيرها.

المطلب الثاني: رؤية الشيخ "الغزالي" ووجهته في تصنيف عمل المرأة خارج بيتها.

أولا: وظائف لا بد منها.

من المؤكد أن استقراء رؤية الشيخ "الغزالي" الفقهية واجتهاداته الفكرية بخصوص عمل المرأة خارج بيتها، يحيل إلى القول بأنه صاحب نظرة عقلانية متأنية في الحكم على القضية. إن لم يكن بدعا فيما ذهب إليه من تمحيص وتدقيق وإعادة نظر في عمل المرأة خارج بيتها، ولم يعرف عنه أنه شذ عن قاعدة عامة، أو ذهب مذهبا مناقضا لمذاهب الفقه الإسلامي واجتهادات علماء الأمة الإسلامية، بيد أنه كان من خلال اجتهاداته الخاصة وتأملاته الواعية في القضية وكذا سعيه المثبت لإحقاق الحق ووضع الأمور في نصابها، يسعى إلى التمييز بين ما هو واجب شرعي تقتضيه ضروريات شتى، وبين ما هو دون ذلك.

وبهذا الصدد يشهد "عبد الحليم عويس" أن رأي الشيخ في جواز عمل المرأة، رأي مقبول من الأمة كلها وذلك بالشروط والضمانات التي يؤمن بها الشيخ "محمد الغزالي" نفسه، والتي أشار إليها في كتاباته[611].

وكذا يشهد له تلميذه الشيخ "يوسف القرضاوي" فيقول: "لم أره خرج على إجماع متيقن (...) هذا مع أن الشيخ الغزالي أعلن في كتبه مررا: أنه يكره الشذوذ والخروج عن الإجماع، ويجب أن يبقى مع السواد الأعظم للأمة"[612].

من هذا المنطلق اهتدى الشيخ بفلسفته الخاصة في تجلية الحقائق إلى فهم أمثل لطبيعة وظروف وملابسات عمل المرأة خارج بيتها.

ويبدو لي من خلال تتبعي للقضية في جل مؤلفاته أنها كثيرا ما أرقت عقل الشيخ وفكره، واستدعت اهتماما زائدا منه أكثر من غيرها من القضايا الأخرى (قضية اللباس مثلا)؛ ولعل السبب شرود المسلمين وابتعادهم عن الصواب، وتطرفهم ناحية اليمين أو اليسار في هذه القضية.

من هنا صرح "الغزالي" قائلا: "لو قام في هذا العصر مجتمع إسلامي واضح المعالم في بيان مكانة المرأة وميدان عملها ومجال نشاطها لاختفى من الدنيا فساد كثير! إن أصحاب الطباع السليمة يكرهون الاختلاط المسعور في حضارة الغرب والتكشف الفاضح هناك واستخفاء جو الأسرة، وانطلاق الغرائز دون ضابط، وهم يتطلعون إلى بديل أفضل فلا يجدون، لأن صياح الغلاة من المسلمين ألقى في روعهم أن الإسلام سجان المرأة وعدو اكتمالها الإنساني، وأنه تحت ضغط المدنية الحديثة أذن لها بالتعليم وهو كاره، وأذن لها بالذهاب إلى المسجد يوم الجمعة وهو ضائق!"[613].

---

(611) عبد الحليم عويس، الشيخ الغزالي ؛تاريخه وجهوده وآراؤه، ص 45.

(612) يوسف القرضاوي، الشيخ الغزالي كما عرفته، ص 201.

(613) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص 27.

إن شريعة الله لم تحرم المرأة حقها في العمل إذا اقتضته ضرورات شرعية أو اجتماعية أو.. ولم تمنعها من الكسب متى احتاجت إليه..

والشيخ "الغزالي" يرى أن هناك وظائف فنية كثيرة تحتاج إلى النساء وحدهن، وتتطلب لمسات ذات طابع أنثوي خصوصا في المجالات الاجتماعية[614].

في حين يؤكد على ميدان هو من الميادين التي تلح على حضور المرأة فيه واشراكها بالدرجة الأولى في خدماته، ألا وهو ميدان "التربية والتعليم"؛ إذ يطالب بذلك قائلا: "... ثم نريد لها بعد أن تخدم في الميدان الهائل الذي تأخر الشرق قرونا إلى الوراء بسبب قلة العاملين به وهو ميدان التربية والتعليم. ميدان الأسرة المتداعية والروابط المنهارة..."[615].

إنه بهذا ينعى على المجتمع الإسلامي تعطيله لحق المرأة، لا سيما حين يتعلق الأمر بميدان تحققت صلاحيتها له مثل "التربية والتعليم"؛ وهذا نظرا للخصائص النفسية والفطرية التي تتمتع بها المرأة، وتفوق فيها الرجل أحيانا في هذا الميدان الإصلاحي بالدرجة الأولى، حيث تشتد الحاجة إلى تكاثف أبناء الأمة جميعا للقيام بأعبائه وتحمل مشقاته.

لقد آثر "الغزالي" بدوره هذا المسلك الوظيفي الإصلاحي للمرأة؛ إيمانا منه بأن أفضل السبل للإصلاح هو طريق التربية والتعليم، وأن المرأة في ذلك شقيقة الرجل ولا بد من إعدادها بصورة شاملة تؤهلها لهذه المهمة.

وإلى جانب هذا نجده يؤكد على ميادين للأعمال يعتبر حضور عنصر المرأة فيها ضروريا، بل يعد واجبا في حقها، وقد ينتقل بعض الفروض الكفائية إلى فروض عينية.

هذه الميادين –من وجهة نظر الشيخ- لا بد أن يكثر فيها النساء، ولعل أولها وأولاها "الميدان الطبي"؛ إذ يجب أن تكون هناك طبيبات مسلمات ماهرات فيكل ناحية من نواحي الطب، والأشعة، والصيدلة، والولادة، والتمريض... ثم ميدان التدريس لجميع المراحل دنياها وعلياها[616].

والشيخ "الغزالي" في معرض تأييده لعمل المرأة الاجتماعي والتعليمي التربوي والصحي.. يقول في أسلوب تحفيزي: "أعرف أمهات فاضلات مديرات لمدارس ناجحة، وأعرف طبيبات ماهرات شرفن أسرتهن ووظائفهن وكان التدين من وراء هذا كله"[617].

ويقول كذلك في مؤلف آخر: "أعرف نساء يقمن بعمل رحب في خدمة بيوت الطالبات وإنشاء المؤسسات الصحية والثقافية في مقدمتهن السيدة الجليلة "زهيرة عابدين" الأستاذة بكلية الطب بجامعة القاهرة وقد استعانت بي في فتوى متواضعة

([614]) محمد الغزالي، معركة المصحف في العالم الإسلامي، ص 266.

([615]) محمد الغزالي، من هنا نعلم، ص 173.

([616]) محمد الغزالي، مائة سؤال عن الإسلام، ص 418.

([617]) محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص 45.

لتمنع متخرجة في الصيدلة من القعود في البيت والارتزاق من آلة خياطة لأن أحد المشايخ قال لها: "إن المرأة لا يجوز لها أن ترى أحدا ولا يراها أحد!!".قلت لها: صاحب هذه الفتوى مخبول لا يعرف الإسلام...بل هو وأمثاله قرة عين لأعداء الإسلام، فلا يحرم الإسلام على المرأة أن تبيع أو

تشتري، وأن تتعامل مع الناس ما دامت مستترة في زيها الإسلامي متأدبة بآداب الإسلام غير متبرجة بزينة تحفظ نفسها وعرضها من الذئاب"(618).

وما نستشفه من هذين النصين أن الشيخ –وهو يحاول صياغة البديل الإسلامي- يعمل جهده في سبيل حث المرأة واستنهاضها، كي لا تتقاعس عن أداء أدوارها، وإلا توكل مهامها للرجال وحدهم. ولا أدل على ذلك من دور الطبيبة؛ إن فقدانها يورث المجتمع إحراجا ومشقة كبيرين. وفي حال وجودها يرفع الحرج وتزول المشقة على نساء الأمة ورجالها ككل. فتبقى بذلك حالات الاضطرار التي فصل فيها الشرع جانبا له أحكامه.

إن غياب المرأة عن تلك المراكز الحساسة لا يمكن أن يصنع مجتمعا إسلاميا راقيا، ويستحيل أن تنهض الأمة الإسلامية مع خذلان المرأة وتقاعسها عن أداء أدوارها في الحياة، ولهذا السبب فقد ذهب "مالك بن نبي" إلى التأكيد على أن: "تطور المجتمع يرتبط، فعلا، بتطور المرأة والعكس صحيح، وطبيعة هذا الرباط كانت تستحق دراسة منهجية..."(619). هذه الدراسة المنهجية التي أشار إليها "ابن نبي"، خاض فيها الشيخ "الغزالي"، فأكسبها بعدا واقعيا موضوعيا، ولعل الملمح الأهم في هذا الجانب الذي تناوله الشيخ بالدراسة والتحليل هو صلته بأفق الدعوة الإسلامية، والارتقاء بالمرأة المسلمة إلى مستوى العصر الذي تعيش فيه.

على هذا الأساس، لم يتحرج "الغزالي" في رد فتاوى البعض المتعسفة والمجحفة في حق المرأة، بل ولم يتردد أيضا في استنكاره لتصرفات بعض الأزواج، من ذلك قوله: "إن كانت للرجل طبيبة في مستشفى فلا دخل له في عملها الفني، ولا سلطان له على وظيفتها في مستشفاها.."(620).

قد يستغرب البعض على "الغزالي" فهمه هذا، ويعتبرونه تجاوزا ليس في محله، أو مبالغة في الكلام. ولكننا نرى أنه محق، وأن رأيه هذا على قدر كبير من الصحة؛ لأن أفكاره ليست أفكارا تحكمها العاطفة والهوى، بل أفكار منطقية أصدرها عقل مفكر واع بما يقول، إنه يقول ذلك بعد طول خبرة وإطلاع على أحوال المرأة المسلمة وغيرها في الغرب... ثم لاستماتته في تقدير ما نهضت به الصحابيات الأوائل من مهمات جسام.

ومما يدعو إلى الانتباه أن أفكار الشيخ في هذا المضمار تعتمد إلى إيقاظ الروح التي خمدت في نفوس المؤمنين وأفئدتهم فأحالت المرأة إلى وضع لا تحسد عليه. الأمر

---

(618) كريمان حمزة، رفقا بالقوارير، دار الفتح (بيروت)، ط2(1405هـ-1985م)، ص 159-160.

(619) مالك بن نبي، في مهب المعركة، ص 97.

(620) محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص48.

الذي تكشفه المقارنة مع المرأة اليهودية -كما سبق- أكثر؛ فكثيرا ما يعمد إلى استنطاق الوقائع والمقارنة كشاهد على ذلك، ولاستجلاء الموقف الصحيح من عمل المرأة ونشاطها خارج بيتها.

ويبدو لي أن هاجسا كثيرا ما أرق عقل الشيخ "الغزالي"، هو البحث عن منهج وسط في المطالبة بتوظيف المرأة، يجسد صورة الدين الصحيح، وفي الوقت ذاته يرقى بالمرأة المسلمة إلى مستوى حضاري لائق ومشرف

لها وبالتالي للإسلام. ولا شك أن الدارس المتفحص لفكره وهو يتناول قضية عمل المرأة، يلحظ حفاوة مؤلفاته بهذا المطلب الذي يؤكد من خلاله بعد حالتي التنافر اللتين تعاني منهما المرأة هنا وهناك عن وسطية الإسلام.

وبالإضافة إلى ما ذكرناه من آراء للشيخ في الوظائف التي يحتاج فيها المجتمع إلى عنصر المرأة، يضيف في موضع آخر قائلا: "... وقد تكون للمرأة أعمال أخرى رسمية وشعبية تخدم بها دينها وتنفع بها قومها وتساهم بها مع الرجال في أداء الرسالة العظيمة التي كلفوا بها.. لا عليها أن تلتفت لذلك إذا شاءت والإسلام ظهير الصالحات والمصلحات في كل عصر ومصر"[621].

إن اهتمام الرجل لهذا الجانب الوظيفي في حياة المرأة لا ينسيه الوظيفة الأساسية للمرأة، بل لا ينتقص من اهتمامه بها؛ فهو لا يفتأ يدافع عنها ويذكر بخطورتها وأثرها في بناء الأمة. من هنا يأتي دور "الغزالي المفكر" ليحل الإشكال الكامن في تشابك الوظائف وتداخلها إلى حد يستدعي التخطيط والتنظيم، وتفهم حدود وآفاق الدور الرسالي المنوط بالمرأة كربة بيت من جهة، وكعضو فعال من جهة أخرى للإسهام في البناء الحضاري للأمة..من هذا المنطلق جاء اقتراحه القيم الساعي إلى إيجاد توازن بين مسؤولية البيت، ومسؤولية المجتمع. فيكون بذلك تدعيم مكانة المرأة في المجتمع وكرامتها في البيت ورسالتها الجليلة في الحياة. توفيقا بين كل ذلك دعا إلى تكليف المرأة بنصف وقت العمل. قائلا: "وأقترح أن تنشأ للنساء وظائف نصف وقت حتى تستطيع الزوجة القيام الحسن على شؤون بيتها وأولادها"[622].

وقريب من رأيه هذا، مقولة المفكر الجزائري "مالك بن نبي" في كتابه "شروط النهضة" والتي تشترك إلى حد بعيد مع ما ذهب إليه "الغزالي" في أسلوبهما ووعيهما الحضاريين المشتركين في الفهم العميق والناضج لوظيفة المرأة في الحياة. إذ يرى أنه من "الواجب أن توضع المرأة هنا وهناك، حيث تؤدي دورها خادمة للحضارة، وملهمة لذوق الجمال وروح الأخلاق، ذلك الدور الذي بعثها الله فيه أما وزوجة للرجل"[623].

([621]) محمد الغزالي، من هنا نعلم، ص 173.

([622]) محمد الغزالي، مائة سؤال عن الإسلام، ص 420.

([623]) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 127.

ويدعو بدوره إلى ضرورة عقد مؤتمر عام تحدد فيه مهمة المرأة بالنسبة لصالح المجتمع، يشارك فيه إلى جانب علماء الشريعة، الأطباء وعلماء النفس والاجتماع وعلماء التربية، ثم يلح على أن تكون مقررات المؤتمر العام "دستورا لتطور المرأة في العالم الإسلامي"(624).

وهناك من يدعم هذا التوجه بآراء مشابهة للتخطيط السابق، فمثلا: "يمكن تحديد عمل معني تلزم المرأة بأدائه سواء في وقت العمل الرسمي، أم بعد هذا الوقت، كما يمكن تحديد وقت لعمل النساء يختلف عن الوقت الرسمي

المحدد للوظائف بوجه عام، كما يمكن عدم تقييد المرأة بالعمل في الوقت المحدد للعمل الرسمي والاكتفاء بتحديد كمية للعمل الذي تلزم بإنجازه يوميا"(625).

والملمح الأهم في هذه الآراء، أنها تسير كلها في خط تفعيل دور المرأة في المجتمع. فحق المرأة في تولي الوظائف العامة في عصرنا ينبغي أن ينأى عن التعطيل ويخضع للتنظيم والتخطيط، لا سيما فيما تقتضيه الحاجة والضرورة.

إن الميزة الجوهرية في طرح الشيخ لقضية الوظائف، أنه لا يضع بعين الاعتبار "القيم المادية" معيارا لقياس عمل المرأة؛ وإنما لجانب "القيم الروحية" مكانته الخاصة في تقدير الشيخ. من هنا نجده لا يستبعد مشاركة النساء المؤمنات في ميادين الجهاد الإسلامي، إذ يرى أنه "من الممكن أن يكون للنساء المؤمنات وجود شريف في ميدان الجهاد الإسلامي أساسه علاج الجرحى، وإعداد الأدوية، ونقل الموتى إلى الجبهات الخلفية، وتهيئة الأطعمة والأشربة، وكتابة بعض الرسائل والنهوض ببعض الأعمال الإدارية... ولا بأس أن يكن مسلحات مدربات فقد تقتضي الضرورة بأن يشتبكن مع العدو، فلا يجوز أن يقعن في يده لقمة سائغة"(626). وهو بهذا الصدد يستقي من أحداث التاريخ الإسلامي الكثير من الأمثلة والوقائع الدالة على ذلك مجليا الحقائق, ومستنبطا العبر.

وصفوة القول أن عمل المرأة الذي لا بد منه من منظور الشيخ، ارتبط بالمعيار القيمي أكثر، فقيمة العمل تكمن في حد ذاته عموما، من ثم كان للأعمال التطوعية التي تؤديها المرأة دون مقابل مادي، كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مكانتها في فكر الشيخ، من أجل ذلك اعتبر "مالك بن نبي" أن "إزالة أذى عن الطريق عمل، وإسداء نصح عن النظافة أوالجمال –دون أن يغضب الناصح حين لا يصغى لنصحه- عمل، وغرس شجرة عمل، واستغلال أوقات فراغنا في مساعدة

(624) المرجع نفسه، ص 131.

(625) محمد فؤاد مهنا، سياسة الوظائف العامة وتطبيقاتها، ص 362/ نقلا عن: برهان زريق، المرأة في الإسلام، ص 308.

(626) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص 162.

الآخرين عمل، وهكذا... فنحن نعمل مادمنا نعطي أو نأخذ بصورة تؤثر في التاريخ..."[627].

إن "الغزالي" يعتبر –بمنطق الداعية المهتم لأمر أمته- أن تعاون المسلمين والمسلمات لإقامة مدنية مشرفة طاهرة أمر ميسور.. وهذا متوفر في حدود تفهم وإدراك المسؤولية الملقاة على كلا الجنسين في الاستخلاف لتحقيق التكامل في البناء الاجتماعي، وأن الإنسانية تسير بقدمي رجل وامرأة[628].

وفي مقابل هذا الوعي، هناك من يلجأ إلى تعميق الفروق بين الذكر والأنثى, ك"طلعت حرب" الذي يرى أن الطبيعة التي فطر الله الناس عليها جعلت المرأة في حيز مخصوص وحددت لها أعمالا تليق بها كالحمل والولادة

والرضاع وتعهد الطفل حتى يكبر...، ومن ثم كانت محاولة تسويتها بالرجل من كل الوجوه خرق سياج الطبيعة وتبديل السنة الفطرية...[629].

ويضيف "محمد فريد وجدي" بأن مشاركة النساء للرجال في الأعمال الخارجية حرض اجتماعي، وتمرد على الفطرة، وهو فضلا عن ذلك عصيان لا شبهة فيه – ومرد ذلك –في نظره- هو مزاحمتها للرجل أثناء الخروج والعمل[630].

إن السمة الغالبة على هذين الرأيين هي التشدد والتنطع في المنع، دون النظر في الضرورات الملجئة لعمل المرأة سواء في ذلك الاجتماعية منها أو الاقتصادية أو النفسية...

إن هذا التطرف يقابله تطرف آخر، وذلك حين يلقى بالمرأة للاشتغال في أي عمل، وقد سعى "الغزالي" بدوره لنبذ هذا المسلك الذميم ظهريا، كما سنبينه...

ثانيا: أعمال مرفوضة

إن أفكار الشيخ "الغزالي" –بهذا الصدد- اتخذت بعدا عاطفيا إنسانيا؛ فإذا اشتهر بأنه يدعو إلى تدعيم المركز الاجتماعي للمرأة وإشراكها في البناء الحضاري للأمة، وينكر على أولئك القائلين بأن "المرأة إجمالا لا علاقة لها بالنشاط الاجتماعي والثقافي"[631]، إلا أنه يرفض رفضا قاطعا إقحامها في كل الميادين لا سيما تلك التي ليست أهلا لها أو لا تتلاءم مع طبيعتها وتكوينها، وحسبما ترى "سهيلة الحسيني" فإن الشيخ قد قسم الأعمال المنوطة بالمرأة والتي ينبغي اختفاؤها إلى ثلاثة أقسام: "منها ما يتعارض وتعاليم ديننا، ومنها ما لا يليق ومساواتها بالرجل، ومنها ما يزري بمكانتها... إذ أن ممارستها هذه الأعمال يسبب شرخا في الأمة"[632].

([627]) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 115.

([628]) محمد الغزالي، مائة سؤال عن الإسلام، ص 420.

([629]) محمد طلعت حرب، تربية المرأة والحجاب، ص 26.

([630]) محمد فريد وجدي، المرأة المسلمة، ص 79ـــ87.

([631]) محمد الغزالي، سر تأخر العرب والمسلمين، ص 43.

([632]) سهيلة الحسيني، المرأة في منهج الإمام الغزالي، ص 143.

من هنا فإن "الغزالي" يعتبر أن ما يفكر فيه فريق من الرجال والنساء، من أن المرأة تعادل الرجل في كل شيء، ويجب أن لا تقل عنه في كل صغيرة وكبيرة... "ليس إلا عبثا يراغم طبائع الأشياء، ويصادم أحكام الدين، ويؤدي إلى أوخم العواقب"[(633)] بل إن هذا العبث في نظره "مكر من بعض الرجال الخبثاء لاستبقاء وتنمية أحوال يذبح فيها الشرف، ويدوخ لها المجتمع...!!"[(634)].

إن إقحام المرأة في ميادين ليست أهلا لها، وحشرها في صفوف الرجال وتركها لعناء المواصلات، ثم صدها عما تستطيع هي وحدها قيادته وتوجيهه، لهو عين التحقير الذي أرست دعائمه المدنية الغربية، وقلده المسلمون وساروا على نهجه في معاملة المرأة. بل هو ظلم للفطرة وتزييف للحقائق حينما توكل مهام الرجل للمرأة،

فتزول الفوارق تدريجيا بين الجنسين وتنمحي. ولا ريب أن الشيخ "الغزالي" إذ يدعو إلى إشراك المرأة في الحياة العامة، إنما يقصد بذلك: " أن تحمل نصيبها الصحيح من الأعمال التي تتقنها بطبيعتها.."[(635)].

على غرار كل ذلك جاءت معالجة الشيخ "الغزالي" للفوضى الناجمة على خلط المهام وتأخير الأولويات أو إهمالها بجهوده المتلاحقة والمتجددة، الفكرية منها والدعوية على حد سواء. وتجدر بنا الإشارة هنا إلى حضور مسألة عمل المرأة في جل كتاباته نظرا لما تقتضيه ضرورة رد الاعتبار لرسالة كل واحد من الجنسين واستعداداته ومؤهلاته الخاصة.

وفي هذا المضمار يرد على شبهة لطالما علقت بالأذهان واستفحلت بفكر المرأة والرجل؛ وهي الرغبة في تذويب الفوارق الموجودة بين الذكورة والأنوثة، وترك المرأة تلج كل ميدان وتلي كل عمل. ثم التغاضي عن ضعفها، وبالتالي تستوي مع الرجل وتتكافأ أمامها الفرص، ولن تعيقها أنوثتها عن أي منصب. ولا أدل على استنكار هذه الرغبة من حديث رسول الله ـصلى الله عليه وسلم ـ: «لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال»[(636)].

ولعل حديث رسول الله ـصلى الله عليه وسلم ـ كلام مجمل يتضمن متفرقات عديدة والتي من بينها تولي المرأة مناصب الجنس الخشن، وبالتالي تشبهها بالرجال في هذا المجال، وكلام الشيخ يمثل جزءا من تحليل الحديث، إذ يعد "انسلاخ أحد الجنسين عن فطرته ليلحق بجنس ليس منه، حرب على الطبيعة، والتواء بالأمور عن مجراها الصحيح، ولن يفيد العالم من ذلك إلا الخلل والفساد..."[(637)].

وبدافع غيرة الرجل على مكانة المرأة المسلمة وقيمتها الاجتماعية، يسعى إلى حمايتها وتحصينها من انحلال الغرب الآثم وتفسخه وانطلاقه الأعمى الذي منح

([633])و(6) محمد الغزالي، الإسلام والطاقات المعطلة، ص 102.

(1)المصدر السابق, ص114.

([636]) الحديث سبق تخريجه, ص174.

([637]) محمد الغزالي، ركائز الإيمان بين العقل والقلب، ص 298.

المرأة هناك حقوقا ظاهرها إنصاف المرأة ومساواتها بالرجل، وباطنها إتلاف للمرأة كعضو نافع في مجتمع نظيف واستغلال طاقاتها. وباسم المساواة القائمة هناك كلفت المرأة من الأعمال ما لا تحسنه، وما لا ينبغي أن تشغل نفسه به[638].

إن "الغزالي" يرفع صياحه عاليا ليرد هذا العوج المنكر من الخلق والسلوك، الذي عرفته المدنية الحديثة ثم أشاعته بطريقة أو بأخرى في أوساط المسلمين، وقد أشرت سابقا إلى رأيه في هذا المضمار، حين يقول: "للمرأة أن تعمل في وظائف مناسبة، وفي ظروف خاصة... وأن يكون جو العمل غير ما تألف المدنية الحديثة. فلا يليق حشر المرأة عارية الأذرع والسيقان في صفوف الرجال، ولا يليق توظيفها لتعرض أوراقا على مدير يختلي

بها إذا شاء... ونحن نعرف أن المرأة في أوروبا وأمريكا اشتغلت بالمصانع والحقول والشركات والجامعات.. ولكن حصاد اللقاء البعيد عن معرفة الله وإتباع شرائعه كان مرا"[639].

إن هذا النص ينم بعمق عن رفض "الغزالي" المطلق للأعمال التي تمس بقيم الدين وتصادم أحكامه، ولا بد أن يحيل الإسقاط الواقعي المباشر إلى القول بحرمة مثل هذه الأعمال حيث التشجيع على نبذ الدين وإدانة أحكامه واضح لا غبار عليه.

إن ما يؤسف "الغزالي" –رحمه الله- ويثير شفقته هو تعرض المرأة في الغرب لبلاء مثير في سبيل طلب رزقها وانطلاقها للكدح في أرجاء الأرض...! وعلى رقة أحاسيسه ظل رده وتعليقه على تلك المظاهر قويا جريئا، واندفاعه في الدفاع في الحق والفضيلة مستمرا، وبهذا الصدد يقول مصورا حقيقة مرة: "..وما ركبت طائرة يوما إلا ونظرت للفتيات نظرة أسف، وقلت في نفسي: لماذا لا يخدمنا رجال بدل هؤلاء الفتيات؟ إنهن يقمن بعمل شاق، وينتقلن بين العواصم المتباعدة، ويبتن بعيدا عن أهلهن! إن اختيار النساء لهذه الأعمال ليس دلالة إنسانية، بل هو أقرب إلى المسالك الحيوانية، وإن حملن اسم "مضيفات"... إن الإسلام يعلو بالمرأة فوق هذا المستوى!" [640].

إن احتكام "الغزالي" إلى تعاليم الدين الصحيحة يفرض عليه القول بوجوب اختفاء مثل هذه الوظائف التي تفرض المبيت في الفنادق، والبعد أياما عن الأهل، إنه يأبى كل الإباء هذه الفوضى الاجتماعية كما استقرت في الغرب، وتفشت بعض مظاهرها في الشرق، والحق أن وضع المرأة هذا لا يرضيه دين ولا ملة لأن: "الدين ينشد الصون ويؤثر الاحتشام، والحضارة الحديثة تنشد التبرج وتدفع إلى الإغراء.. والدين يرفض أي خلوة بين رجل وامرأة، والحضارة المعاصرة تتجاهل هذا الرفض. وهو

---

(638) محمد الغزالي، من هنا نعلم، ص 175.

(639) محمد الغزالي، ركائز الإيمان بين العقل والقلب، ص 306-307.

(640) محمد الغزالي، هموم داعية، ص 66.

يباعد بين أنفاس الرجال والنساء، وهي تقرب بينهم في الأعمال الجادة والهازلة.."[641].

وتجدر الإشارة هنا إلى ما ذهب إليه الشيخ "مصطفى السباعي" في هذا الموضوع إلى تصنيفه حسب فلسفتين: فلسفة الإسلام، وفلسفة الغرب؛ فالفلسفة الإسلامية تقوم على الاحترام والتقدير للبنت والمرأة بوجه عام فهي لا تسمح بتكليفها بالعمل لتنفق على نفسها، بل هناك من تلقى على عاتقه مسؤولية الإنفاق عليها، أما هي فتفرغها التام والكلي يكون لحياة الزوجية والأمومة، وآثار ذلك جلية واضحة لا سيما في صيانة المرأة من عبث الرجال وإغرائهم وكيدهم، لتظل سمعتها محفوظة في المجتمع. أما الفلسفة الغربية فبعيدة كل البعد عن أخلاق الإسلام وفضائله. إنها -في ظل هذه الفلسفة- تفتش عن عمل تعيش منه حتى بلغت سنا معينة، ولا شك أن آثار هذه الفلسفة وخيمة على المرأة والمجتمع السواء، إنها خالية من كل تقدير لرسالة المرأة الخطيرة في الحياة

فضلا عن أنها تزيد من إرهاق المرأة فوق إرهاقها الطبيعي بالحمل والولادة، وكذا تؤدي إلى تفكك الأسرة وضياع الأولاد...[642].

ولا شك من أن الشيخ "السباعي"يقصد بهذا اشتغال المرأة بالأعمال التي تتنافر مع أنوثتها، أو تمس بعفتها وكرامتها.. كما هي الحال عند الغرب.

إن تأثير فلسفة الغرب المادية في مجتمعاتنا الإسلامية بدا واضحا وضوح الشمس في الفترة الأخيرة، ويتجلى ذلك في الرغبة الجامحة في مسايرة الحضارة الغربية في كل شيء فأصبحت بذلك الفلسفة السائدة في العالم هي التسوية التامة بين الجنسين في مباشرة كل شيء!.

لقد عد "الغزالي" هذا التطرف رد فعل على نقيضه المتمثل في سلوك كثير من المتدينين الذين يرون أن المرأة تحجب عن كل شيء وأنها لا تصلح لشيء...!![643].

وقد وقف -رحمه الله- في وجه الحضارة المادية بقوة وحده معلنا رفضه لكل ما تصبو إليه من تحقيق المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة في شتى ميادين الأعمال فنجده يقول: "إنني أرفض هذه المساواة في الأعمال".

إن هذا الرفض لم يأت من فراغ، وإنما لكون مساواة المرأة بالرجل في الأعمال التي لا تناسبها بداهة ولا تتوافق مع طبيعتها، يذيب أنوثتها ويمحق كرامتها...

ويزداد عجب الشيخ لبعض ما يشاهده أو يسمع عنه قائلا: "ورأيت في عاصمة عربية "شرطية" تنظم المرور فقلت: هذا عمل شاق، وما كان ينبغي أن تدفع النساء إليه! فقد تشتغل المرأة شرطية لتفتيش النساء مثلا وما يشبه هذه الأعمال الخاصة، أما الوقوف في الحر والبرد، ودوران البصر وراء قوافل السيارة والمشاة فلا (...)

---

(641) محمد الغزالي، مائة سؤال عن الإسلام، ص 419.

(642) مصطفى السباعي، المرأة بين الفقه والقانون، ص 138.

(643) محمد الغزالي، صيحة تحذير من دعاة التنصير، ص 117.

وحكى لي صديق قادم من موسكو، قال: إن النساء هناك يغسلن الشوارع في الصباح ويشتغلن بالأعمال كلها.. وأن خصائص الأنوثة من نعومة ورقة تكاد تختفي مع قسوة الواجبات التي تفرض على طوائف العاملات.. بل حكى لي أنه رأى عجوزا تصعد مساء إلى السيارة، قافلة إلى بيتها، وهي تترنح لا أدري أهي سكرى أم من الإعياء.."[644].

إن مثل هذه الأعمال وان اكتسبت بها المرأة استقلالها الاقتصادي المالي، إلا أنها لا تكفل لها أدنى كرامة أو قيمة اجتماعية، فتجعل منها بدل المرأة، نصف امرأة؛ لأن النصف الآخر قلدت فيه خصائص الرجل في القوة العضلية والشجاعة والاندفاع، والسعي ليلا ونهارا. ولا يسعى "الغزالي" بهذا الصدد إلا القول بأن: "الشيطان من وراء هذا الخبط في توظيف المرأة"[645].

ومن واقع مجتمعه ينقل الشيخ مظهرا من مظاهر إرهاق المرأة بالأعمال الشاقة التي لا تتناسب وطبيعتها، فقد ارتسمت صورة المرأة التي لا تتناسب وطبيعتها، فقد ارتسمت صورة المرأة التي تدير -الطنبور- لإرواء أرضها في ذهنه طويلا، لتشكل فيما بعد موقفه ورؤيته من مثل هذه الأعمال، فيمكن للمرأة الفلاحة -حسبما يرى- أن تخدم أرضها فتبذر وتسقي...، ولكن لا ينبغي مطلقا تعريض الأمومة والأنوثة للمشاق المعنتة والمرهقة[646].

لقد كان طبيعيا أن يوافق الشيخ "الغزالي" على ما نشرته منظمة الصحة العالمية في تقريرها الأخير، القائل: "وفي جميع الأحوال لا يليق للمرأة أن تعمل في المجالات التي لا تلائم طبيعتها، وأن تدخل في أي ضرب من ضروب الصناعة والحرف المضنية، فالمجالات التي تحسنها المرأة وتتناسب معها كثيرة ومتعددة، كميدان التعليم والطب والتمريض، والرعاية الاجتماعية، والكتابة والنشر، وبعض الوظائف غير المرهقة،...

أما أن تعمل المرأة كل الأعمال الخاصة بالرجال، كأن تكون شرطية وميكانيكية، وعاملة في المصانع، ومنظمة في الشوارع،... فلا يليق لها"[647].

وحسب تحليل الشيخ لهذا النمط من الأعمال التي تزاولها بعض النساء فإنه يقرر بأن الأفضل للمرأة الوقوف عند حدودها الفطرية، واليأس من نشدان المساواة المطلقة -كما تنادي زعمات الحركات النسوية في الخارج والداخل- مع الرجال في هذا الكدح والسعي[648].

([644]) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص 35.

([645]) محمد الغزالي، الإسلام والطاقات المعطلة، ص 104.

([646])محمد الغزالي, قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص 35.

([647]) المصدر نفسه، ص 36.

([648]) المصدر نفسه، ص 37.

وهو رأي يشاطره فيه العديد من المفكرين والدعاة الإسلاميين(*)، وغيرهم، ممن استبان لهم الحق في هذه القضية المتشعبة الجوانب والمتغيرات. ممن يأبون على المرأة الابتعاد عن دائرتها الفطرية، المنسجمة مع شخصيتها وأهميتها لبنات جنسها، كالتعليم والطب والتمريض... ويرفضون خوضها في كل مجال منافسة للرجل، وتقليدا للغرب.

وفي خضم هذا الواقع الذي يعاني من خلط المفاهيم والأدوار، يسعى "الغزالي" إلى علاجه بمنهجية إسلامية تحسن التعامل مع القرآن والسنة، وبعقلانية الداعية إلى الحق. إذ يقول: "...ولو أن كل شيء في الوجود أدى رسالته تبعا لاستعداده الخاص لازدهرت الدنيا واستقام أمرها. أما أن يذهل هذا عن وظيفته اللاصقة به، وذاك عن عمله المعد له، ثم يرمق وظيفة الآخر بتطلع ولهفة، فذلك ما لا تصلح عليه الحياة. لذلك يقول الله عز وجل: ﴿**وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ**﴾[649]، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم -: (لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء)[650]..." [651].

ولعل هذه هي الصورة الصحيحة للمشكلة القائمة في المجتمع، فذهول المرأة عن وظيفتها الأساسية في الحياة، وتطلعها بلهفة وشوق إلى وظائف أخرى قد تزاحم واجبها نحو الوظيفة الأولى، عرض المجتمع إلى تهور بدل أن يرتقي فيتطور. فضلا عن الأسرة، الخلية الأولى لهذا المجتمع.

وعلى هذا يؤكد مالك بن نبي أن "تطور المجتمع يرتبط، فعلا، بتطور المرأة والعكس صحيح"[652].

وصفوة القول أنه لا بد من توجيه عمل المرأة توجيها إسلاميا صحيحا، يخدم دينها وأمتها، ولا يتنافى مع فطرتها.

وعلى غرار ذلك يمكن القول، إن مسألة "الوظيفة" هذه ما يجب أن ينتبه إليه العقل المسلم، ويوسع نطاق دراسته أكثر، والشيخ "الغزالي" إذ يكثر من الإحالة إلى هذه المسألة والتأكيد عليها، إنما يضع مبضعه على الجرح. والقرآن الكريم يؤكد في جوهره على وظائف الموجودات ومعالم حراك الإنسان

(*) من أمثال: يوسف القرضاوي، مصطفى السباعي، مالك بن نبي، زينب الغزالي، متولي الشعراوي... وغيرهم.

(649) سورة النساء: الآية 32.

(650) الحديث سبق تخريجه, ص174.

(651) محمد الغزالي، الإسلام والطاقات المعطلة، ص 102.

(652) مالك بن نبي، في مهب المعركة، ص 97.

في هذا الكون المترامي الأطراف. ولا يمكن لقضية عمل المرأة أن يغض الحديث حولها دون تفكيك شبكة العلاقات الاجتماعية للمجتمع الإسلامي، والفهم الأمثل لكيفية اشتغال أطرافها، ومحاولة الوصول إلى التنظيم الأفضل الذي يقوم على الوعي التاريخي المؤسس على الاستيعاب الأمثل لمتغيرات العصر، وكيفية تطور العلاقة بين المرأة والرجل ورؤية كليهما الآخر.

خاتمة

إنَّ **موضوع المرأة** –كما تبدّى لي في خاتمة المطاف – موضوع واسع متشعب, اختلف فيه الكتاب قديما وحديثا، و لم يجمعهم رأي واحد, بل ذهبوا فيه **مذاهب شتى وطرائق قددا**, مما يجعل الباحث المبتدئ إزاء مشاكل خلافية يصعب حلها؛ إذ الأمر خاضع لوجهات نظر متعددة, تختلف باختلاف مرجعيات ومعتقدات أصحابها. وهذا –من دون شك– من أصعب العوائق التي تعترض سبيل الباحث في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية بشكل عام.

ومن خلال الاستقراء والمتابعة لهذه الآراء والتوجهات توصلت هذه الدراسة إلى **جملة نتائج**, نجملها فيما يأتي:

1. السبق الغربي في تناول موضوع المرأة كقضية اختلفت حولها الآراء وتضاربت, غير أنها صبّت كلها في التحرر المطلق. فموضوع المرأة في العالم الغربي تطورت حيثياته بعد عصر النهضة ـــ وإن ظل حبيس النظرة الدونية قبله ـــ ولكنه بقي قابعا عند حدوده الصورية الشعاراتية فقط؛ فبعد أن قطع الغرب شوطا كبيرا في مجال تحرير المرأة, **لم تقدم الحضارة الأمريكية والأوروبية للمرأة سوى مزيدا من الاستغلال والمتاجرة بكرامتها وشرفها**, فكان أن حولتها بذلك إلى حريم مشاع للجميع.

2. بحكم الاحتكاك الحاصل بين النخب العربية والإسلامية المثقفة والفكر الغربي ، وهو في أوج قوته وتقدمه, لم تلبث تلك الأفكار التحررية أن انتقلت عدواها إلى العرب والمسلمين محدثة بذلك حالتي التجاذب والتنافر اللتين ميزتا الطرح العربي والإسلامي إزاء تلك الأفكار . فكان أن عرفت قضية المرأة في الأوساط العربية الإسلامية خلال النصف الأول من القرن العشرين صراعا فكريا واسعا ضمّ مختلف التيارات والتوجهات التي تنهل دعاواها من مشارب شتى. تراوحت –في مجملها– بين طرف شديد الاندفاع يتبنى المرجعية الفكرية الغربية, وآخر شديد المحافظة ينطلق من مرجعية فكرية إسلامية. وظل الأمر يجري في كلا الطرفين **بين تفريط وإفراط** لا يريد أحدهما الالتقاء بالآخر, **فتغيب الوسطية** في زحمة هذا التطرف.

3. بالرغم من التناول الواسع والمتنوع لموضوع المرأة كقضية في مختلف الخطابات العربية (الليبيرالية أو العلمانية)، إلا أن التناول لا يعكس وضوح القضية بقدر ما يحيل إلى تعقيدها وعدم الاتفاق حولها, فهي من نوع تلك القضايا الشائكة الصعبة . ولعل هذه الصعوبة الكامنة في قضية المرأة متأتية من أنها **قضية إنسان**؛ إذ لا يمكن حصرها في المرأة كفرد. وهي نتيجة لتاريخ طويل ومليء بالأحداث التي أسهم كل حدث منها في تشكيلها.

4. أما عن واقع القضية في الفكر الإسلامي الحديث فقد شغلت حيزا مهما من الآراء والاتجاهات والمذاهب الفكرية؛ إذ قيّض الله لهذه الأمة علماء أعلاما وهبوا حياتهم كلها للدفاع عن الإسلام ونصرة قضاياه, والذّود عنه أمام الحملات المتتابعة من أعداء الإسلام ودعاة العلمانية والإلحاد. فكانت **دعواتهم يطبعها طابع الإصلاح** الساعي إلى إحداث التغيير في المجتمع, وسدّ منافذ الخلل فيه, لاسيما على مستوى الأسرة ومكونها القاعدي (المرأة).

والشيخ "محمد الغزالي" -رحمه الله- واحد من **الفاعلين الإسلاميين** الذين أضاءوا طريق الدعوة, وخصصوا الحيز الشاسع من فكرهم لقضية المرأة. وله **مواقفه الخاصة** والمتميزة وسط هذا الحشد الهائل من الجهود البارزة لأعلام الفكر الإسلامي الحديث.

لقد قدم الرجل **مشروعا فكريا** أثرى به الساحة الإسلامية, ووقف في وجه التحديات التي تواجه نهوض الأمة بين الحين والآخر. وكان من بين أهم محاور هذا المشروع : **المرأة وقضاياها المختلفة.**

وقد توصلت من خلال الاستقراء والتحليل في هذا الجزء المهم من الدراسة إلى النتائج الآتية:

- عاش **"الغزالي"** حياته مدافعا عن المرأة, ومحاربا أوضاعها التي لا تمت للإسلام بصلة, وهذا من منطلق غيرته على الإسلام وحرصه على انتشاره في كامل أرجاء المعمورة.
- لم تخل مؤلفاته، من أولى كتبه، من جهاد متواصل. فقد **ظل يقاوم على جبهتي الإفراط والتفريط**, وكله أمل في تحقيق منهج الوسطية الإسلامية.
- تميز طرحه في قضية المرأة **بالنقد الشديد** لمواقف بعض شيوخ الإسلام من قضايا المرأة, والتي يجد فيها الأعداء ثغرات واسعة لبث سمومهم, ونزع ثقة المسلمين بفقههم وفقهائهم، مستفيدين في ذلك من الإفراط والتفريط الذي وقع فيه بعض المسلمين .
- تأكيده المتواصل على أن مشكلة المرأة ليست متعلقة بالنصوص, بقدر ماهي **مرتبطة باستيعاب حركية الواقع الاجتماعي**, وبمستوى توظيف العلم والمعرفة في استيعاب علاقة النص بالواقع والعلاقة الجدلية بينهما.
- والشيخ **"الغزالي"** يتخذ من كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- **مرجعية** لكل أفكاره المتعلقة بالمرأة ويرفض ما يخرج عن دائرة الصحيح والمتواتر من أحاديث موضوعة أو واهية.
- اهتمامه بقضية المرأة يأتي **تجاوبا** مع الحالة الاجتماعية لعصره وتأثره بها.
- اهتمامه أيضا بقضية المرأة جاء ثمرة **نضج فكري ومعرفي وثقافي**, ووعي حقيقي بمدى تأثير المرأة في الفرد والمجتمع وبالتالي الأمة ككل.
- إيمانه التام بدور **التكوين الفكري والتأهيل التربوي**.. في تشكيل شخصية المرأة بما يتواءم ووظيفتها.

- قضية المرأة من القضايا **الوجودية الإنسانية** التي تطرح أزماتها في كل عصر, حسب ملابساته ومعطياته وظروفه.

- اهتمام " **الغزالي**" بقضية المرأة يتخذ **أبعادا دعوية** أكثر منها شرعية وإنسانية واجتماعية ؛ إذ ينشد مصلحة الدعوة سعيا منه لتحدي واختراق كل ما يقف في طريقها, ودفاعا متواصلا عن الإسلام بالوقوف في طريق المجهودات المسيئة لصورته , بدافع التخويف والتنفير منه لا غير.

- اهتمام الرجل الواضح بقضية "**طغيان التقاليد الراكدة والمستوردة على تعاليم الدين في حياة المرأة المسلمة** "؛ إذ أولاها جانبا كبيرا من كتاباته ومؤلفاته التي توجها بمؤلفه :"قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة, وقد ظهر هذا الاهتمام في صورة الإنكار الصريح لكل ما يكتنف حياة المرأة من عادات سيئة أو تقاليد بالية، فضلا عن ذلك فإنه يعدها مظهرا من مظاهر تأخر المسلمين، بل من أخطر أسباب تخلفهم.

- استطاع الشيخ "**الغزالي**" بواسطة شخصيته الدعوية تغيير عادات وتقاليد نحو الأصح والأصلح, بالتنديد بها والكشف عن تناقضها مع مبادئ الإسلام وأخلاقياته, والدعوة إلى مقاومتها و بترها من مجتمعاتنا.

- والأمر الذي لا يغفله " **الغزالي**" هو أن فترات التراجع والتقهقر والوهن الحضاري لا يمكن أن تعتبر مقياسا لواقع المرأة, وإنما **المعيار القيمي** هو الكتاب والسنة، **والمعيار التجسيدي** هو مرحلة السيرة والخلافة الراشدة وخير القرون، وليس فترات التراجع والانحطاط التي تتحكم فيها العادات والتقاليد غير الشرعية، وتغيب معها القيم والتعاليم السماوية.

- دعوته الدائبة إلى ضرورة **غربلة المنقول** من التراث والحضارة الحديثة.

- دعوته إلى الوقوف **والإطلاع على تفوق المرأة في الغرب**، بل إلى حسن الاقتباس منها.

- والشيخ " **الغزالي**" في حديثه عن المرأة يركز على قضية جوهرية حاسمة لا يمكن تجاوزها بأي حال من الأحوال هي التربية والتعليم؛ تربية المرأة لتكون فيما بعد **مربية أجيال**, وتعليمها لتهيئتها لهذه المهمة الجليلة والخطيرة في آن واحد.

-لقد أثبت الرجل حرصه على توثيق الصلة بين **برامج التعليم وبرامج التربية** كما سعى إلى إيجاد أسس لبرامج التأهيل والتدريب, تجعل الإفادة مرجوة من التعليم والتربية في إطار رسم الوجهة للسلوك المنشود وتدريب الأفراد عليه.

- والإشكال –فيما يرى "**الغزالي**"- ليس في الدين ولا في المرأة, بل هو **كامن في العقل** الذي يخطط ويدبر ويرسم معالم المناهج, وفي زوايا النظر التي يستكشف من خلالها النصوص, ويرى عبرها العالم والحياة والإنسان.

-لا يناقش "**الغزالي**" قضية اللباس كجزئية يتصرف فيها بتلقائية, بل يناقشها من منظــور **المنظومــة القيمية الإسلامية كمنظومة شمولية متكاملة** تسعى إلى تحقيق التوازن بين كافة مــستويات الحيــاة الاجتماعية، وترفع بالإنسان إلى مستوى الوعي الجمالي الذي هو مرحلة راقية جــدا مــن مراحــل الوعي.

-مشكلة لباس المرأة هي **مشكلة الإنسان المسلم**؛ إذ لا يمكن أن تعالج هذه القضية الحرجــة دون أن يهيئ المجتمع الظروف اللازمة لها؛ النفسية والاقتصادية وغيرها. وكلما اضطرب منــهج الرجــل في الحياة اضطرب منهج المرأة, وكلما كانت مؤسسات الدولة لا تمتلك مشاريع أصلية تعبر بعمق عــن هوية الأمة, كلما أثر هذا سلبا على الأساس القاعدي للأسرة, وأدى إلى تمييع مسائل كثيرة, مثلمــا حدث لمسألة الحجاب, الذي طغى زخرفه على مضمونه الراقي.

- وهو في مسألة النقاب يطلب للمرأة **التزاما إسلاميا صحيحا**, لا علاقة له بتــبرج الغربيــات, ولا بهوان الشرقيات المسلمات وإهدار آدميتهن.

- وفيما يتعلق بقضية " **عمل المرأة**", فالرجل تمثل فقه الأولويات وتقسيم المهام, ليؤكد على خطورة وظيفة المرأة؛ فهي التي **تهيئ الأساس القاعدي للبيت**, فإعطاء العناية الكافية للشؤون الداخلية هــي الجوهر, وهو الذي يفيض خيره العميم إلى الخارج, ثم بعد ذلك تتحدد وظائفها الأخرى بناء علــى احتياجات الأمة.

-إن فقه "**الغزالي**" في قضية " عمل المرأة" طرأ عليه تحول ملموس مسَّ سائر محطاته الدعوية ومؤلفاته الفكرية طيلة حياته, ومن خلال تتبع مسارات موقفه ومدى ما لحق بها من تغــيرات، أو بــالأحرى تطورات مست الثوابت؛ إذ كان لابد أن تحدث بطريقة أو بأخرى. يمكن القول إن الرجــل أســهم بعمق في **تكوين العقلية الإسلامية التي تستوعب متغيرات العصر** وتكّيفها وفقا لثوابتــها وطبيعــة أصالتها, ضمن نسق وظائفي إنساني لا يمكن للرجل ولا للمرأة أن يحيدا عنه.

وفي الأخير أتمنى أن يؤتي هذا البحث المتواضع أكله ، ويضيف لبنة أساسية من لبنــات البحــث العلمي في مجال الدعوة والإعلام ، ويسدّ بعض النقص في مراجع مكتباتنا ، خاصة ما يتعلــق بفكــر الشيخ" **محمد الغزالي**" ـــ رحمه الله ـــ الذي لن نوفيه حقه بالنظر لتجربته الدعوية الخصبة وعطائــه اللامحدود للأمة الإسلامية .

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم (برواية ورش)
- الحديث الشريف

- الإمام أبي عبد الله محمد البخاري الجعفي, صحيح البخاري, شركة الشهاب (الجزائر), ط(1990م), ج1, ج2, ج3, ج6, ج7.

-الإمام محي الدين النووي, صحيح مسلم, تحقيق وإخراج: الشيخ خليل مأمون شيحا, دار المعرفة (بيروت), ط4 (1418هـ -1997م), ج3, ج5, ج6, ج9, ج12, ج16.

- محمد ناصرالدين الألباني, صحيح سنن النسائي, مكتبة المعارف (الرياض), ط1(1419هـ - 1998م).

-محمد ناصر الدين الألباني, صحيح سنن أبي داود, مكتبة المعارف (الرياض), ط1(1419هـ - 1998م).

-محمد ناصر الدين الألباني, صحيح سنن ابن ماجه, مكتبة المعارف (الرياض), ط1(1417هـ - 1997م).

-الإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي, السنن الكبرى, إعداد: يوسف عبد الرحمان المرعشلي, دار المعرفة (بيروت), ط2 (1408هـ -1988م).

-الإمام أبي محمد عبد الله بن بهرام الدارمي, سنن الدارمي, دار الفكر (بيروت).

-الإمام السندي, سنن ابن ماجة, دار المعرفة (بيروت), ط1 (1416هـ -1996م).

-أحمد محمد شاكر, الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي, دار الكتب العلمية (بيروت).

-صفاء الضوي أحمد العدوي, إهداء الديباجة بشرح سنن ابن ماجه, دار اليقين (البحرين), ط1(1422هـ -2001م).

-مسند الإمام أحمد بن حنبل, دار صادر (بيروت), مج1, مج2, مج5.

-محمد زكريا الكاندهلوي, أوجز المسالك إلى موطأ مالك, دار الفكر (بيروت), ط3(1400هـ - 1980م).

- ابن عساكر, تهذيب تاريخ دمشق الكبير, دار إحياء التراث العربي (بيروت), ط3(1407هـ - 1987م).

***أولًا* / المصادر:**

- **محمد الغزالي:** -الإسلام والاستبداد السياسي, دار القلم (دمشق), ط1(1424هـ-2003م).

- الإسلام والطاقات المعطلة, دار البعث (الجزائر), ط(1988م).
- تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل, دار المعرفة (الجزائر), ط(1999م).
- جرعات جديدة من الحق المر, دار نهضة مصر (القاهرة), ط(2000م), ج5.
-حصاد الغرور, دار الشهاب (باتنة), ط(1986م).
-الحق المر, دار نهضة مصر (القاهرة), ط(2000م), ج1, ج3, ج4.
-حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة, دار المعرفة (الجزائر), ط(2001م).
-الخديعة: حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي, دار نهضة مصر (القاهرة),ط(1998م).
-دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين, دار الكتب(الجزائر), ط(1408هـ-1988م).
-الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر, دار الهدى(الجزائر), ط(1988م).
-ركائز الإيمان بين العقل والقلب, مكتبة رحاب (الجزائر), ط1(1408هـ-1988م).
-سر تأخر العرب والمسلمين, دار البعث (الجزائر), ط(1406هـ-1986م).
-السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث, دار المعرفة (الجزائر), ط(1999م).
-صيحة تحذير من دعاة التنصير, دار نهضة مصر (القاهرة), ط(2002م).
-الطريق من هنا, دار الكتب (الجزائر), ط(1986م).
-ظلام من الغرب, دار الشهاب (باتنة), ط(1986م).
-علل وأدوية, دار المعرفة (الجزائر), ط(1999م).
-الغزو الثقافي يمتد في فراغنا, دار الكتب (الجزائر), ط(1987م).
-الفساد السياسي في المجتمعات العربية و الإسلامية, دار نهضة مصر (القاهرة), ط3 (2003م).
-قذائف الحق, دار الكتب (الجزائر), ط(1989م).
-قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة, دار ريحانة (الجزائر).
-كفاح دين, دار القلم (دمشق), ط1(1424هـ-2003م).
-ليس من الإسلام, دار القلم (دمشق), ط1(1420هـ-1999م).
-مائة سؤال عن الإسلام, مكتبة رحاب (الجزائر), ط(1419هـ -1999م).
-محاضرات الشيخ"محمد الغزالي" في إصلاح الفرد والمجتمع, دار رحاب(الجزائر), ط(1989م).
-المحاور الخمسة للقرآن الكريم, دار المعرفة (الجزائر), ط(1999م).
-مستقبل الإسلام خارج أرضه؛ كيف نفكر فيه, دار الكتب (الجزائر), ط(1987م).
-مشكلات في طريق الحياة الإسلامية, دار هومة (الجزائر).
-معركة المصحف في العالم الإسلامي, مكتبة رحاب (الجزائر).
-من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث, شركة الشهاب (الجزائر).
-من هنا نعلم, دار الكتب (الجزائر), ط(1988م).
-نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم, دار بغدادي (الجزائر), ط(2000م).
-هذا ديننا, دار الكتب (الجزائر).
-هموم داعية, دار الشهاب (باتنة), ط(1992م).

***ثانيا* / المراجع:**

- ابن كثير, تفسير القرآن العظيم, دار الأندلس (بيروت), ط2(1400هـ -1980م).
- ابن الهاشمي, الداعية زينب الغزالي –مسيرة جهاد وحديث من الذكريات من خلال كتاباتها–, دار الصديقية (الجزائر), ط(1409هـ -1988م).
- أبو حامد الغزالي, إحياء علوم الدين, دار المعرفة (بيروت), مج4.
- أحمد ماهر البقري, العقاد: الرجل والقلم, دار المعارف (مصر), ط2(1404هـ -1984م).
- أحمد محمد سالم, المرأة في الفكر العربي الحديث, دار الكتب (مصر), ط2(2003م).
- أحمد مصطفى فضليه, الإمام "محمد الغزالي" وشهادة التاريخ, مراجعة وتقديم: محمد عمارة, دار الدعوة (الإسكندرية), ط1(1422هـ -2002م).
- أفرام البعلبكي, مدخل إلى تاريخ الفكر, دار الحداثة (بيروت), ط1(1984م).
- برهان زريق, المرأة في الإسلام (قراءة معاصرة), دار كنعان (دمشق), ط1(2001م).
- تركي رابح عمامرة, الشيخ عبد الحميد بن باديس؛ رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر, المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار (الجزائر), ط5(1422هـ -2001م).
- جميلة كديور, المرأة: رؤية من وراء جدر, ت: سرمد الطائي, دار الفكر المعاصر (بيروت, دمشق), ط(1422هـ -2001م).
- جودت سعيد, رياح التغيير –قضايا الإنسان والعلم والتأويل–, دار الفكر المعاصر (بيروت), ط1(1416هـ -1995م).
- رمضان خميس الغريب, –الشيخ "محمد الغزالي"؛ حياته وعصره وأبرز من تأثر بهم , دار الحرم للتراث (القاهرة), ط1(1422هـ -2002م).

  –محاور المشروع الفكري لدى الشيخ " محمد الغزالي", دار الحرم للتراث (القاهرة), ط1(1423هـ -2003م).
- رندل جبر, المرأة والولايات العامة في السياسة الشرعية, دار عمار (عمان), ط1(1420هـ -1999م).

زكي علي السيد أبو غضة, –المرأة في اليهودية والمسيحية والإسلام, دار الوفاء (المنصورة), ط1(1424هـ-2003م).

–مساوئ تحرر المرأة في العصر الحديث, دار الوفاء (المنصورة), ط1(1425هـ-2004م).
- زكي الميلاد, تجديد التفكير الديني في مسألة المرأة, المركز الثقافي العربي (المغرب), ط1(2001م).
- سالم البهنساوي, المرأة بين الإسلام والقوانين العالمية, دار الوفاء (المنصورة), ط1(1424هـ -2003م).
- سهيلة الحسيني, المرأة في منهج الإمام الغزالي, دار الرشاد (القاهرة), ط1(1419هـ -1998م).
- سيد قطب, في ظلال القرآن, دار الشروق (القاهرة), ط16 (1410هـ -1990م).
- الطاهر الحداد, امرأتنا في الشريعة والمجتمع, موفم للنشر, 1992م.
- عباس محمود العقاد, التفكير فريضة إسلامية, مكتبة رحاب (الجزائر).
- عبد الحليم أبو شقة, تحرير المرأة في عصر الرسالة, دار القلم (الكويت), ط1(1410هـ -1990م), ج1.
- عبد الحليم عويس, الشيخ" محمد الغزالي"؛ تاريخه وجهوده وآراؤه, دار القلم (دمشق), ط1(1421هـ -2000م).
- عبد الحميد حسنين حسن, من مقالات الشيخ "محمد الغزالي", دار نهضة مصر (القاهرة), ط(2002), ج2.

■عبد الصمد الكباص و عبد العزيز بومسهولي, الزمان والفكر, دار الثقافة (الدار البيضاء), ط1(1423هـ -2002م).

■عبد الكريم زيدان, المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم في الشريعة الإسلامية, مؤسسة الرسالة (بيروت), ط2(1415هـ 1994م).

■عبد الله محمد الغذامي, المرأة واللغة, المركز الثقافي العربي (الدار البيضاء –بيروت), ط2(1997م).

■ علي أفرفار, صورة المرأة بين المنظور الديني والشعبي والعلماني, دار الطليعة (بيروت), ط1(1996م).

■علي شريعتي, مسؤولية المرأة, ت. خليل الهنداوي, تحرير وتحقيق محمد حسين يزي, دار الأمير للثقافة والعلوم, (بيروت), ط 1 (1420هـ 2006م).

■عمار طالبي, اصطلاحات الفلاسفة, المؤسسة الوطنية للكتاب (الجزائر), ط(1983م).

■فتحي حسين الملكاوي, العطاء الفكري للشيخ "محمد الغزالي", المعهد العالمي للفكر الإسلامي, مكتب الأردن, ط1(1417هـ -1996م).

■قاسم أمين, تحرير المرأة, موفم للنشر (1988م).

■ قطب عبد الحميد قطب, خطب الشيخ" محمد الغزالي" في شؤون الدين والحياة, مكتبة رحاب (الجزائر), ج1, ج2, ج4.

■ كريمان حمزة, رفقا بالقوارير, دار الفتح (بيروت), ط2(1405هـ -1985م).

■ مالك بن نبي, -شروط النهضة, دار الفكر (دمشق), ط4(1425هـ -2004م).

-في مهب المعركة, دار الفكر المعاصر (بيروت, دمشق), ط3(1420هـ -2000م).

■ محمد إبراهيم مبروك, المرجع في العلمانية: حقيقة العلمانية والصراع بين العلمانيين والإسلاميين, مكتبة الإشعاع (الإسكندرية), ط1(2002م), ج1.

■ محمد عبد العليم مرسي, الإسلام ومكانة المرأة, مكتبة العبيكان (الرياض), ط1(1418هـ -1997م).

■ محمد عمارة, الشيخ " محمد الغزالي"؛ الموقع الفكري والمعارك الفكرية,دار الرشاد (القاهرة), ط2(1418هـ -1998م).

■ محمد فريد وجدي, المرأة المسلمة (دراسة نقدية لدعاة تحرير المرأة), أضواء السلف (الرياض), ط1(1419هـ -1999م).

■ محمد سعيد رمضان البوطي, -المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني, دار الفكر (دمشق),دار الفكر المعاصر (بيروت), ط(1421هـ -2000م).

-من الفكر والقلب (فصول من النقد في العلوم والاجتماع والأدب), دار الهدى (الجزائر), ط(1990م).

■ محمد صالح المراكشي, تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار (1898—1935م), الدار التونسية للنشر(تونس), كلية الآداب والعلوم الإنسانية (تونس).

■ محمد طلعت حرب, تربية المرأة والحجاب (وهو رد على دعاة محرري المرأة), أضواء السلف (الرياض), ط1(1419هـ -1999م).

■ محمود زيدان, مناهج البحث الفلسفي, جامعة بيروت, 1994م.

■ مسعود فلوسي, -الشيخ" محمد الغزالي"؛ غصن باسق في شجرة الخلود, مكتبة وهبة (القاهرة), ط1(1424هـ -2003م).

-الشيخ "محمد الغزالي"؛ رائد منهج التفسير الموضوعي, دار الوفاء.

■ مصطفى السباعي, المرأة بين الفقه والقانون, دار الوراق (بيروت), ط7(1420هـ -1999م).

■ منى حسين الدسوقي, الشيخ مصطفى الغلاييني في مفاهيمه الإصلاحية, دراسة مقارنة بينه وبين الشيخين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده, المكتبة العصرية, (صيدا –بيروت), ط1(1419هـ -1999م).

■ منصور كافي, البحث العلمي؛ تقنياته ومناهجه وطرق تحقيق مخطوطاته, جامعة باتنة.

■ مولاي ملياني بغدادي, حقوق المرأة في الشريعة الإسلامية, قصر الكتاب(الجزائر), ط1(1997م).

■ ناي بنسادون, حقوق المرأة منذ البداية وحتى أيامنا, ترجمة وجيه البعيني, دار عويدات (بيروت), ط1(2001م).

■ نعمات أحمد فؤاد, الجمال والحرية والشخصية في أدب العقاد, دار المعارف (القاهرة), ط(1983م).

■ يوسف القرضاوي, -الشيخ الغزالي كما عرفته؛ رحلة نصف قرن, مؤسسة الرسالة (بيروت), ط1(1421هـ -2001م).

-أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة, مؤسسة الرسالة (بيروت), ط14 (1417هـ -1997م).

ثالثا / المجلات والدوريات:

■ إسلامية المعرفة, المعهد العالمي للفكر الإسلامي (ماليزيا), العدد7 (1417هـ -1997م).

■ منهج الشيخ" الغزالي" في التجديد والإصلاح, الإتحاد العام الطلابي الحر, فرع الجامعة الإسلامية (قسنطينة), دار اليمن (الجزائر), ط(2004م).

■ المرأة وقضايا الأسرة بين المبادئ الإسلامية ومعالجات القوانين الوضعية, المجلس الإسلامي الأعلى (الجزائر), العدد3, (1420هـ -2000م).

رابعا / الرسائل:

■ إبراهيم نويري, الشيخ " محمد الغزالي" مفكرا وداعية, جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية, (قسنطينة),(1999م) .

■ سعيدة درويش, مشكلة المرأة في الفكر الجزائري الإسلامي المعاصر, جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية (قسنطينة), (2003م).

■ نور الدين سكحال, الشيخ إبراهيم بيوض ومنهجه في الإصلاح, جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية (قسنطينة), (1994م).

خامسا / المعاجم:

■ ابن منظور الإفريقي المصري , لسان العرب, دار صادر (بيروت), ط3 (2004م), مج5,مج7,مج8,مج11,مج12.

■ الجرجاني علي بن محمد بن علي, كتاب التعريفات, دار الكتاب العربي (بيروت), ط(1423هـ -2002م).

■ عبد المنعم الحفني, المعجم الشامل لمصطلحات الفلاسفة, مكتبة مدبولي (القاهرة), ط3(2000م).

■ فيروزآبادي, القاموس المحيط, دار الكتب العلمية (بيروت), ط1 (1425هـ -2004م).

سادسا / المواقع الإلكترونية:

■ إخوان أون لاين, لطيفة حسين الكندري –بدر محمد ملك, "تربية المرأة من منظور الشيخ "الغزالي"".

■ إسلام أون لاين, ديمتري أفييرينوس," فرويد ونفسانية المرأة".

■ إسلام أون لاين, عبد النور إدريس, "سيمون دي بوفوار والجنس الآخر".

■ إسلام أون لاين, إدريس الكنبوري, "مالك بن نبي وقضية المرأة ؛ سبق المؤتمرات الدولية ودعا إلى عقد مؤتمر للمرأة المسلمة.

فهرس المحتويات

الفصل الثاني الغزالي ومشكلة المرأة.......................... (70-148)

الفصل الثالث الغزالي وقضايا المرأة...............................(150-224)